

الدكتور شوقي أبو خليل

مَنْ هُنَّ إِلَّا يَتَعَالَى الْقَوْلُونُ



دار الفکر
دمشق - سوريا



دار الفکر المعاصر
بيروت - لبنان

الدكتور شوقي أبو خليل

الْتَّوْلِدُ: ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م.

المؤهل العلمي: دكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الأولى.

الوظائف: مدرس مادة التاريخ في ثانويات دمشق، ثم رئيس قسم الامتحانات، ثم الموجه الاختصاصي لمادة التاريخ في مديرية تربية مدينة دمشق، ثم عضو الشاهج والكتب في وزارة التربية العربية السورية. محاضر في كلية الشريعة (جامعة دمشق).

- مدير التحرير في دار الفكر بدمشق.

من كتبه التي تجاوزت الخمسين كتاباً: *الحضارة العربية الإسلامية*، *أطلس التاريخ العربي الإسلامي*، *أطلس دول العالم الإسلامي*، *الإسلام في فफص الاتهام*، *الإنسان بين العلم والدين*، *الإسلام وحركات التحرر العربية*، *هارون الرشيد*، *جرحى زيدان في الميزان*، *الإسقاط في مناهج المستشرقين والمشرقيين*، *التسامح في الإسلام*، *الإسلام نهر يبحث عن مجاري*..

- *配偶ات الرسول الأعظم* (١٠-١).

- *المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام* (١٥-١).

- *سلسلة أحب أن أكون* (١-٢٠).

- *سلسلة أحب أن أعرف تاريخ أمري* (١-١٢).

وجميعها من إصدارات دار الفكر بدمشق.



TEXAS A&M UNIVERSITY



A14837 190003

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



من ضيغ لقت رآن؟





من ضيغ القرآن؟ / شوقي أبو خليل . - دمشق : دار
الفكر ، ١٩٩٨ . - ٣٢٠ ص ؛ ٢٤ سم .
صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٦ .
٢١٨، ٨-١ خ ل ي م - العنوان ٣- أبو خليل
مكتبة الأسد
١٩٩٨/٣/٣٧٥ ع

اسلامیات

مَنْ هُوَ الْمُصْرِفُ عَنِ الْقِرْبَةِ؟
بِأَرْجِي

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفکر
دمشق - سوريا

دار الفکر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي: ٠١١ ، ٣٧٧
الرقم الدولي: ISBN: 978-6-157547-24-0

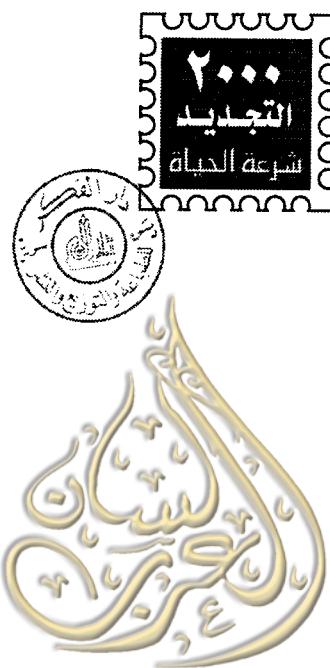
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: من ضيغ القرآن؟
التأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٢٠ ص
قياس الصفحة: ٢٥ × ١٧ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاوسبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خططي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: ٩٦٢ (٩٦٢) دمشق - سوريا
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧
<http://www.fikr.com/>
E-mail: info @fikr.com



إعادة

١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م

ط٣ : ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :
« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي
أَتَخْدِلُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » .
» الفرقان : ٣٠ «

قال صلى الله عليه وسلم :
« يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، أَلْقُرْآنَ فِي
وَادٍ ، وَهُمْ فِي وَادٍ غَيْرِهِ » .
» رواه المأمون عن عبيان بن مجرر «

تصدير

□ « إن أريـه إـلا الإـسـلامـ ما اـسـطـعـت ،
وـمـا تـوـفـيـقـي إـلا بـالـلـهـ ، عـلـيـهـ توـكـلـتـ وـإـلـيـهـ
أـنـيـبـ ». .

(هود / ٨٨)

بـسـمـ اللـهـ ، وـالـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ، وـبـعـدـ ...

□ سـؤـالـانـ يـطـرـحـانـ نـفـسـيهـاـ أـمـاـمـ الـمـؤـرـخـينـ الـذـيـنـ يـبـحـثـونـ فـيـ تـارـيخـ
« صـدـرـ إـسـلـامـ »ـ ، وـفـيـ حـضـارـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ :

١ـ - لـمـاـذـاـ دـانـتـ جـزـيرـةـ الـعـرـبـ خـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ عـلـيـلـتـهـ ، وـلـمـ تـكـنـ
قدـ خـضـعـتـ أـبـدـاـ لـرـجـلـ وـاحـدـ مـنـ قـبـلـ ؟ـ !ـ .

٢ـ - لـمـاـذـاـ قـامـتـ بـعـدـ زـوـالـ الـوـثـنـيـةـ فـيـ الشـرـقـ ، عـلـىـ يـدـ إـسـلـامـ ،
الـذـيـ أـصـبـحـ هـوـ نـفـسـهـ الـدـوـلـةـ ، تـلـكـ الـحـضـارـةـ إـسـلـامـيـةـ ، الـتـيـ
تـزـعـّمـتـ الـعـالـمـ عـدـةـ قـرـونـ ؟ـ !ـ

تـزـعـّمـتـ قـوـةـ وـنـظـامـاـ ، وـبـسـطـاـ لـلـمـلـكـ ، وـجـمـيلـ الطـبـاعـ وـالـأـخـلـاقـ ، وـفـيـ
ارـتفـاعـ مـسـتـوـيـ الـحـيـاةـ ، وـفـيـ التـشـرـيـعـ إـلـيـانـيـ الرـحـيمـ ، وـالـتـسـامـحـ الـدـيـنـيـ ،
وـالـآـدـابـ ، وـالـبـحـثـ الـعـلـمـيـ ، وـالـعـلـومـ ، وـالـطـبـ وـالـفـلـسـفـةـ^(١).....

(١) عن قصة المضمار « عصر الابيان » ول دبورانت ، ترجمة محمد بدران ، صفحة : ٣٨٢ .

حقيقة ، كالشمس في رابعة النهار ، ليس دونها سحاب ، ثورة وحياة دبّت في جزيرة العرب ، نتج عنها فتوحات رائعة ، حملت لواء الحضارة في القرون الوسطى ، فدحرت بربريات ، رضخ المنصف للحضارة المتميزة التي حلّت علينا حلًّا لواء القرآن الكريم : « وإنه لمنظر رائع أن نرى انتصارات سلطان حضارة العرب على همجية فاتحى الشمال ، أولئك الذين انتصروا على آسية الغربية والجنوبية^(١) ». .

هذه الفتوحات ، وهذه الحضارة متّيزة .. لقد استطاعت أمم كثيرة ، غير العرب ، أن تهدم دولًا عظيمة ، ولكنها لم تقدر أن تبدع حضارة . وكل ما قدرت عليه ، هو أنها استفادت بعد زمن طويل من حضارة الأمم التي قهرتها . ومثال ذلك : البربرة الذين قُوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، قاموا بجهود عظيمة دامت قرونًا عديدة ، قبل أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية ، وينحرجو من ظلمات القرون الوسطى .

وأمثال هؤلاء ... المغول ، الذين غيروا جغرافية آسية ، لكن حضارة الإسلام تمثلتهم ، فآبوا مسلمين .

« ولا شيء يورث العجب أكثر من انتصار حضارة العرب على همجية جميع الغزاة ، ومن تخرّج هؤلاء الغزاة من فورهم على مدرسة العرب المغلوبين ، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل^(٢) ». .

(١) تاريخ العرب العام للمشرق : لـ . أ . سيديو ، عَرْبَة : عادل زعير ، الطبعة الثانية : ١٩٦٩ ، ويعني بفاتحى الشمال : قبائل الهون والجرمان ، التي جاءت أوروبية من أواسط آسية .

(٢) « حضارة العرب » لفونستاف لوبيون ، ترجمة عادل زعير ، طبع الباي الطلق ، صفحة ٤٥٨ .

المنصفون من علماء الغرب ، لم ينكروا هذه النهضة ، ولم يستطيعوا نكران أثر حضارة القرآن المجيد على علماء وحضارة العصر الحالي .

هذه النهضة ، وهذه الحضارة الخالدة ، كيف بدأت ؟

وأين هي اليوم ؟ !

□ وقبل أن نجيب ... نقول :

أنكر غير المنصف من الأوروبيين المستشرقين وغيرهم ، حضارة القرآن ، تعصّبوا للحضارة اليونانية لا جَبَّاً لها ، فهي وريثة الحضارات الشرقية ، أحبوها كرهاً وبفضاً وتعصّباً ضد الإسلام ، علماً أن حضارة القرآن مبتكرة ، لم تأخذ عن الحضارتين اليونانية والهندية ، إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية .

هذا ... ومن قال إن علماء الحضارة اليونانية كلهم من أصل يونياني ؟ !

لقد كان أغلبهم من أصل شرقي .

والآن ...

□ لماذا دانت جزيرة العرب لمحمد بن عبد الله ﷺ ، ولم تكن قد خضعت أبداً لرجل واحد من قبل ؟ !

الجواب يبدأ من تقييم « ول ديورانت » : (وإذا ما حكينا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، قلنا إن مُحَمَّداً ﷺ ، كان أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب القت به في دياجير الهمجيّة حرارة الجو ، وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أيٌّ مصلح آخر في التاريخ كله^(١)).

(١) « قصة الحضارة » - عصر الإيمان - لول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، صفحة : ٤٧ .

إن هذا المستوى الروحي والأخلاقي الایماني الرفيع ، المطلوب لتحقيق قاعدةٍ سليمةٍ ، لحضارة مثالية جديدةٍ ، تحقق بعاملين :

- ١ - تربية ، وترزكية ، وتعلم ، وشخصية محمد بن عبد الله ، الذي كان خلّقه القرآن .
- ٢ - تكامل نظرية « القرآن الكريم » الشاملة والمحددة : للكون والحياة والإنسان .

بالقرآن : الذي حلَّ في القلوب ، وانعكس في الأعمال والأخلاق ، أصبح أولئك الذين كانوا بالأمس مشتتين ، لا تجمعهم رابطة سياسية ولا دينية ، أمةٌ مُوحَّدةٌ قويةٌ ، تنشر الحضارة في أرجاء العالم المضطرب . لقد انقلب حال العرب بعد نزول كتاب الله^(١) .

القرآن : الذي حوى علوماً الهيئه ، وأصول العقائد الدينية ، ومنهجاً خلقياً ، وأنهى بقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي ... ، وبرهن عملياً أنه نسيج وحده ، فسبق كل الأوضاع البشرية التي حاول المصلحون أن يرقوها بها البشرية ، فكان من نتاجه : حضارة قامت في العصور الوسطى ، انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأندلس وجامعاتها ، وصقلية وجنوب إيطاليا عندما كان المسلمون هناك ، وعن طريق جنوب فرنسا ، وأثناء الحروب الصليبية ... فكانت المدينة الحديثة . لا تقول ذلك ادعاء ، فقد أثبتت في ذلك كتبٌ عديدة^(٢) ، اعترفت كلها بفضل القرآن الكريم على العالم .

(١) ولسنا هنا في صد اثبات أن القرآن كتاب الله النزل ، وليس من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام ، فهذا ثبتهما عقلاً وفكراً في المجلة الأولى من كتاب « الإسلام في نفس الاتهام » .

(٢) من هذه الكتب:

☆ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، للرحمون عباس محمود العقاد .

قرآن ... في القلب ، مُنْعَكِسٌ في الأفعال ، مع تزكية وحكمة في الروح بهذه الصفات التي حملها الرعيل الأول ، تأسست أول دولة عربية إسلامية .

القرآن الكريم ... الكتاب المعجز ، الذي جاء إلى العرب في ميدان سبّهم ، فخلُقُهم ورائهم ، لقد بزّهم في مجال تفاخرهم في أسواقهم الأدبية ، تحدياً جيّعاً ، تحدي كُلّ من نطق بالضاد ، سابقاً ولاحقاً ، فحاررت به عقولهم :

- ﴿ وَمَا هُوَ بِقُولٍ شَاعِرٍ، قَلِيلًاٰ مَا تَؤْمِنُونَ، وَلَا بِقُولٍ كَاهِنٍ قَلِيلًاٰ مَا تَذَكَّرُونَ^(١) ﴾ .

ومع الحَيَّةِ ... جاء التحدّي ، الذي أدعُنَّ له العرب ، وسلّموا تسلّياً :

- ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رِيبٍ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا، فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شَهِداً عَمِّ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنْ لَمْ تَفْعِلُوا - وَلَنْ تَفْعِلُوا - فَاقْتُلُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتُ لِلْكَافِرِينَ^(٢) . ﴾

□ أمّا التزكية ... التي كانت وظيفة المربّي الأول ﷺ ، فقد كانت أنواراً للهبة تنصب من قلبه الشريف ، إلى قلوب الصحابة الكرام ، فكانت وقوداً وطاقة للعمل والدعوة بحكمة : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ، يَتَلوُ

☆ شمس العرب تستطع على الغرب ، لزغريد هونكه .

☆ الحضارة العربية ، لجاك . س . ريسير .

☆ حضارة العرب ، للدكتور غوستاف لوبيون ... وغيرها كثير .

(١) سورة الحاقة ، الآية الكريمة : ٤١ / ٤٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢٤ .

عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبْل لفي ضلال مبين^(١) .

لقد استطاع محمد بن عبد الله بهذه التزكية ، أن يوجد الرجال الذين هم الدعائم الأولى للدولة العربية الإسلامية في يثرب ، التي تحمل حضارة هي حضارة القرآن .

وبعد هجرته عليه السلام ، وطُدَّ السَّلَمَ بين أهل المدينة ومن حولها ، بالحلف الذي أقامه فيها ، ويمكن أن نستخلص منه أنه^(٢) :

استطاع أن يوحّد بين جميع المسلمين على اختلافهم من حيث القبائل والبطون ، وأن يجعل منهم أمة واحدة ، ألف الإسلام بين قلوب أفرادها المتباعدة ، كاً أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة ، على أساس أن الأخوة في الدين ، مقدمةً على غيرها من الصّلات ، حتى صلة القرابة ، فسَمِّت بذلك فوق القبلية والعشائرية ورابطة الدم ... إلى رابطة العقيدة ، كاً أوضح أن للجماعة - من حيث كُوئُنها جماعة - شخصية دينية وسياسية ، وحقوقاً على الأفراد ، أظهرها السهر على الأمان ، والضرب على يد المفسد .

وطُدَّ دعائم السلطة المركزية ، فاستتب الأمن ، فجاء يوم سارت فيه الطعينة ، من العراق إلى الحجاز ، لا تخشى في طريقها إلا الله والذئب على غمنها .

ونظُمَ عليه السلام ، الجماعة الناشئة ، التي أحاطته بقلوبها وأرواحها ، وهو في ذلك لا يألو جهداً ، ولا يدخر وسعاً في بث الدعوة ، وتبلیغ الرسالة ، ولمْ شمل العرب .

(١) سورة الجمعة ، الآية الكريمة : ٢ .

(٢) ابن هشام ، الجزء : ٢ ، صفحة : ١١٩ / ١٢٣ .

« قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عقريته أساس نظام ديني وسياسي ، ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة ، وصفات متباعدة^(١) .

لقد كان القرآن في ذلك كله ساعده ، ومدد الله إليه الذي لا يتأخر عنه عند الحاجة ، ناقش فيه المشركين في مكة في أمور مسائل الدين وقضاياهم الكلية ، وسفه آرائهم ، وعاب نظامهم الاجتماعي .

وكان القرآن رائده ﷺ في المدينة المنورة ، حين كان يناقش اليهود ، الذين استعانت بهم قريش في الغض من دعوته ، والذين استكثروا على العرب الأميين ، أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، وهم شعب الله الختار وأبناءه وأحبابه ! وكان القرآن مرجعه حين كان يحاسب هؤلاء اليهود ، وغيرهم من أهل الكتاب ، على ما غيروا وبدلوا في دينهم وكتبهم .

العرب الذين كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من خلاف ، صار لهم قانون ساوي ، نظم المعاملات ، كما شرع العبادات :

- نظم المعاملات بين الأفراد والأفراد ، والفرد والمجتمع ، والمجتمع والدولة ...

- ونظم العبادات ، لتكون صلة بين الإنسان وربه^(٢) ...



(١) القول لـ « فنلي » :

Finaly : Greece under the Romans , Chapter V . P . 2.

(٢) تاريخ الاسلام « بتصريف » ، ج ١ ، ص : ١٠٢ ، ط ٦ ، ١٩٦١ () . مكتبة النهضة المصرية .

□ والسؤال الثاني ، الذي طرحته في البداية :

- لماذا قامت بعد زوال الوثنية في الشرق على يد الإسلام ، الذي أصبح هو نفسه الدولة ، تلك الحضارة الإسلامية التي تزعمت العالم عدة قرون ؟

- لماذا ... « بلاد العرب لم تدخل قبل الإسلام في حسبان أحد من رجال السياسة والحكم في أوروبية ، إذ بقيت بلاداً يكتنفها الغموض ، لا يعرف عنها سوى أن أهلها يتعاطون قليلاً من التجارة مع الشام ومصر ، وأن أبناءها يمارسون الجنديمة مرتزقين في الجيوش الفارسية والبيزنطية^(١) » .

يمكننا أن نبدأ في إجابتنا منطلقي من وحدة الأمة العربية ، التي ارتفعت إلى المستوى الروحي والأخلاقي الإيماني الرفيع .

لقد ثبتَ ابن عبد الله ، القرآن في نقوس الصحابة ، وما انتقل إلى جوار ربه ، إلا وكانت راية القرآن ، ترفرف فوق سماء جزيرة العرب قاطبة ، موحّدة لأول مرة في تاريخها ، وكيف يبقى الصحابة في جزيرتهم ، وهم الذين آمنوا بأيات الكتاب الكريم :

- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ بِنَاهٍ بَعْدَ حِينٍ﴾ .

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِلنَّاسِ بُشِّرًا وَنذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينُ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، فشر ، ص : ٥٩ ، طبعة دار المعرف .

(٢) سورة ص ، الآية الكريمة : ٨٧ / ٨٨ .

(٣) سورة سباء ، الآية الكريمة : ٢٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٣٣ .

اقتنع المسلم أن هذه الدعوة العالمية : التوحيد ، والأخلاق ، والمساواة ، والعلم ... لا بد وأن تنتشر وتحقق فيها إرادة الله ... وصار هذا المسلم يعتقد في نفسه أنه مدار الكون ومحوره ، فهب لتبلیغ الرسالة ، ونشر الحضارة .

خرج العرب بعد إسلامهم محملاً « رسالة حضارية » ، خرجوا بقرآن هداية ، ومنهج قرآني محدد واضح المعالم . عرفوا المُنْتَلِق ، وفهموا الهدف ، وما السيف الذي كان في اليدين ، إلا لإزالة العوائق التي حالت دون التبليغ وتأمين طريق الدعوة ، والسبيل للوصول إلى الشعوب المظلومة المضطهدة .

لم يخرجوا بسيف باتر ، وفكرا فاتر ، فإن أكثر البلاد عدد مسلمين ، هي أقل البلاد غزوات إسلامية ، وإن الملاليين المسلمة في أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، لم يصل إليهم من المسلمين أحد يحمل سيفاً راعفاً ، بل وصلتهم حضارة القرآن بالدعاة ، ودعاة فحسب^(١) .

هذه الأمة التي وصفها المستشرقون أنها لم تكن في حسبان أحد ، وأبناؤها مرترقة في جيش فارس ، وجيش بيزنطة :

جاء قَدْرُهَا .. من صاحب القدر .

جاء شأنها .. من صاحب الشأن .

وجاء فضلها .. من صاحب الفضل الذي ربى النفوس وزكاها ، فاستحالت خلقاً آخر .

إن الأرض التي أنتبت الأشواك وطالت فيها ، هي الأرض الخصبة ، التي نمت الفضائل والأخلاق فيها ، فهبت للفتح لهدف سام نبيل ، حتى صار

(١) « انتشار الاسلام » : بالسيف أم بالدعوة ؟ شرحته في الجلسة التاسعة من : « الاسلام في قفص الاتهام » .

ابن البلاد التي فتحت ، يحمد الله لكونه صار مسلماً ، على دين وحضارة الفاتحين .

وهي أبناء البلاد التي فتحت خدمة القرآن وعلومه ، وحضارة الإسلام ، فأضاءت العصور الوسطى بنور سطع في الشرق ، لذلك فرح المنصوفون بأن ترى راية القرآن ترتفع فوق همجية العصور الأوروبية !

خرج الفارس المسلم من جزيرته يحمل عقيدة ، ولا فراغ لديه لتقدير عقيدة جديدة تحمل في ثناياها النقص ، تلتهمه وتحيده عن خط سيره ، لا فراغ : لا في القلب ، ولا في الفكر . فالتفكير نضج وازدحمت فيه : الحكمة والهمة والمحجة :

حكمة في الدعوة ، وهمة في تبليغها ، وحجّة عند عرضها .

☆ ☆ ☆

وأضيف ...

إن حضارة القرآن منهج للحياة متكملاً ، لم يهمل حياة الناس وواقعهم في أدق تفصيلات حياتهم ، فلقد قاد خطى حياتهم في كل اتجاه ، واجهه تصورات وأفكار ومشاعر ونشاطات وارتباطات الناس ديناً ودنيا .

فليس من طبيعة الإسلام أن ينفصل عن الدنيا ، وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجданية ، والأخلاقيات التهذيبية ، والشعائر التعبدية ، أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية .

ليس من طبيعة الإسلام ، أن يرسم طريقاً للأخرة ، لا يبر بالحياة

الدنيا ، طريقاً ينتظر الناس في نهايته فردوس الآخرة ، عن غير طريق العمل في الأرض وعمارتها ، والخلافة فيها عن الله ، وفق منهجه الذي ارتضاه^(١) :

- ﴿قُلْ مَنْ حَرَمَ زِيَّةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيَّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

☆ ☆ ☆

القرآن كتاب سعادة للفرد والمجتمع معاً . أثبت التطبيق العملي ، نجاحه حين فهمه المسلمون الأولون من فم النبي ﷺ الفهم الصحيح ، فاستطاعوا بتمثيلهم لمبادئه ومعانيه وأهدافه ، أن يهزوا العالم ، ويقهروا أعظم امبراطوريتين في آن واحد ، وفي زمن قصير جداً ، ثم أسسوا حضارة مميزة ، اعترف لها كل منصف ، أنها كانت سبب الحضارة الحديثة .

- ما الذي حدث حق ضاعت هذه المبادئ ، وضعع عنها المسلمين ؟
وضع تأثيرها في النفوس ؟

- هل تغير القرآن وما احتوى من مبادئ وأهداف ؟ اللهم لا ، وألف لا .
- هل ساء الفهم ، وتغير المفسرون والفاهمون لهذا القرآن ومعانيه ؟ اللهم
نعم ، وألف نعم .

(١) «المستقبل لهذا الدين» .

(٢) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٢١ .

إن القرآن دعوة لإحياء النفوس الإنسانية وتزكيتها وحياتها على أمثل طريقة تناسبها وتسعدها ، قال عز وجل :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِيطُ بِكُمْ ﴾^(١) .

إنه دعوة لعبادة الله الواحد الأحد ، وسمو في الفكر من أن يعبد صناعاً أو وثناءً أو يشرك بالله أحداً .

إنه الدعوة إلى التربية الأخلاقية المثلى ، ليسود حسن المعاملة بين الناس ، فيتعاملون بثقة وأمانة ووفاء ..

- إنه دعوة إلى العلم وتقديس للعلماء ، لأن العلم منار الحقيقة في ظلمات الجهل .

- إنه دعوة إلى الوحدة ، ونبذ الشقاق والتنافر كيلا تضعف الأمة ويقوى عليها عدوها .

- إنه دعوة إلى التسلیح بكل قوّة ممكّنة لإرهاب العدو فلا يفكّر بتطاول .

- إنه دعوة إلى محاربة الفقر ، ودعوة إلى السعي في طلب الرزق والعمل من أجل اللقمة الشريفة الطاهرة ... وغير ذلك من المبادئ الرفيعة القوية ، صيفت كلها بألفاظ وأسلوب أدبي رفيع ، عجز بلغاء العرب مجتمعين أن يأتوا بمثله .

فهل تغير القرآن ؟ لا .. اللهم لا .

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢٤ .

لم يتغير في ألفاظه ، ولا ضاعت آياته المسطورة ، وهو في بيت كل مسلم ، ونسمعه من إذاعات العالم . ولكن الذي حدث ، أن هذا القرآن في حكم الصائغ رغم وجوده لأسباب منها :

- ١ - الاختلاف في تفسير وتأويل القرآن .
- ٢ - إهمال العلماء لدعوته في توحيد الأمة فأضحت مذاهب وشيعا .
- ٣ - الاختلاف بين العلماء في فهم أهدافه ومراميه ، التي هي دنيوية قبل أن تكون أخرى ! فهو كتاب ما نزل ليقرأ على القبور ، أو في محافل الموتى - الذين ضيّعوا معانيه وتطبيقه في حياتهم - بل هو منهج عمل لإسعاد الأحياء !

٤ - إن المسلمين قد هجروا تدبّره ودراسته ، وفهم معانيه ، ليكون سلوكاً في يومهم :

﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ يَدْبَرُوا آياتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولَوَالْأَلْبَاب﴾^(١).

□ إذن ... لم يفهم المسلمون القرآن الفهم الصحيح ، وهم اليوم في فراغ عقلي وروحي ، دفعهم إلى أن يدرسوا العقائد والمذاهب المطروحة في العالم ، والمبرجة من بشر ، وأين « البرنامج » يضعه بشر أن يصل إلى حكمة وصواب البرنامج الإلهي الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، وهو أعلم بن خلق ! وفي هذا الكتاب ، سنفصل ما أوجزناه هنا .

سنتى من أضاع القرآن عن هدفه ، وهجره تطبيقاً ، وفهماً صحيحاً ، وديناً حياتياً ، ومعاملات وركيزة حياة ...

(١) سورة ص ، الآية الكريمة : ٢٩ .

وليست دعوتي إلى القرآن اليوم ، دعوة إلى الرجوع وراء أربعة عشر
قرناً ! لا ...

إنها دعوة تجديد ، دعوة إلى كتاب الله الذي فيه من سعة الأفق ، ومرؤونه
التطبيق ، وسمو الأسس ، ودقة الأهداف ، ما يكفل التقدم قُدْمًا ، إذا نحن
تفهمناه ، وسرنا على نهجه الصحيح .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ...

ضاع القرآن ...

القرآن ضائع بين عالمٍ ما عَرَفَ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ ،
وبيْنَ مُسْلِمٍ ما عَرَفَ حَقَ الْعَالَمِ عَلَيْهِ .

ضاع القرآن ...

بَيْنَ مُتَبَّنٍ لَهُ بِفَهْمٍ خاطئٍ مَحْرُفٍ ،
وَبَيْنَ آخِرٍ زَهَدَ بِهِ لَمَا عَرَضَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَهْمُ الْخاطئُ .

ضاع القرآن ...

بَيْنَ غَافِلٍ عَنْهُ ، وَبَيْنَ ذَاكِرٍ لَهُ لَا يَلْكُ حِكْمَةٌ عِنْدَ عَرْضِهِ .

ضاع القرآن ...

بَيْنَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَبَيْنَ عَارِفٍ لَهُ لَا يَلْكُ حِيُّوْيَةُ الدُّعَوَةِ إِلَيْهِ .

ضاع القرآن ...

بِإِيمَانٍ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْلِي بِالْمُسْلِمِينَ أَرْبَعَ رُكُنَاتٍ ، فِي مَحْرَابِ مَسْجِدٍ ،
وَيَغْفِلُ تَوْجِيهِمْ فِي أُمُورِ دِنِّيَّاهُمْ ، وَصَحةَ طَرِيقِ آخِرِهِمْ .

ضاع القرآن ...

مسلم يصلي صلاة غفلة ، وبهذا المسلم نفسه الذي ظن أنه جع علم الثقلين
إذا أدى صلاته هذه فقط ، فإن نصح لا ينتصح ، بل هو ناصح للعالم ، هو
ناقد ، هو المقيم له ، المتبع لعوراته - إن وجدت - وهو ناشرها ومروجها ...

ضاع القرآن ...

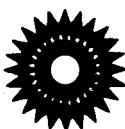
بتنازع العلماء وخلافاتهم ، وتغزق كلمة المسلمين .

وسبباً بتوسيع ذلك بهدوء ...

فإن الذي يعرف من أين ، يمكنه أن يعرف إلى أين ؟ !

والله من وراء القصد ...

شوقي أبو خليل



مَدْخُل

المِيزَان

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْذَلْنَا مَعْهُمْ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِنْطِ﴾

(الجديد : ٢٤)

□ يتساءل الخلصون من مفكري الأمة العربية والإسلامية ، عن سبب تدهور المسلمين ، وتأخرهم منذ قرون ، وفي عالم القرن العشرين أيضاً ، عالم العلم الحديث ، والتكنولوجيا ، والتصنيع ، عالم التقدم في الاكتشافات الكونية ، وغزو الفضاء !

ويدعو إلى التفكير أكثر ، أمر نشوء « إسرائيل » في أرضنا العربية الإسلامية المحتلة في قلب العروبة ومسرى الإسلام ، مثل جرح ينزف ، سببه : أن بضعة ملايين يهودي إسرائيلي ، استطاعوا أن يقفوا ولدى عشرات السنين في وجه مئات الملايين من العرب والمسلمين ؟ !

وهل قضية فلسطين - قضية العصر - قضية عربية ، لا علاقة لها بالإسلام ؟ وهل هي قضية الفلسطينيين وحدهم دون العرب والمسلمين ؟ ومن الذي خطط لذلك ؟ من الذي خلط للفرقة والتبعد ، وإلى متى يدوم ذلك ؟

وكيف يمكن إيقاظ الملايين من العرب والمسلمين ، وتوحيدهم مثلاً كانوا في الماضي ، في عهود الإسلام الذهبية ؟ مثل عهد عمر بن الخطاب ، وعمر ابن عبد العزيز ، ونور الدين الشهيد ! ..

إن كلمات مضيئة مشرقة من سيدنا عمر بن الخطاب تكشف الداء والدواء ، كلمات برهان الزمان على صحتها ، قال رضي الله عنه : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومها نبتغي العزة بغيره يذلنا الله ». .

- ولا بد للقارئ أن يتساءل : وهل انحرفنا عن الإسلام ، حتى أذننا الله ؟

- الإجابة صريحة واضحة : نعم ... ومنذ قرون .

لقد انحرفنا عن الإسلام ، والدليل على انحرافنا أن نعرض إسلامنا على :

الميزان !

ولكن : ما الميزان ؟

وجوابنا : دعوة القرآن العظيم ، القرآن وما يحيى إلينه من السنة والإجماع ... هو الميزان :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَنْهَاكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء / ٥٩) .

الميزان : الذي يدعو إلى أسباب الرقي والتقدم ، والذي انحرفنا عنه نتيجة لخطط مركز من أعداء الإسلام ، وفي غفلة من المسلمين ، وعن أخطاء من دعاة الإسلام في أحيان أخرى .

والميزان : هو الذي سبّيّن غرض المغرضين ، وخطأ الخلصين ، والحمد لله على نعمة القرآن ، فما دام كتاب الله عز وجل ، وما يحيل إليه من السنة والإجماع قائماً بين أيدينا ، محفوظاً من التحريف والتأويل الخاطئ ، فنحن في خير على الرغم من كل شيء ، ونعرف أين نحن من الخطأ والصواب ، وهل نحن على الصراط المستقيم الذي نسأل الله تعالى كل يوم في صلواتنا ، أن يهدينا إليه ، فهل نحن مخلصون في السؤال ؟ !

المُخلِّصُ وَحْدَهُ ... هو الذي سيسلّم أن نبحث هذا البحث ، وأن ندعوه إليه ، وسيشاركونا في الدعوة إلى «الميزان» ، وسنجمع كلنا على هدى القرآن ، لنعيid إلى الإسلام نضارته الحقيقة ، ولنعود إلى العزة والوحدة ، إلى الفهم الصحيح السليم للقرآن ، نأخذ بجميع تعاليمه من كل جوانبها فتخلص الأمة عنها من كل الأحابيل والأضاليل التي قسمنا ، ومهدت طريق دخول الاستعمار لبلادنا ، ولأننا قد توحدنا ، وذنبنا في بوقة المحنة التي أفلت بين قلوبنا ، فأصبحنا على مذهب واحد ، في فهمنا القرآن بروحه التي تدعو إلى أن تكون أمة واحدة ، بل خير أمة أخرجت للناس .

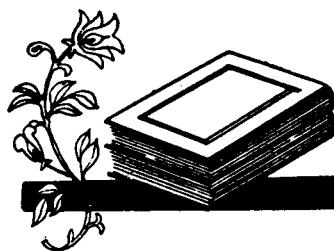
□ سيبحث الخلصون عن حل لأزمة العرب والمسلمين ، طريق آخر غير طريق الإسلام ، وإلى هؤلاء نقول :

بـالإسلام وحده الحل لمشكلاتنا ، والسبب هو أن النفوس البشرية ، بحاجة إلى ترويض وصقل وتربية ، وتهذيب ، وترسيخ لمعاني الفداء والإيثار والجهاد والجهد المستمر لتحقيق كل الكمالات الأخلاقية والتربوية التي يدعو إليها العقل المستنير ، والتي لا ترسخ في النفوس البشرية إلا بجهود المربيين المضنية ، ولن يتحقق أي دستور وضعى هذه المعانى .

□ المخلصون لن يضرهم هذا البحث .

وغير المخلص لا يهمنا رأيه في هذا الكتاب الذي ابتغينا منه رضا الله أولاً ، وكيف يمكن أن نعود إلى وحدتنا من جديد ، كيف يمكن أن نصل إلى المكانة التي يجب ألا يسبقنا أحد إليها تحت الشمس ثانياً :

﴿ وَيَا قَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُولَّونَ مُذْبَرِينَ ، مَالَكُمْ مِنَ الْهُنْدِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يَضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (غافر / ٢٣ - ٢٤) .



الشرع هو الميزان

القرآن ، السنة ، الاجتماع

﴿ قُلْ جَعَلْنَاكُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعُوهَا ،
وَلَا تَتَنَاهُ أَهْوَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(المائدة / ١٨)

« ١ »

العقل البشري عاجز عن إدراك الحقيقة دون تحكم الموى .

فإن خلصت إليه الحقيقة في قالب الحكمة الرشيدة ، مجردة من الموى ،
محفوظة من التحريف ، فتلك نعمة لا يقدرها إلا عقل منصف رشيد .

والبشر دوماً في حاجة إلى من يصوغ لهم الدساتير والتخطيط الرئيسي
لحياتهم ، وذلك لشدة تغلب الأهواء على المشرعين والفكرين ، وتأثرهم بما
يحيط بهم من أحداث ، فالبشرية قد تمضي تتخطى في تجارب متنوعة هنا
وهناك ، وتدور مع هذه التجارب في حلقة مفرغة ضمن « التصور البشري
والتجربة البشرية والخبرة البشرية المشوبة بالجهل والنقص والضعف والموى ،
في حين يحتاج الخلاص إلى قاعدة مختلفة كل الاختلاف : قاعدة النهج الرباني
ال الصادر عن علم بدل الجهل ، وكامل بدل النقص ، وقدرة بدل الضعف ، وحكمة
بدل الموى^(١) ... » .

(١) للمستقبل لهذا الدين ، ص : ٨ .

فالخلاص من هذا التخبط ، نعمة وجود القرآن ، بل هو النعم ، وهداية من الله من أن يضلوا :

- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰٓي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ .

وإذا كان الفلاسفة ، قد جلأوا إلى نظرية الحقوق الطبيعية ، لإيضاح : أن هناك تصوراً عقلياً للحقوق البشرية ، دون أن يحددوها هذه الحقوق أو يبيّنوها بوضوح شامل . فميزة القرآن ، وفضل الله على عباده ، أن القرآن واضح نير في إيضاح هذه الحقوق والعلائق بين الخلقين والخالق ، وبين البشر بعضهم مع بعض .

ثم كان من نعمة الله سبحانه على العالمين ، أن القرآن الكريم محفوظ من التحريف في الفاظه :

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ولو شرح القرآن بعيداً عن التعصُّب المذموم للرأي ، وأظهر ما فيه من جمال الفكر والأخلاق والمعاملات ، لكان معشوق كل عقل باحث عن الحقيقة والخلاص بأخلاق وتجدد ، لما فيه من إجابات واضحة لكل معضلة ، ومشكلة فكرية أو بشرية تتطلب حلّاً .

فالقرآن الكريم : هو الميزان الذي أنزله الله بالحق :

- ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) سورة الإسراء ، الآية الكريمة : ٩ .

(٢) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية الكريمة : ١٨ .

به تقيس وتنزن عمل العاملين ، وخلاص المخلصين ، وغىز به الدعوات المغرضة من الدعوات الخلصة ، ونرى به الفهم الصحيح للإسلام ، من الفهم الخاطئ ، إنه ميزانا في الماضي للماضي ، وفي الحاضر للحاضر ، وفي المستقبل للمستقبل .

☆ ☆ ☆

« ٢ »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِرَسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لَا يَحِيِّمُمُ ﴾^(١) .

□ القرآن هو الميزان ، للأمس واليوم والغد ، وقد أحالنا إلى عناصر أخرى نستكملا بها عناصر الميزان ، أحالنا إلى سنة الرسول ﷺ ، وأحالنا إلى الإجماع . وهذه بديهية لكل من درس الشرع ، قال تعالى :

﴿ هُوَ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٢) .

وقال عز وجل :

﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ، وَيَتَّبِعَ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُولِهِ مَا تُولِي وَنَصِّلُهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢٤ .

(٢) سورة الحشر ، الآية الكريمة : ٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية الكريمة : ١١٥ .

وقال رسول الله : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسول الله^(١) ». وفي كتب الحديث والفقه مجال دراسة الأحاديث الصحيحة وشروط الإجماع الذي هو « اتفاق المجتهدين من هذه الأمة في عصر على أمر من الأمور^(٢) » ، جاء في السنة الشريفة : « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة ، مات ميتة جاهلية » وورد : « لا تجتمع أمتي على خطأ ». وقد اعتبر للإجماع نفس القوة المعتبرة للقرآن وللسنة من حيث كونه حجة موجبة للحكم^(٣) » .

الإجماع جعل المستشرق « كولدسيهير » ، يعجب به كل العجب أصلًا من أصول الشريعة الإسلامية ، ويقول : « سوف يرى بلا شك أن هذا الأصل - الإجماع - قد احتوى على ينبوع القوة التي تجعل الإسلام يتحرك ويتطور بكل حرية ، لأن هذا الأصل هو الذي يقدم العلاج الناجح تجاه غطرسة السلطة الشخصية ، وتعسف الكلمة التي لا حياة فيها^(٤) » .

ويمضي أن نذكر ، أن بعض المضللين من أشباه المتعلمين المدعين دراسة الإسلام ، يتعرضون هنا لنقطة يدفعون بها كل حديث لرسول الله لا يروق لهم ، بقولهم : هذا حديث غير صحيح ! .

(١) رواه الإمام مالك عن أبي هريرة : (راجع الناجي الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، ج : ١ ، ص :

. ٤٠)

(٢) التعريف في كتاب : المدخل إلى علم أصول الفقه « محمد معروف الدوالبي » الطبعة الثانية ص : ٣٣ ، وهو عن : كتاب كشف الأسرار لعبد العزيز النجاري ، شرح أصول البزودي ، ج ٢ ، صفحة : ٢٢٧ ، طبع إسطنبول : ١٢٠٨ هـ .

(٣) انظر البزودي وشرحه ، أو « علم أصول الفقه » المنوه عنه ، صفحة ٢٤ .

(٤) انظر Goldziher, le dogme et la loi de l'islam, paris 1920, P. 46 . والقول في ص ٢٥٢٤ من « علم أصول الفقه » حيث وضح المؤلف أن للإجماع طرقاً أربعة : (الرأي الإجماعي ، التعامل الجماعي ، رأي بعض المفتين مصحوباً بسكت الباقين الذين اطemuوا على هذا الرأي ، والتعامل لدى بعض المفتين دون أن يكون هذا التعامل قد اعترض عليه من قبل الباقين الذين اطemuوا عليه أيضاً)

ليس عنه دراسة علمية صحيحة ، بل لأنه لم يوافق مزاجهم ، وبالطبع هؤلاء مسؤولون أمام الله عن مخالفتهم للميزان الشرعي ، وخصوصاً حين يتضح وبالطريق العلمي الصحيح ، أن الحديث النبوى موضوع الخلاف هو حديث صحيح .

وإلى أمثال هؤلاء نقول : إن علم مصطلح التاريخ الذي ظهر في الغرب منذ زمن ليس ببعيد ، هو علم ثوبه الخارجي غربي ، ولبابه عربي إسلامي .

« مصطلح التاريخ » أساسه القواعد التي وضعها الأئمة من قرون عديدة ، للتوصل إلى الحديث الصحيح ، ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة الحدثين ، لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي ، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب ، فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا^(١) » .

أوليس مما يثليج الصدر ، ويبيح النفس ، أن يكون علماء الحديث قد سبقو الغرب في علم مصطلح الحديث ، الذي تفرع منه مصطلح التاريخ ؟ !

- هذا في مجال صحة الأحاديث ، وموقف بعضهم منها .

- والأبلغ من ذلك سوءاً ، وجود من يريد أن يفسر القرآن الكريم على هواه ومزاجه ، دون اتباع لأصول التفسير الشرعية ، وما يلزمها من علوم مساعدة ، وهذه نافذة أخرى للتضليل .

□□□

(١) كتاب « مصطلح التاريخ » للدكتور أسد رستم ، المكتبة العصرية - صيدا .

بعد هذا كله...وبكل بساطة ووضوح نقرر : إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإجماع الصحابة والأئمة ، هو ميزان الشريعة في تاريخ المسلمين .

وهنا يتบادر سؤال : وإذا جد أمر جديد ، من الذي يقرر الحال له ؟
الإجابة : هو إجماع علماء المسلمين العاملين ، هذا الإجماع الذي ندعو إليه ، لتنهي الفرقة والاقسام ، وتنتهي الأسماء العديدة التي فرقت الجماعة ، ونكتفي بلقب مسلم أو مؤمن محمدي وكفى !

و والإجماع يتقرر برضوخ وتسليم العالم للأعلم منه ، وأن يكون الإجماع باجتماعات دورية شهرية أو سنوية لكتاب علماء المسلمين ، أسوة بالجامع العالمية لكل مادة علمية والتي تعقد اجتماعاتها دوريًا .

وبعد ...

لا بد للأمة الإسلامية من الرجوع إلى الميزان الشرعي ، الذي عناصره القرآن والسنة والإجماع . وندع الاجتهداد» العنصر الرابع من الميزان « لنهاية الكتاب ، لنزن به عظمة العالم الذي فهم الميزان فيها صحيحاً سليماً جلياً بوضوح ، فقام بالاجتهداد ، ضمن الاجتماعات الدورية التي اقتربنا .

فإذا اتفقنا على نقطة الرجوع إلى الميزان الشرعي وعناصره ، فلا بد أن نتسائل : ما دعوة القرآن ؟ وكيف فهمت على الأزمان ؟

وكيف دخل إليها التأويل والتضليل !

☆ ☆ ☆

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ

الْيَوْمَ أَكْلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَقْمَتْ
عَلَيْكُمْ نُفُثَتِي ، وَرَضِيتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) .
(المائدة / ٤)

الْقُرْآنُ وَالرَّبِّيْبَةُ

لا يوجد في تاريخ الإجابات المفحمة ، إجابة أروع من إجابة الأحنف بن قيس^(١) ، لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان في معرض الرد عليه حين استشاره في أمر تولية ابنه يزيد خليفة من بعده .

جا به الأحنف معاوية برد أشد أثراً من ضربات السيوف ، قول ترقض له الضمائر السلبية ، مع ما فيه من حكمة في الرد ، وتلطف في إعطاء الرأي . قال الأحنف :

« خَافُوكُمْ إِنْ صَدَقْنَا ، وَخَافَ اللَّهُ إِنْ كَذَبْنَا^(٢) ».

(١) الأحنف بن قيس (ق ٢ هـ ٧٢ - ٦١٩ م) قمي ، أبو بحر ، سيد تم ، ولد في البصرة ، وأدرك النبي (ص) ولم يره ، وفدي على عمر حين آلت الخلافة إليه ، فاستباها عر في المدينة المنورة ، فكث عاماً ، ولما عاد الأحنف إلى البصرة ، كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : « أما بعد فأدفن الأحنف وشاوره ، وامع منه ... ». اعتزل الفتنة ، ولما انتظم الأمر إلى معاوية ، عاتبه ، فأغلط الأحنف في الجواب ، فسئل معاوية عن صبره عليه ، فقال : هذا الذي إذا غضب ، غضب له مئة ألف لا يدركون فم غضب ... ». راجع الأعلام ، الجزء ١ ، صفحة : ٢٦٢/٢٦٢ .

(٢) (معاوية) ، ص : ٢٥٢ ، أعلام العرب . ٦ ، بقلم إبراهيم الأبياري .

هذا ما يجب أن يفهمه الإنسان من دعوة الإسلام إلى التوحيد ، ألا يخاف إلا الله ، وألا يتخد أحداً رباً من دون الله تعالى ، وقد أكد القرآن هذا المعنى في عشرات الآيات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ . (النساء / ١١٦)

- ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ . (الأعراف / ١٩١) .

- ﴿ حَنَفاءُ اللَّهِ غَيْرُ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطُّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُويَ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ . (الحج / ٢١) .

- ﴿ قُلْ إِنَّا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلِيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . (الكهف / ١١٠) .

- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبَ ﴾ . (الرعد / ٣٦) .

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الظِّينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ .. ﴾ . (المائدة / ٧٣) .

- ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أُشْرِكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أُشْرِكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ : (الأنعام / ٨١ - ٨٢) .

- ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَّدُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ . (الإخلاص) .

إن الإسلام دين يدعوك إلى ألا تخاف إلا الله ، وألا تشرك به شيئاً ظاهراً وباطناً ، قوله وفعلاً . ومن ثرات الإيمان بالله : سعادة الفرد والمجتمع . بالإيمان الصادق ، يقنع الإنسان بحقه ، ويلجم النفس الأمارة بالسوء عن المطامع والتغدي على حقوق الآخرين ، الإيمان بالله : يدفع صاحبه إلى حفظ حقوق الناس ، وأداء الأمانات إلى أهلها .

- إن الإنسان لا تتحقق له إنسانيته الحقة ، بأي نوع من أنواع العلوم أو التربية والثقافة منها أكثر الإنسان منها وجع . ما لم يحصل على شهادة الإيمان الصادق بالله ، فلا تزيده علومه وثقافته على أن يكون وحشاً مفترساً له قالب الإنسان وهيكله ، وقلب الحيوان المفترس وقوسته ، وعقلية الشيطان ومكره أخيه الإنسان ، وخداعه ودهاؤه » .

السلم الحق ، إيمانه بالله لا يتزعزع ، وثقته مطلقة بربه ، لا يخشى معه أحداً ، لسان حاله ينطق في كل أحواله ، في سرائه وضرائه : إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوفي ، ويمثل الآية الشريفة : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام / ٩١) .

□□□

القرآن وال التربية الخلقية

قال عليه السلام : (ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق) .

□ أقبل رجل على رسول الله عليه السلام ، فصار بين يديه فقال : يا رسول الله : ما الدين ؟ فأجاب الرسول : حُسْنُ الْخُلُقِ .

فأثار الرجل قبل يمينه وقال : يا رسول الله : ما الدين ؟ فأجابه الرسول

ثانية : حسن الخلق . ثم أتاه الرجل من قبل شِمَالِهِ وسأله : يارسول الله : ما الدين ؟

فأجاب الرسول ثالثة : حسن الخلق .

ثم أتاه الرجل من ورائه وسأله : يارسول الله ، ما الدين ؟

فالتفت إليه الرسول وقال له : أما تفقه ؟ هو ألا تغضب .

□ قال ابن عباس : لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق .

□ وقال ابن القيم : الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين .

يقول سبحانه : ﴿ وَهَدُوا إِلَى الطَّيْبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ (الحج : ٢٤) .

﴿ إِلَيْهِ يَصُدُّ الْكَلْمَ الطَّيِّبَ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر / ١٠٠) .

ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ، قالت : « كان خلقه القرآن » . فما هي الأخلاق التي دعا إليها القرآن ؟

جمع الدكتور أحمد الشرباصي « أخلاق القرآن » في كتابه « أخلاق القرآن^(١) » ويعكتنا أن نجمع من رياضه هذه الزهرات :

- العفة : وهي حالة للنفس تتبع بها عن عيبة الشهوة عليها : ﴿ يَحْسِبُهُمْ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ ﴾ . (البقرة / ٢٧٣) .

- العزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكُنَّ الْمَنَافِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . (المنافقون / ٨) .

(١) « أخلاق القرآن » د . أحمد الشرباصي ، الناشر : دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان .

﴿ ولا تهنووا ، ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران / ١٣٩)

« إن العزة ميراث المؤمن ، فليحرص كل مؤمن على ميراثه ». (حديث شريف)

- العدل : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحکوا بالعدل ، إن الله نعمًا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ . (النساء / ٥٧) .

- العفو : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ . (التغابن / ١٤)

- الصدق : ﴿ أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ . (البقرة / ١٧٧)

﴿ والذى جاء بالصدق ، وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ . (الزمر / ٢٣) .

- الإيثار : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ . (الحشر / ٩) .

- الرضى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الآثار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم ﴾ . (التوبة / ١٠١) .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه ﴾ . (البينة / ٨)

- التواضع : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحًا ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ . (الإسراء / ٦٢) .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْهُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنٌ ، وَإِذَا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ . (الفرقان / ٦٣) .

- الطمأنينة : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ ﴾ . (الرعد / ٢٠) .

- الحياة : ﴿ فَجَاءَهُمْ إِحْدَاهُمَا تَشَيَّعَ عَلَى اسْتِحْيَاءِ قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَاسْقِيتِنَا ﴾ . (القصص / ٢٥) .

- الثبات : ﴿ رَبُّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَرْبًا ، وَثَبَّتَ أَقْدَامَنَا وَانْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ . (البقرة / ٢٥٠) .

﴿ وَكَلَّا نَقْصًا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَثْبَتْ بِهِ فَؤَادُكَ ﴾ .
(هود / ١٢٠) .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا : وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمْ الْوَكِيلُ ، فَانْتَقَلُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، لَمْ يَسْهُمْ سُوءً ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ . (آل عِرَانَ / ١٧٤) .

- السكينة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ... ﴾ . (الفتح / ٤) .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . (الفتح / ١٨) .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمَيَّةَ ، حَمَيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْزَّمَنَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقُّهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهَا ﴾ . (الفتح / ٢٦) .

الشكر : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدُنَّكُمْ ﴾ . (إبراهيم / ٧) .

﴿ فَإِذَا كُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ، وَشَكَرْوَاهُ لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ . (البقرة / ١٥٢)

﴿ بَلَ اللَّهُ فَاعْبُدُ ، وَكُنْ مِن الشَاكِرِينَ ﴾ . (الزمر / ٦٦) .

﴿ وَأَيَّدْكُمْ بِنَصْرَهُ وَرَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لِعِلْمٍ تَشَكَّرُونَ ﴾ .

(الأنفال / ٢٦)

الرحمة : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ﴾ . (آل عمران / ١٥٩) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(الفتح / ٢٩)

﴿ وَأَخْفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلَ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ . (الإسراء / ٢٤) .

الاعتبار : ﴿ نَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْقَصْصِ^(١) ... ﴾ لَقَدْ كَانَ فِي
قصصهم عَبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ . (يوسف : ٣ / ١١١) .

﴿ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَعْبَةٌ لَمْ يَخْشُ ﴾ . (النازعات / ٢٦) .

الخوف من الله : ﴿ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . (آل عمران / ١٧٥) .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(الأنعام / ١٥) .

الاستقامة : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (هود / ١١٣) و (الشورى / ١٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴾ (الأَحْقَاف / ١٣) .

(١) الآية الأولى ذكرت في أول السورة ، والأية الثانية ذكرت في آخرها . فالغاية من القصص القرآنية الاعتبار .

- ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام / ١٥٣) .
- ﴿ أَلَمْ يَأْنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ ... ﴾ (ال الحديد / ١٦) .
- ﴿ وَإِنَّهَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة / ٤٥) .
- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (المؤمنون / ٢) .
- ﴿ الْحَمْ (٢) : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (هود / ٧٥) .
- ﴿ قَالُوا يَا شَعِيبَ : أَصْلَاتِكَ تَأْمِرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود / ٨٧) .
- ﴿ الصَّرْبُ (٣) : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ (مريم / ٦٥) .
- ﴿ وَأَمْرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه / ١٣٢) .
- ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ ... ﴾ (الكهف / ٢٨) .
- ﴿ قَالَ : بَلْ سُولْتَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا ، فَصَرِبْ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف / ٨٣) .
- ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَرِبَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسُلِ ﴾ (الاحقاف / ٢٥) .
- ﴿ وَلِنَ صَرِبَ وَغَفَرَ إِنْ ذَلِكَ لَمْ عِزْمُ الْأَمْرِ ﴾ (الشورى / ٤٢) .
- ﴿ التَّقْسُوِ (٤) : ﴿ الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف / ٦٧) .

(١) ذكر الخشوع : ١٥ مرة في القرآن .

(٢) وردت في القرآن الكريم : ٢٠ مرة .

(٣) اصبر : وردت في القرآن الكريم : ١٩ مرة .

(٤) انتوا الله « : وردت في القرآن عشرات المرات . » لا تتفقون « : وردت ست مرات .

﴿ ونجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون ﴾ (فصلت / ١٨) .

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات / ١٣) .

الحمد : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ (الحجر / ٩٨) .

﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي سميع الدعاء ﴾ (إبراهيم / ٢٩) .

التدبر : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوبهم أفلا هم أفلاهم ﴾ (محمد / ٢٤) .

التفكير : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرن ﴾ (الأنعام / ٥٠) .

﴿ وتلك الأمثال نذرها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (الحشر / ٢١) .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرن ﴾ (البقرة / ٢١٩) .

البر : ﴿ وبرا بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ (مريم / ٣٢) .

السارعة إلى الخير : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ (الواقعة / ١٠) .

﴿ ... ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ﴾ (آل عمران / ١١٤) .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ (آل عمران / ١٣٣) .

المسابقة إلى الخيرات : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ﴾ (البقرة / ١٤٨) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفَقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتَوْنَ مَا أَتَوْا وَقُلُوهُمْ وَجْلَةٌ ، أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يَسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَا سَابِقُونَ ﴾ (المؤمنون / ٥٧ - ٦١) .

الإِنَّابَةُ : ﴿ وَأَنْبَوَا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴾ (الزمر / ٥٤) .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود / ٨٨) .

﴿ وَإِذَا مَسَ النَّاسُ ضَرًّا دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (الرُّوم / ٢٣) .

﴿ وَأَزْلَفْتَ الْجَنَّةَ لِلتَّقِينِ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تَوعِدُونَ لِكُلِّ أُوَابٍ حَفِظَ ، مِنْ خَشْيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (ق / ٢١ - ٢٣) .

الْأَمَانَةُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتَ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (النساء / ٥٨) .

﴿ إِنَّ أَمْنَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا ، فَلَيُؤْدِيَ الَّذِي أَوْتَنَ أَمَانَتَهُ وَلَيَتَقَرَّبَ إِلَى رَبِّهِ ﴾ (البقرة / ٢٨٣) .

الْحَبَّةُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسُوفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يَحْبِهِمْ وَيَحْبُّوْنَهُ ، أَذْلَلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمَ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴾ (المائدة / ٥٤) .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيَّانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْبُّونَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَا أَوْتَوْا ﴾ (الحسْرَة / ٩) .

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويفسر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (آل عمران / ٣١) .

الإحسان : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ... ﴾ (النحل / ٩٠) .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ (الأحقاف / ١٥) .

﴿ إن رحمة الله قريب من الحسنين ﴾ (التوبة / ٥٥) .

التوبة : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (البقرة / ٢٢٢) .

﴿ التائدون العابدون الحامدون السائدون الراكون الساجدون الأمرؤن بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين ﴾ (التوبة / ١١٢) .

﴿ ويا قوم استغروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ (هود / ٢ و ٥٢ و ٦١ و ٩٠) .

كظم الغيظ : ﴿ الذين ينفقون في النساء والضراء والكافر والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب الحسنين ﴾ (آل عمران / ١٣٤) .

الحذر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميرا ﴾ (النساء / ٧١) .

﴿ وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أني يؤفكون ﴾ (المنافقون / ٤) .

الإعراض عن اللغو : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (المؤمنون / ١ - ٢) .

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (الفرقان / ٢) .

لوم النفس : ﴿ لأقسى يوم القيمة ، ولا أقسى بالنفس اللوامة ﴾ (القيمة / ١ - ٢) .

القنوت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ (البقرة / ٢٣٨) .

﴿ إن إبراهيم كان أمّة قاتلت الله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ (النحل / ١٢٠) .

الإخلاص : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة ﴾ (البينة / ٥) .

﴿ .. وأقيموا وجوهم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ (الأعراف / ٢٩) .

﴿ قل الله أعلم مخلصا له ديني ﴾ (الزمر / ١٥) .

الوفاء : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق ﴾ (الرعد / ٢٠) .

﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقيين ﴾ (آل عمران / ٧٦) .

﴿ إن الذين يباعونك إنما يباعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فلننكث

فإنما ينكت على نفسه ، ومن أوف بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيماً
الفتح / ١٠ .

التسوكل : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾
غافر / ٤٤ .

﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب
المتكلمين ﴾ (آل عمران / ١٥٩) .

الرجاء : ﴿ أولئك الذين يدعون بيتاغون إلى ربهم الوسيلة ، أئهم أقرب
ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربكم كان محذوراً ﴾
الإسراء / ٥٧ .

﴿ فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه
أحداً ﴾ (الكهف / ١١٠) .

الإخبات^(١) : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ،
أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ (هود / ٢٣) .

﴿ إلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المختفين ﴾ (الحج / ٣٤) .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربكم ففيؤمنوا به ، فتخبت له
قلوبهم ، وإن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (الحج / ٥٤) .

القوة : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم سبباً ﴾ (مريم / ١١) .

﴿ يأبأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾
القصص / ٢٦ .

(١) الإخبات الاطمئنان مع اللين ، أخبت الرجل إلى الله ، إذا خشع وتواضع ، وأخبتوا إلى ربهم : أي اطمأنوا
إليه ، وللإخبات ثلاثة مواضع في القرآن الكريم .

﴿ ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحاء بينهم ﴾ ﴾
الفتح / ٢٩ .

﴿ وَكَأْيُنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيعُونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابُوهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ، وَمَا ضَعَفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبُّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبُنَا وَإِسْرَافُنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبَتَ أَقْدَامُنَا ، وَانْصَرَنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ . (آل عمران / ١٤٦ - ١٤٧) .

☆ ☆ ☆

- هذه هي أخلاق القرآن ..

- وهذه هي ميزان الأخلاق للبشرية أجمع .

- هذه هي الأخلاق التي اتصف بها رسول الله ﷺ ، وقد وصفه عز وجل :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقِي عَظِيمٌ ﴾ (القلم / ٤) .

وهو « ﷺ » قد وصفنا في أعماله وجهاته وأخلاقه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب / ٢١) .

- وهذه إذن أخلاق المسلم المطلوبة ، يزن نفسه وأعماله ومعاملاته على
ضوئها متذكرا قوله عليه السلام : « أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا » (رواه
الترمذى : رياض الصالحين ص ٢٧٣) .

ومجتمع أخلاق أبنائه ، وميزانهم في التعامل :

□ العفة ، العدل ، العفو ، الصدق ، الإيثار ، التواضع ، الحياء ،

السکينة ، الرحمة ، الخوف من الله ، الإستقامة ، الشعور لله ومراقبته ، الصبر ،
البر ، التقوى المسارعة إلى الخير ، الأمانة ، المحبة ، الإحسان ، كظم الغيظ ،
الإعراض عن اللغو ، المسابقة إلى الخيرات ، والمسارعة إلى المعروف ،
الإخلاص ، الوفاء ، القوة ، والعزة ...

مجتمع انتفت منه بالمقابل صفات :

□ الطمع ، الذل ، الظلم ، الكذب ، السخط ، التكبر ، القبح ، الجور ،
الترد ، الخيانة ، البغض ، الإساءة ، إبداء الغيظ ، الشماتة ، نقض العهد ،
اليأس ، الضعف وジョلة العدو ...

فأخلاق ان وجدت ، وانتفى ما يقابلها من أضداد ، في مجتمع ما : فهو
مجتمع الملائكة . مجتمع الفرد المثالي : عرف واجباته قبل أن يعرف حقوقه .
أخلاق القرآن ، لو وجد عشرها لأغلقت أبواب معظم السجون والمحاكم ،
ولما بقي منها إلا النادر والقليل لكل نفس بشرية خام ، جامحة صعبة
الترويض .

المجتمع الإسلامي الأول الذي رباه محمد بن عبد الله ، تمثلت فيه هذه
الصفات والأخلاق ، فزان كل فرد أعماله وأقواله وخلقه ومعاملاته على ميزان
أخلاق القرآن ، كان هواه تبعاً لكتاب الله ، هذا المجتمع المثالي أعطى بأخلاق
القرآن العظيم نتائج محسوسة منها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقي قاضياً
عامياً في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي مركز الخلافة الإسلامية
حيث يكثر القادم إليها ، ثم طلب إعفاءه . لماذا ؟ أهرباً من المسؤولية ! لا .
ولكن لأنه لم يأته خلال العامين متخصصان يحتكمان إليه ! فتفكر ؟ !

□ هل هذه الأخلاق الرفيعة السامية تضيئ ؟ أولاً تنتهي ؟ ألا إنها إن

فقدت من مجتمع ، حل من الأخلاق أضدادها ، فتصبح النفس البشرية ذئباً
يجري وراء حقه بل شهواته ولا يعرف حقوق الآخرين ، فلا يأمن أخ أخيه .

أخلاق القرآن : من لم يعرفها ، فقد أضاعها .

ومن عرفها ولم يفهم معناها الحقيقي ليعمل بها ، فقد أضاعها .

ومن المؤسف حقاً ، مما يحزن في النفس ، ويحزن القلب ، أن تتحدر قيمة
القرآن وتعاليه في نفوس بعضهم ، فينزل به من مكانته الحقيقة كدستور حياة
للأحياء ، ينزل به إلى المقابر ، إلى الأموات ، وما أسوأها من صورة ، أن يقف
بها - ولا أدرى ما أقول - : عالم ، شيخ أم مقرئ ، والأفضل مقرئ ، لأن
العالم العامل بالميزان ، والشيخ الحقيقي ، لا ينزل أحدهم إلى هذا المستوى الميت
للدين ، المضيع لمعانيه . ما أسوأها من صورة ، يقف بها مقرئ أمام قبر
ويتلعّل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدِبَارَ ،
وَمَنْ يُوَلِّهُمْ دِبْرَهُ إِلَّا مُتَحْرِفًا لِقَتَالٍ أَوْ مُتَحِيَّزًا إِلَى فَتَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضْبِ
مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَئْسُ الْمَصِيرُ . ﴾ (الأنفال / ١٥ - ١٦) .

أو يتلو : ﴿ وَلَا تَنَازِعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال / ٤٦) .

- ﴿ انفِرُوا خَفَافًا وَثَقَالًا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبَة / ٤١) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتَلُوا الَّذِينَ يَلُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلَيَجِدُوا فِيهِمْ
غَلَظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَقِّنِينَ ﴾ (التوبَة / ١٢٣) .

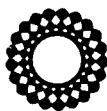
- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾
الجمعة / ١٠ .

- ﴿وَأَعْدَوْا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ
اللَّهِ وَعُدُوكُمْ﴾ (الأنفال / ٦١) .

فهل نزلت هذه الآيات وأمثالها للأموات ؟ أم نزلت للقبور والمامات ؟ !
علمًا بأن معظم الأموات اليوم ما عرفوا القرآن في حياتهم ، فكيف سينتفعون
به من بعد موتهم ؟ أما كان من الأجر انتقاء آيات مناسبة في هذا الزمن
الذي ضاع به القرآن من النفوس ، مثل :

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سُوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جَلُودُهُمْ
بِدُلَنَاهُمْ جَلُودًا غَيْرَهَا ، لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾
(النساء / ٥٦) .

وبعد ... وفي المستقبل القريب سيسألني إنسان : القرآن ضائع ، كيف يا
أخي ؟ ! القرآن يضيع ! وأقول : نعم ، ضاع من نفوسنا ، من معاملاتنا ،
من سلوكنا ... شئنا أم أبيانا . ولكننا لائزal نملأ الإيمان بأن الله س يتم نوره ،
وسيعم نور القرآن الكريم العالم .



القرآن والعلم

﴿ .. وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾
﴿ .. وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ،
وَمُنَافِعٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

« قرآن كريم »

بعد ذكر الآية الشريفة : ﴿ وَأَعْدُوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، وَمِنْ رِبَاطِ
الْحَيْلِ ، تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوُ اللَّهِ وَعَدُوكُمْ ﴾ ذكر الشيخ محمد رشيد رضا^(۱) ما يلي :
« ومن المعلوم بالبداهة ، أن إعداد المستطاع من قوة ، يختلف امثالي
الأمر الرباني فيه باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان ، وقد روي
أن الرسول ﷺ تلا الآية السابقة ثم قال : « ألا إن القوة الرمي » وكرر ذلك
ثلاثاً^(۲) . وهذا إشارة إلى أن أعظم أركان القوة الرمي . وذلك لأن رمي العدو
عن بعد بما يقتله ، أسهل من مصادنته على القرب ... وإطلاق الرمي في
الحديث السابق ، يشمل كل ما يرمي به العدو من سهم أو قذيفة أو بندقية أو
الحاديـث السـابـقـ ، يـشـمـلـ كـلـ ماـ يـرـمـيـ بهـ الـعـدـوـ مـنـ سـهـمـ أوـ قـذـيفـةـ أوـ بـنـدقـيـةـ أوـ

(۱) سورة الأنفال ، الآية الكريمة ۶۱ .

(۲) محمد رشيد رضا : « ۱۲۸۲ - ۱۳۵۴ هـ / ۱۸۵۰ - ۱۹۲۵ م » صاحب مجلة المنار ، وأحد رجال الإصلاح
الإسلامي ، من الكتاب العلامة بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير . ولد في القلمون ، رحل إلى مصر سنة ۱۳۱۵ هـ ،
فانتقل بالإمام محمد عبده وتلمنذ له . أصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة . من
أشهر آثاره المطبوعة : (تفسير القرآن الكريم « المنار ») ، و « ينير الإسلام وأصول التشريع العام » ، « محاورات
المصلح المقلد » . وللأمير شكيب أرسلان كتاب في سيرته سماه : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » .

ـ راجع الأعلام » ج ۶ ، ص ۳۶۱ / ۳۶۲ .

(۳) رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والترمذني ، راجع تفسير ابن كثير : ج ۲ ، ص

ـ من ضيع القرآن^(۴)

طيرة أو مدفع .. أو غير ذلك - كالصواريخ اليوم - وإذا كان بعض هذه الوسائل لم يظهر في عهد النبي ، فإن لفظ الرمي على لسان نبينا مطلق ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به في كل عصر .

فواجب المسلمين أن يصنعوا أسلحة القتال الحديثة بأيديهم ليحفظوا هويتهم وحريتهم أمام أعدائهم ، ويجب عليهم أن يتعلموا الفنون والصناعات التي تمكنهم من صنع هذه الأسلحة ، والقرآن بعد هذا يقول : ﴿ فَنَعْتَدِي عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمَا اعْتَدِي عَلَيْكُمْ ﴾^(١) .

هذا فهم سليم ، وتفسير صحيح لآيات القرآن الكريم .

فهذه الـ**رجمة** الطويلة التي يعيشها المسلمون اليوم ، والتي بدلت حالهم من عز إلى ذل ، ومن قوة إلى ضعف ، ومن حركة إلى جود ، ومن إقبال على الدنيا وبهجهتها إلى انصراف حتى استقر في ذهنهم عن الحياة ، صورة قاتمة بغيضة ، قويت معالمها بما طرأ على التعاليم القرآنية من تشويه وتعطيل وسوء فهم ، فكان عاملاً كبيراً من جملة عوامل تلك الـ**رجمة**^(٢) .

هذه الـ**رجمة** ركود ، والركود موت .

ـ جمة ، نتج عنها أن المغرضين من الأجانب ، وحتى بعض المسلمين ، اتخذوا مظهراً المسلمين هذا وسيلة للتحامل على الإسلام وتعاليمه ووصمها بالجمود ، واعتبروا ذلك قضية مُسلمة ، ولا سيما أنهم صاروا أصحاب السلطان في الأرض ، وتمكنوا من وسائل القوة والعلم والحضارة ، فتأثرت الناشئة الإسلامية بدعائيتهم ومذاهبهم .

(١) تفسير المغار ، ج ١ ، ص : ٦٩ / ٧١ ، ط ٢ ، طبع دار المغار سنة ١٣٦٩ هـ .

(٢) بتصرف عن « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » ص ٢ ، للأستاذ عزة دروزة .

ومن روائع الفهم الصحيح لمكانة العلم في القرآن ، تصريح نشرته « ريدر دايغست أسلبك » ، عنوانه : « إن صنع الطائرة فريضة إسلامية ، كا أن الصلاة فريضة إسلامية - كلمات مثيرة للمفتي الأكبر في سوريا » صرّحه في لاهور .

أعاد سماحته سبب الخطأ المسلمين إلى تقسيمهم الإسلام إلى شؤون دينية وشؤون دنيوية ، والإسلام لا يقسم الحياة إلى حقول متفرقة لا ترتبطها رابطة ، الإسلام يعتبر وحدة لا تتجزأ ، ومن واجب العلماء دفع المسلمين إلى الإحاطة بالعلم في كل نواحي الحياة ، سواء كان علم اقتصاد أو اجتماع ، نبات أو حيوان ، تعددن أو صناعة ، واعتبار ذلك كله فريضة إسلامية .

وأشار سماحته إلى أن القرآن الكريم (٦٤٢ آية) ، منها خمسة آية فقط تبحث الأحكام ، وأقل من نصف هذه يبحث في شؤون التشريع والفقه ، وبلا شك ، فلقد حصرنا الإسلام كلياً في الجزء الأخير فقط ، بينما يوجد ما يقرب من « ٤٠٠ » آية ، تدعوا باستمرار إلى استعمال العقل والتفكير ، وإلى استنباط الحقائق العلمية من الطبيعة .

يجب أن نبدأ بإدراك أن صنع الطائرة فريضة إسلامية ، كا أن الصلاة فريضة إسلامية ، تحسين الأرض من الإسلام ، كا أن الصوم من الإسلام^(١) .

وقبل أن نجد دليلاً وسندًا لكلام سماحة المفتى العام من القرآن الذي هو ميزاناً ، أعرض فهـآ خاطئاً شائعاً بين المتدلين : خريج شريعة فسر : « يعقلون يتذكرون » التي نجدها كثيراً في أواخر الآيات في القرآن ، بقوله :

(١) تصريح لساحة المفتى العام للجمهورية الشيخ أحد كفتارو في العدد السنوي الممتاز لمجلة المختار الإسلامي
ريدر دايغست أسلبك » ، العددان : ٦ / ٥ رمضان المبارك عام ١٢٨٦ هـ ، جوهانسبورغ .

يعقلون علوم الشريعة ويتفكرون بها ، دون أن يتطرق مطلقاً ليعقلون العلوم كلها ، ويتفكرون بالكون كله وبكل ما ينفعنا فيه .

أستاذ جليل ، عالم عامل ، مخلص دون شك ، رأيت له عنوان كتاب : « مباحث في علوم القرآن » أخذت الكتاب وتوقعت أن أجده فيه دعوات ملحة إلى التصنيع والسدود والأفران العالية والمعامل ونحو ذلك ...

ولما طالعت تفاصيله وجدته يبحث في :

١ - القرآن والوحي : أسماء القرآن وموارد اشتقاده ، ظاهرة الوحي ، تنجم القرآن وأسراره .

٢ - تاريخ القرآن : جمع القرآن وكتابته ، المصاحف العثمانية في طور التجديد والتحسين ، الأحرف السبعة .

٣ - علوم القرآن : لحنة تاريخية في علوم القرآن : علم أسباب النزول ، علم المكي والمدني ، لحنة خاطفة عن فوائح السُّور ، علم القراءات ولحنة عن القراء ، علم المحكم والتشابه ، علم الناسخ والمنسوخ ، علم الرسم القرآني .

٤ - التفسير والإعجاز : نشأته وتطوره ، القرآن يفسر بعضه بعضاً ، إعجاز القرآن ، المجاز والكناية في القرآن ، الإعجاز في نغم القرآن .

البحوث السابقة لا يستهين بها مسلم ، وهي ضرورية جداً لاستمرارية فهمنا لمعجزة الإسلام الخالدة « القرآن » ولكنها ليست كل شيء ، ولا يمكننا أن نقف عندها طويلاً .

دعوت مرة مسلماً ، إلى جلسة علم تحت المعلم على فهم الإسلام الحق ، ديناً

ودنيا ، فاعتذر بقوله إن شيخي فلان يقرأ على الأربعة عشر ، صوت رائع ، وتجويد ممتاز ، مع القراءات كلها ، وهذا حظ صاحبنا من الإسلام والقرآن (تجويد) ورددت في نفسي حديث رسول الله :

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على أمتي زمان يكثر القراء ، ويقل الفقهاء^(١) ، ويقبض العلم ، ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل بينكم ، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال من أمتي لا يجاوز تراقيهم^(٢) .. » .

قلت لصاحبنا المعتذر : وهل التجويد السليم إخراج كل حرف من مخرجه السليم في الفم ؟ !

قال : نعم والله .

قلت : وبعد هذا ؟

قال : تستمر الجلسة ساعة أو ساعتين ، ثم نشرب الشاي الأخضر ونصرف .

قلت له : أما فكرتم في تجويد فهم معاني القرآن !

أما فكرتم في تجويد العمل بما قرأتم !

أما فكرتم في تجويد تطبيق معانيه !

أما فكرتم في الدعوة إليه بجودة وحكمة وفهم صحيح ؟

(١) الفقهاء : ليس المراد بالمعنى الخاص اليوم ، فقهاء بدين الله من جميع جوانبه ، فقهاء بالشريعة ، بالعمل بها ، بالدعوة إليها .

(٢) تراقيهم : الترقية : العظم الذي بين ثغرة النحر والمعانق (ولا تضم النساء في الترقية) . وللمراد لا يتجاوز الحناجر .

ثم تذكرت الحديث الشريف السابق ثانية وقُتلت الآية الكريمة :
﴿... واتخذنوه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط ﴾ . (هود / ٩٢)

☆ ☆ ☆

لن تنهض الأمة الإسلامية من هجعتها إلا عندما تتيقن أن العلوم التي دعا إليها الإسلام مفروضة على المسلمين كالصلة والصوم .

١ - أولاً الإسلام دين مو الأمية والجهل ، وانتشار التعليم والعلم ، بدليل أن أول كلمات القرآن الكريم « اقرأ » ثم « علم بالقلم » ثم « ن ، والقلم وما يسطرون » .

٢ - عندما يقول القرآن : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ ، فمعنى ذلك واضح جلي ، أنها المسلمون : اعلموا أن الدول لا تبني إلا على العلم .

٣ - ﴿ وأللنا له الحديد ﴾ ، إلأنه الحديد : إذاته بعد استخراج خاماته وفلزاته من الناجم ، وبعد التنقيب عنها . أليس المعنى قد توضّح ؟ ! وهو أنها المسلمون تعلموا كيف تنقبوا عن ثروتكم الباطنية واستخرجوها ، وأذيبوها ... وبعد ذلك هل تنفرج عليها ؟ ! يلحق بذلك تصنيع عام ، هذا ... والسورة عنوانها « الحديد » فهل وردت هذه التسمية مصادفة ، أم تنبئها لمعدن الحديد وثروتنا الباطنية ؟ !

٤ - ﴿ أن أعمل سبغات وقدر في السرد ﴾ ، السبغات هي الدروع ، وفي عصرنا هل نعمل الدروع بمعناها كـ كانت أيام رسول الله ؟ دروعنا اليوم : أدوات الحرب عامة ، تتقنها ، نصنعها . (وقدر في السرد) : أي الدروع التي لها حلقات صغيرة كيلا تنفذ السهام والرماح منها إلى جسم لابسها ، الله

أكبر ، الله يعلمنا . واليوم : هل سيبقى تفسير « وَقَدْرٌ فِي السُّرْدِ » هو السابق ؟

تفسر بحسب حاجة العصر وأسلحته ، تفسر بصنع الدبابات التي لا تخترقها القنابل ، إنها آية تذكير وتنبيه . لقوة ومتانة سلاحنا كيلا ينفذ العدو إلينا . هل فهمت الآية هكذا قبلًا ؟ !

٥ - ﴿ وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ والقطر هو النحاس ، أليست الآية تقول في جوهرها أسلوا النحاس وأذيبوه بعد استخراجه من مناجمه ؟ أم الآية للتسلية يذكر لنا بها خبراً من أخبار السابقين ؟ .

٦ - ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة / ١١) : كل عالم : طبيب ، مهندس ، جيولوجي ، بيولوجي ... يعمل لقوة هذه الأمة الحمدية ولصودها بداعف فهم صحيح للإسلام ، يرفعه الله درجات ، تماماً كالعالم الذي يعلم فقه الوضوء ، وأركان الصلاة ، ومفسدات الصوم ..

٧ - ﴿ أَلمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفَةً أَوْاَنَّا ... ﴾ (فاطر: ٢٧) ، إنها دعوة إلى العلوم الطبيعية . ومعرفة تفسير نزول الماء من السحب لا يتم إلا بمعرفة الفيزياء والكيمياء ، ولا يعرف الإناث والإثمار إلا بعلم النبات .

٨ - ﴿ فَلَيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالْتَّرَائِبِ .. ﴾ . أليست دعوة إلى علم البيولوجيا ، علم الحياة ، وإلا فكيف يكون النظر بين الصلب والترائب ؟ !

٩ - ﴿ إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران : ١٩٠) .

﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (يونس : ١٠١) أليست دعوة إلى علم الفلك صريحة ، والنظر في الفضاء نظر الباحث المستكشف !

□ الحديث يطول .. ولكن لتفهم الأمة أنها إذا احتاجت إلى عدد من العلماء في مجال ما ول يكن عددهم مائة ، ووجد بينها تسعون فقط فهي آثمة . علماء في أي مجال يكفل القوة والصود والعزة لتحقق الخلافة في الأرض للمؤمنين .

سورة سباء ، فيها إنشاء السدود ، أم هي قصة لتسلينا ، وحكاية لقضية وقت ، أم الفهم السليم لها ، أن ابناوا سدودكم ليصبح بلادكم جنات :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأً فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةً جَنْتَانِ عَنْ يَمِينِ وَشَمَالِ ، كَلَوْا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكَرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبَّ غَفُورٍ ﴾ . (سبأ / ١٥)

النبي ﷺ ، ما رضي بكسرة خبز أن تهدى ، قبلها وضعها على عينيه ثم قال : « يا عائشة أكرمي جوار نعم الله ، فقلما نعمة نفرت من قوم ثم عادت إليهم » . (رواه البخاري) .

- كسرة خبز نعمة ، الأراضي الصالحة للزراعة ، ولا تزرع ، أليست نعمة ؟ ! وكم من كسرات الخبز تساوي ؟

- كسرة خبز نعمة ، ومياه الأنهر تفيض في البحر وعلى جانبيها أراض بور ، أليست إقامة السدود كما جاء في سورة سباء نعمة ، ومناجم المعادن كلها نعمة ... أليس ثنها نعمة ، وعدم استيرادها وتحكم الاحتكارات العالمية بنا ، تساوي ملايين الملايين من كسرات الخبز !

- وإذا نبهنا الله تعالى لبناء السدود ، فمعنى ذلك أن علم الهندسة فريضة

إسلامية !!!

ومن طرف آخر : أراد النبي من حديثه للسيدة عائشة أن يعلمنا الاقتصاد ، بل وينهي فينا ملكرة الاقتصاد ، والمهدى : الحرص على الخيرات ، والاتفاع بها ، والاقتصاد من الرخاء إلى الشدة . أما قال عليه السلام : « يا سعد لا تسرف - في الوضوء - ولو كنت على نهر جار »^(١) . فلماذا ؟

هل سينقص النهر أم سيجف ؟ هل سينقطع مجراه من وضوء سعد إن أسرف بماء وضوئه ! لا ، الهدف تثبيت ملكرة الاقتصاد في نفس المسلم .

ما أعظم القرآن ! وما أعظم تعاليه ! ولكنها في وادٍ نحن في غيره .

□ أصبح أكثر الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى ، وإن كانوا أحياء في معايشهم ، وبكماً عنه وإن كانوا يتلونه بألستتهم ، وصماً عن ساعه ، وإن كانوا يسمعونه بآذانهم ، وعيماً عن عجائبه وعلومه وإن كانوا ينظرون إليه في مصافحهم ، وأمينين في أسراره ومعانيه وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم^(٢) .

وإن رأيت قراءه يتغایرون ويتحاسدون ولا يستأنسون ، فاعلم أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالأخرة فهم خاسرون^(٣) .

وأخيراً في هذا البحث :

ذكر صاحب : « مباحث في علوم القرآن » في صفحة ٢٩٧ : « إذا كنا نبحث عن النكات البلاغية - في القرآن - رجعنا إلى الزمخشري ، وإذا التمسنا

(١) رواه أنس .

(٢) « الغزالى » لطه عبد الباقى سرور ، سلسلة أقرأ .

(٣) قال عليه السلام « تعودوا بالله من فخر القراء ، فهم أشد فخرًا من الجبارية ، ولا شيء أبغض إلى الله من قارئ فخور » . (رواه الديلمي عن أنس) .

المباحث الكلامية رجعنا إلى الرازي ، وإذ أردنا إعراب القرآن فعلينا بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، وفيه كثير من المباحث النحوية والمسائل المتعلقة بالقراءات ...

وقد ألفت في القرن الأخير تفاسير لبعض العلماء المعاصرين فيها محاولات تجديد ، وأقلها نصيباً من النجاح - بلا ريب - «الجواهر في تفسير القرآن» لطنطاوي جوهري ، فإن في تفسيره كل شيء ما عدا التفسير . هذا ما قاله الدكتور مؤلف : مباحث في علوم القرآن !

الشيخ طنطاوي جوهري^(١) ، فسر القرآن ، ومن سوء حظه - إن صح التعبير - أنه لم يُعِرِّ النكات البلاغية ولا المباحث الكلامية ، ولا الإعراب والقراءات كبيرة ، لكنه فسر الآيات العلمية تفسيراً وضع له الصور والمصورات والتوضيحات الدقيقة .

أخذت دون انتقاء الجزء الخامس والعشرين من تفسير الجواهر ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٠ هـ طبع مصطفى البابي الحلبي ، وتصفحت هذا الجزء فوجدت :

أن الشيخ طنطاوي جوهري في تفسير سورة النبأ «الآيات : ٦ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً » وضع رسمًا يوضح الطيف الشمسي في ص : ١٤ ، وجهاز مبدد الضوء في ص : ١٥ . ليوضح بديع خلق الله في الضوء وأشعة الشمس . فهل لأنه لم يعرب الآيات ، ولم يبحث فيها عن النكات البلاغية ليس في تفسيره تفسير ! يا سبحان الله !

(١) طنطاوي جوهري : ١٢٨٧ - ١٣٥٨ هـ / ١٨٧٠ - ١٩٤٠ م ، عالم فاضل له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة ، ولد بمصر وتعلم في الأزهر مدة ، وتصلح بالإنكليزية ، ألقى محاضرات في الجامعة المصرية ، وناصر الحركة الوطنية .

ولما فسر الشيخ جوهرى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنتاً ألفافاً ﴾ وضع صوراً لشجرة ، لأقسامها ، للورقة وبراعتها ، وشرح الساق ، وفسر لماذا تتجه الأغصان إلى أعلى والجذر إلى أسفل ، وصوراً لأنواع الأوراق والزهر ، والثمر ... في الصفحات من ٢٧ - ٢٩ . ثم قال في صفحة ٢٨ و ٢٩ :

« اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، وإن العلم أجل سعادة ، وإن الجهل هو العذاب المهنّ » .

رباه : نعيش في هذه الأرض ونحن حيارى لا ندري ما يراد بنا ، نراك ملأـت أرضنا من الزروع والأشجار والحبـّ والفاكـة ، ونحن نأكل ولكنـا غالـباً غافـلون ... أذكر أني كنت في زـمن الشـباب والفتـوة أجلس في الحقول وأتأمل زـهر الفـول المشـبه شـكل ٢٩ وما بـعده إـلى شـكل ٣١ ، ولكـني ما كـنت أـفهم فـيه شيئاً ، غـایـة الـأـمـر أـنـي أـنـظـر ظـواـهـر اللـون وـالـشـكـل وـأـنـا عـنـ الـحـقـائـق بـعـيد ...

أـيـها النـاس : خـذـوا حـذـركـم ، أـيـها النـاس ، اقرـؤـوا هـذـه الـآـيـات : إـنـ الله لمـ يـذـكـر « لـنـخـرـج بـه حـبـاً وـنـبـاتـاً وـجـنـاتـاً أـلـفـافـاً » إـلا بـعـد أـنـ قـدـمـة يـذـكـر الـأـرـض وـالـجـبـال وـالـلـيـل وـالـنـهـار وـالـسـمـوـات وـالـشـمـس وـالـسـحـاب وـالـمـطـر ، وـهـوـ لـمـ يـخـلـق لـكـم هـذـه الـحـبـوب ، وـلـا هـذـه الـفـواـكه إـلا لـتـذـكـرـكـم بـالـعـلـوـيـات ، وـالـعـلـوـيـات مـذـكـراتـ بـي ... » .

فـكـلـ ما ذـكـرـه اللهـ فيـ سـوـرـة النـبـأـ لإـظـهـارـ عـظـمـتـهـ ، وـقـدـ أـظـهـرـهـاـ المـفـسـر بـأـسـلـوـبـ عـلـيـمـ مـوـضـعـ بـالـصـورـ ، مـاـ أـرـوـعـ ذـلـكـ وـمـاـ أـبـهـجـهـ لـلـنـفـسـ وـلـكـنـ صـاحـبـ : « مـبـاحـثـ فـي عـلـوـمـ الـقـرـآنـ » ، وـجـدـ فـيـ التـفـسـيرـ كـلـ شـيءـ مـاـ عـدـاـ التـفـسـيرـ ، يـاـ سـبـحـانـ اللهـ .

وفي صفحة ١٢٩ وما بعدها بدأ الشيخ جوهرى بتفسير : ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ... ﴾ فقال « أتبع الله التسبيح بتسعة أمور : الخلق - التسوية - التقدير - الهدایة - خلق النبات - الإقراء عدم النسيان إلا ما شاء الله - التيسير لليسرى - أن الذي يخشى هو الذي يتذكر » .

ثم فسر المعنى وأبدع في وضع صور بديع خلق الله في خلقه كالحشرات وحياتها العجيبة ، ثم في صفحة : ١٢٥ ، العنكبوت وحياته العجيبة ، ونسجه الأعجب ، الدودة الشريطية وقطعة من لحم الخنزير المشتمل على الدودة المسماة « تريتبشنا » والدود الصغير مدفون في أجزاء اللحم ... كلها ليظهر عظمة الله في الخلق وتفسير الآيات ﴿ الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ... ﴾ (الأعلى : ٢ و ٣) .

المفسر لم يعرب ، ولم يبحث عن الصور البلاغية ، والمسائل المتعلقة بالقراءات ... فوجد صاحب : « مباحث في علوم القرآن » كل شيء ما عدا التفسير ، فيا سبحان الله !!

دخل (قاريء) ، ولا أقول عالم ، إلى مكتبة من مكتبات دمشق ، تصفح جزءاً من تفسير الجواهر بشكل سريع ، فلمح فيه صوراً علمية توضح بديع خلق الله في السموات والأرض من المجرة إلى الذرة ، الحيوان والإنسان والنبات ، فرمى به وقال بعجبٍ : هذا كتاب تشريح !!

وأنا لا أدافع عن الشيخ طنطاوي جوهرى دفاعاً أعمى ، فإن على تفسيره ملاحظة واضحة ، ألا وهي كثرة سرده الأقاصيص وتوسعه فيها كثيراً ، ولكن لا يعاب عليه بأي شكل تطرقه العديد الواسع للعلوم العصرية ، كي يوضح

بشكل جلي بديع صنع الله ، فنعرف الله في عظمة خلقه ودقة صنعه . مع دعوة
صرحة للأخذ بأسباب العلوم العصرية ، وأي غريب في هذا !!

وكان الشيخ جوهري يعلم مواقف المترمتن الجامدين الرافضين لتجديده في
التفسير ، فقال في الجزء ٩ ، صفحة ١٨٦ : أنت أهـا الشـيخ حـفـظـتـ القرآنـ منـ
صغرـكـ ، بلاـ تـدـبـرـ ، عـلـىـ طـرـيقـةـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ الـأـرـضـ ، تـرـكـتـ بلاـ مرـشدـ ،
قرـأـ الشـيـخـ الـعـلـومـ الـعـرـبـيـةـ ، وـنـهـاـيـتـهاـ الـبـلـاغـةـ ، وـهـيـ نـحـوـ مـنـ اـثـنـ عـشـرـ عـلـاماـ ،
وـأـفـهـمـهـ شـيـوخـهـ أـنـكـ بـهـذـهـ الـعـلـومـ تـعـرـفـ سـرـ الـقـرـآنـ ، وـالـدـلـيلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـيـ حـيـنـ
سـأـلـتـكـ أـهـاـ الشـيـخـ أـجـبـتـنـيـ بـإـسـنـادـ الضـمـائـرـ ، وـذـلـكـ خـاصـ بـعـلـمـ الـعـانـيـ ، وـهـذـاـ هوـ
الـذـيـ أـوـقـفـ عـقـولـ أـمـةـ إـلـاسـلـامـ ، عـاشـتـ فـيـ الـقـرـونـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ جـوـ مـنـ
الـأـلـفـاظـ ، فـحـجـبـتـ عـنـهـ أـسـرـارـ ، وـقـالـ قـوـمـ مـنـ جـاهـدـوـ أـنـفـسـهـمـ وـصـلـوـاـ إـلـىـ
معـانـ ، بـتـصـفـيـةـ الـبـاطـنـ ، وـلـكـنـهـ مـاـ أـبـرـزـوـهـاـ لـلـنـاسـ ، لـأـنـ النـاسـ
لـاـ يـصـدـقـوـنـهـاـ ، فـرـجـعـ الـأـمـرـ أـنـ الـأـمـةـ وـقـفـتـ فـيـ مـرـبـضـهـاـ ، وـتـقـدـمـ غـيرـهـاـ مـنـ
الـأـمـمـ ، فـدـرـسـوـاـ هـذـهـ الـكـائـنـاتـ وـالـمـسـلـمـوـنـ فـيـ سـيـاتـ . أـنـتـ أـهـاـ الشـيـخـ ، مـاـ أـنـتـ
إـلـاـ وـاحـدـ مـنـ آـلـافـ حـفـظـوـاـ الـقـرـآنـ كـاـ حـفـظـتـ ، وـلـكـنـهـ تـعـثـرـوـاـ فـيـ أـذـيـالـ الـخـيـبةـ
وـالـنـكـالـ ، فـإـنـهـمـ اـكـتـفـوـاـ مـنـهـ بـالـتـلاـوـةـ أـوـ الـعـبـادـةـ أـوـ التـبـرـكـ أـوـ السـمـاعـ أـوـ التـغـيـيـ
بـهـ . وـكـلـ ذـلـكـ نـذـرـ يـسـيرـ ، وـلـمـ يـنـزـلـ الـقـرـآنـ لـيـقـتـصـرـ عـلـىـ هـذـاـ ، إـنـهـ نـزـلـ لـإـطـلاقـ
الـعـقـلـ ، وـالـشـيـوخـ الـذـيـنـ حـفـظـوـاـ الـقـرـآنـ لـفـظـاـ ، كـلـمـاـ خـلـتـ أـمـةـ اـتـعـتـهـاـ أـخـرـيـ ،
وـالـعـقـولـ وـاقـفـةـ ، وـالـنـفـوسـ نـائـةـ ، وـالـأـعـدـاءـ حـوـلـكـ مـسـتـبـشـرـوـنـ فـرـحـوـنـ .

وـمـنـ صـورـ الـفـهـمـ الصـحـيـحـ لـهـذـاـ الـعـالـمـ الـجـلـيلـ «ـ طـنـطـاوـيـ جـوهـريـ »ـ ، وـمـنـ
تـوـقـعـاتـهـ الـتـيـ حـذـرـ مـنـهـ ، وـتـنبـأـ بـهـاـ ، وـقـدـ وـقـعـتـ بـالـفـعـلـ ، مـاـ يـدـلـلـ عـلـىـ
إـلـاـصـهـ فـيـ نـصـهـ ، وـصـحـةـ تـصـورـهـ ، وـسـلـامـةـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ مـاـ يـلـيـ^(١)ـ :

(١) المـواـهـرـ ، الـجـزـءـ الـأـوـلـ ، صـفـحةـ ٨ـ ، الطـبـعـةـ الثـانـيـةـ : شـوـالـ ١٢٥٠ـ هـ (ـ طـ : الـبـابـيـ الـخـلـبيـ)ـ .

☆ « وإنني أدعو جميع أمم الإسلام ، في مشارق الأرض وغاربها ، أن يعنوا النظر فيما أقول ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات ، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به ، لا يشاركه فيها دين من الأديان ، ليعلم كل عالم أو ملوك أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الإسلام ... فإذا أبي المسلمين ما ذكرناه ، فإنني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثوفود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى ، والشيوخ والصبيان ، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم ، فلا يلومن إلا نفسه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » .

ألا وإن أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة ، فإذا قرؤوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن ، لم يكن بينهم اختلاف فيها . لأنها مكشوفة ظاهرة ، والله هو الذي منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب ، جميع العلوم التي برع فيها الإفرنج ، وهي علوم الأنفس والآفاق ، وإذا ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جداً ، بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدي إلى سواء الصراط ، إن علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ، ودونوه في دفاترهم ، ولكن المسلمين كانوا في غفلة ساهرين ، ليقف العالم بين الناس شارحاً لهم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهمون غيره ، وليكثرون من هذا : أولاً يرى علماء الإسلام من سنين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق

من العوالم العلوية والسفلى غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهي الأحكام الفقهية التي صرفا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ؟ وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة .

في أيها المسلمين : اطلبوا الغذاء وعلوم الدواء : أي العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجميعها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بالدواء » .

وهكذا ... حذر الرجل من كسل المسلمين وإعراضهم عن العلوم كلها ، وحذر من نيران صاعقة بدت بوادرها في زمانه قبل حوالي حسين سنة ، خصوصاً من الطيارات القاذفات ... فلم يجد أذناً تعي بعد أن تسمع ، لا من أمير ولا عالم ، فكان ما لقيه العرب من طيران عدوهم !! في حروبهم الحديثة .

☆ ☆ ☆

إن دعوة القرآن للعلم بكل صوره ، دعوة صريحة ، ولن تفلح أمتنا إلا عندما نراها قد أخذت بكل العلوم العصرية النافعة .

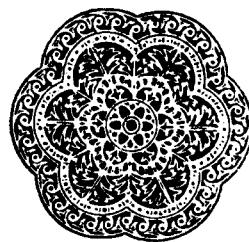
والبلد المسلم الحق ، فيه إلى جانب كل مئذنة تعلو ، مدخنة مصنوع ترتفع ، يبني المسجد ، ويبني العمل ، يشيد الجامع ، ويشيد مجمع البحوث العلمية ...

- بهذا الفهم السليم لدعوة القرآن ، نجد القرآن في حياتنا ومعاملاتنا اليومية .

- وبغير هذا الفهم ، يحدث الانحراف ، ويضيع القرآن ، ويصبح هو في واد ، وال المسلمين في واد غيره .

- تكون تعاليه وأهدافه ومراميه في واد ، وسلوكنا في واد غيره ...

قال ﷺ « يأتي زمان على أمتي القرآن في واد ، وهم في واد غيره ^(١) ». ^(٢)



(١) رواه الحكم عن حيان بن حجر ، راجع مستند الإمام أحمد بن حنبل ، الجزء الرابع ، هامش صفحة ٤٨ ، « منتخب كنز العمال » . طبع أحد البالى الحلبى ، عام ١٣١٢ هـ .

☆ ويقول ﷺ : « يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن ، فيجمعون حروفه ، ويضعون حدوده ، ويلهم ما جعوا ، وويل لهم مما ضيعوا » . (رواه أبو نعيم عن ابن عباس) .

العلماء في الميزان

﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيشَاقَ الَّذِينَ أَوْتَوْا
الْكِتَابَ لَشَيْئَتْنَاهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ .. ﴾ .

(آل عمران / ١٨٧)

- من العالم ؟

□ العالم في مصطلح القرآن ، ومصطلح السنة هو الفاهم لكتاب الله بحقيقةه ، والعامل بعلمه من أجل إبلاغه ، المعرض بقلبه عما سوى الله ، وهو الداعي بحكمة وموعظة حسنة .

هو موحد الأمة ومعدها لحياة أفضل ، الداعي لنبذ الخلافات ، جمع قلباً ذاكراً صافياً رحباً مزكي ، وعقلاً واسعاً كبيراً ، ففهم عصره وعرف طريق الخلاص .

هو العالم بكارم الأخلاق ، المتمثلة فيه ، القائم على ترسيخها في النفوس أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

يذكر الناس إذا غفلوا ، ويهدب نفوسهم ويوقظ هممهم ، ويجمع قلوبهم ولذلك كانت عزته من عزة الإسلام ، الحكمة رائده ، والعقل نهجه ، ومرضاة الله هدفه . هو العالم الذي اجتاز قبل انطلاقه في الدعوة وتشييل الإسلام فحسين اثنين :

من ضيع القرآن (٥)

- فحصاً في تركيبة نفسه ، وادراكه لعصره ، وتفجر ينابيع الحكمة في قلبه .

- وفحصاً في العلوم القرآنية ، ليُرى فهمه الصحيح عن الله في كتابه العزيز وفهمه للسُّنة النبوية . هو الإنسان الذي وضع كتاب الله حَكْماً لكل تصرفاته ، وضع الميزان نصب عينيه ، به يغضب وبه يرضي ، فإذا هو صورة الشريعة ، في صفاته وسلوكه « قرآن ، وسنة ، واجماع » .

عرف أن كل خطأ منه لا يحسب عليه وحده ، بل يلتصق بالإسلام ، ولذلك جعل حياته إسلاماً كلها ، طعامه وشرابه ، وقته وكلامه ، شغله ودنياه للإسلام .

وعرف أن الشعار الذي يحمله في وجهه وعلى رأسه هو شعار رسول الله والسابقين الأولين ، فحفظ لهذا الشعار هيبته وكرامته وعزته .

وعرف نفسه أنه طبيب ، وليس قاضياً يُكَفِّرُ هذا ويَفْسُقُ هذا ، وينخرج هذا من رحمة الله ... إنه طبيب مداوٍ حليم حنون رؤوف ...
نفسه لينة دون ضعف ، لا يُرى فيها غلظة ، ولا تَزَمُّت ولا تَرَفُّ .

هو حارس القرآن من الضياع : بعلمه الصحيح ، ونفسه المزكاة ، وعقله الحكيم ، وسلوكه الكريم .

وعالم يحمل هذه الصفات ... رحمة^(١)، يدفع باليٰ هي أحسن ، يأخذ الناس باليسير^(٢)، لا يحدث الناس بما ينفرهم عن ربهم^(٣)، يدرك بالرفق

(١) يقول عز وجل : « فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فِطْنَةً غَلِيلَةً لَقَلْبِ الْمُنْفَضِلِينَ مِنْ حَوْلِكَ ... » آل عمران / ١٥٩ .

(٢) قال عليه الصلاة والسلام : « خذوا الناس باليسير فإن المؤمنين رفقاء »

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما ينزعهم ... »

مala يدرك بالعنف ، يألف ويؤلف^(١)... وباختصار يجمع أخلاق القرآن في نفسه وشخصه ..

عالم بهذه الصفات ، هو مصباح هداية لنا ، ولهذا فإن حديث الن قد لا يمسه ، ولا أعنيه فيه ، وكيف أتجبراً على نقاده ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه فقد هلك^(٢) ». كيف أتجبراً على النقد ، ورسول الله يقول بحق العالم العامل الحقيقي : « العلماء مصابيح في الأرض ، وخلفاء الأنبياء وورثة الأنبياء^(٣) » ويقول عليه السلام : « أكرموا العلماء ، فانهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله^(٤) » .

ولكنني أخاطب في نceği من تزييّن بزي العلماء وليس منهم ، حديثي وهسي وكلامي عن اندس بين العلماء فأساء ، ولا أبالغ إذا قلت إن أمثال هذا ليسوا حراساً للشريعة بل هدامون دروا أم لم يدروا ، فإن من يدعى المداواة والطب ، خطر على الصحة العامة أكثر من قال لا أعرف ولست طبيباً .

ومن يدعى أنه طيار فاستلم طائرة فيها مئة راكب ، هنا يمكن الخطر ، لأنه إذا جد الجد لا ينقذ الأول لباسه الثوب الأبيض ، ووضعه « الساعات » على أذنيه ، ولا ينقذ الناس وينقذ الثاني لباسه لباس الطيارين !

إنني أخاطب من قال رسول الله بحقهم : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين^(٥) » ، « يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن ، فيجمعون حروفه ،

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

(٢) الدليلي في الفردوس .

(٣) أبو عدي في الكامل عن ابن علي .

(٤) الخطيب في التاريخ عن جابر .

(٥) الترمذى عن ثوبان .

ويل لهم ما جمعوا ، وويل لهم ما ضيّعوا إن أولى الناس بهذا القرآن من جمعه
ولم ير عليه أثرة^(١) .

إنني أخاطب من أمات معاني القرآن ، وضيّع أهدافه ، وجعله على
القبور ، قال صلى الله عليه وسلم بما رواه أبيان : « يؤتى بعصابة من أمتي يوم
القيمة وهم القراء ، فيقال لهم من كنتم تعبدون ، قالوا : إياك ربنا ، فيقول :
كذبتم ، عبدتوني واستغفرتوني بالألسن ، وفررت مني بالقلوب ، فينظمون في
سلسلة ثم يطاف بهم على رؤوس الخلائق ويقال : كذابو أمة محمد » .

وقال في حديث آخر : « تعودوا بالله من فخر القراء ، فهم أشد فخرًا من
الجبابرة ، ولا شيء أبغض إلى الله من قارئ فخور » . (الديلمي عن أنس) .

وهناك أحاديث كثيرة بحق « الدعي » لا أرى مناسباً أن أوردها ، وهو
أعلم بها كأظن .

أما العالم الحقيقي : فهو سيد في مجتمعه ، له السلطان على القلب والروح
والدين . العالم الخالص وحده لن يزعج من بحثنا هذا ، وهو سيشاركنا في
الدعوة إلى الميزان ، فنحن معه لنعيد إلى الإسلام نضارته .

الخلاص لا نعنيه ، ولن يضره البحث .

وغير الخالص ... سينتازونا في حديثه ، سيجرح ، قوله ما يشاء ، ولكنني
أدعوه عند التكلم والهجوم إلى مراعاة جنب الله ، والتتمثل بأخلاق القرآن إن
أمكنته .

☆ ☆ ☆

(١) أبو نعيم عن ابن عباس .

ما له مر

﴿ وَمَنْ يَعْظُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى
الْقُلُوبِ ﴾ .

(الحج / ٢٢)

حدينا هنا عن عالم حقيقي ، عرّفناه سابقاً ، ووصفناه بأنه حارس القرآن من الضياع ، وهو الذي ورد في حقه بعض الأحاديث الشريفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ - « يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العالم ، ولا يستحيى فيه من الحكيم ، ولا يوقر فيه الكبير ، ولا يرحم فيه الصغير ...^(١) »

فاتّابع العالم العامل والاستحياء منه وتوقيره من واجباتنا نحوه

٢ - « احذروا زلة العالم ، وانتظروا فيأته^(٢) ». .

زلته : وقوعه في خطأ لأنّه بشر ، وقد ينزل في حياته مرة أو أكثر ، فلا يُشَهِّر به ، ولا تُهَوِّل زلته ، فرجوع المؤمن سريع ، وندمه قريب ، ولقد مر معنا من أخلاق القرآن التي تمثل بالعالم : الإنابة وهي الرجوع والاقبال واخلاص العمل لوجه الله عز وجل ، ولو لم النفس من أخلاق القرآن فأوبته سريعة ، فمن الأدب عدم التشهير والتهويل .

٣ - « العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه فقد هلك^(٣) ». .

(١) الديلمي عن علي

(٢) الحلاني عن ابن عمر ، والبيهقي .

(٣) الديلمي في الفردوس .

إنه سلطان الله على دين المسلمين ، وسلطان على توجيههم وهدايتهم ، ومن وقع فيه ، ذمًا وتجريحًا أو مخالفة ، هلك في دينه ، أو في دنياه ، أو في دينه ودنياه . فبئس من يقع عليه معنى هذا الحديث الشريف .

٤ - « أكرموا العلماء ، فإنهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله^(١) ». فما أصدق إيمان من يكرّم العلماء ! وما أجزل ثوابه فثواب أكرامه على الله ورسوله .

٥ - « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ، ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأجابوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا^(٢) ». فمن واجب المسلمين تشجيع العالم وتكريمه ، ليرى الناس إكرام المؤمنين له ، فيتشجعوا ليكونون منهم علماء ويرى الناشئة مكانة العالم فيطمعوا ويأملوا أن يحذوا حذوه ، وبهذا يبقى العلم والعلماء وتبسط المداية نورها .

٦ - عن عثمان رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيمة الأنبياء ثم الشهداء ، ثم العلماء^(٣) ». من سيشفعون ؟ بن أحبابهم ، وانتفع بهم ، وجالسهم ، في الدنيا . أما من حسدهم وحمل الحقد عليهم ، ما أظن أن هؤلاء المبغضين الحاسدين يخشرون معهم أبداً .

٧ - عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مثلَ العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء ، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداء » .

(١) الحطيب عن جابر .

(٢) متفق عليه ، عن ابن عمر .

(٣) المرهي في فضل العلم ، رواه الحطيب عن عثمان .

فوويل لن يحاول طمس هدایتهم ، بأكاذيب واسعات يبئها حولهم ،
حسداً وحقداً وسوء توفيق .

٨ - « يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ،
وانتحال المبطلين^(١) » .

٩ - « فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم ، إن الله وملائكته وأهل
السموات والأرضين حتى النلة في جحرها ، وحتى الحوت ، يصلون على معلم
الناس الخير^(٢) » .

١٠ - وأخيراً ... يحمل الامام علي كرم الله وجهه واجبات المسلم نحو
العالم : (من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه دونهم بالتحية .
وأن لا تجلس أمامه ، ولا تشين عنده بيده ولا تعزز بعينيك ، ولا تتقول
قال فلان خلافاً لقوله ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تسارر في مجلسه ،
ولا تأخذ بشوبه ، ولا تلح عليه إذا حل ، ولا تعرض من طول صحبته ، وإنما
العالم بنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء ، فإن المؤمن العالم
لأعظم أجرأ من الصائم القائم الغازي في سبيل الله ، فإذا مات العالم انتلمت في
الإسلام ثلثة لا يسدّها شيء إلى يوم القيمة)^(٣) .



(١) الحاكم وابن عساكر عن ابراهيم العذري .

(٢) الترمذى عن أبي أمامة .

(٣) رواه الحطيب .

فِيمَا بَيْنَهُمْ

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَفْئَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، لَمَا صَبَرُوا ،
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَوْقِنُونَ » .

(السجدة / ٢٤)

من أخلاق العلماء فيما بينهم : يتداولون الكرامة ، ويتبادلون
الاجلال .

□ أدب علماء الصحابة فيما بينهم ، غاذج للاقتداء :

١ - كان عبد الله بن مسعود - وهو الذي شهد له النبي صلى الله عليه وسلم
بأنه : غلام معلم - كان يقول لو سلك الناس واديًّا وشعباً ، وسلك عمر واديًّا
وشعباً ، لسلكت وادي عمر وشعبة ، وقال : لو أن علم عمر وضع في كفة
الميزان ، ووضع علم أهل الأرض في كفة ، لرجح علم عمر .

فما أجمل تواضع العالم للعالم ، ابن مسعود وعمر مثال لخفض جناح التكبر ،
ومد جناح التواضع .

٢ - كان عمر يتغدو بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ، أي سيدنا علي
كرم الله وجهه .

وما أجمل تواضع عمر رغم شهادة ابن مسعود بحقه . ألا ترى في شهادته
بحق علي غاية الاكرام والاجلال ! إنها أخلاق القرآن ممثلة في سيدنا عمر رضي
الله عنه ، انه الاخلاص الذي هو محاربة هوى النفس ، والتجدد عن حظ
النفس ، للاقبال على الآخرة ، واحياء خشية الله في القلب ، وهذا الاخلاص

إذا صدق ، استلزم صواب العمل وطهارتـه ، وفي الحديث
القديـي : « الاخلاص سر من سري ، استودعـته قلب من أحـبـتـ من
عـبـادي ». .

قال معاذ بن جبل : لما بعثـني رسول الله صـلـى الله عـلـيـه وسلم إـلـى الـيـنـ قـلـتـ
لـهـ : يا رسول اللهـ : أـوصـنـيـ ، فـقـالـ : أـخـلـصـ دـيـنـكـ يـكـفـكـ القـلـيلـ مـنـ الـعـلـمـ .
فـاـخـلـاصـ اـبـنـ مـسـعـودـ أـنـطـقـهـ شـهـادـتـهـ بـحـقـ عـمـرـ .

وـاـخـلـاصـ عـمـرـ أـنـطـقـهـ شـهـادـتـهـ بـحـقـ عـلـيـ .

وـاـخـلـاصـ الـعـلـمـاءـ الـيـوـمـ : يـجـبـ أـنـ يـدـفـعـهـمـ عـلـىـ أـنـ يـقـدـمـواـ أـعـلـمـهـمـ وـأـكـثـرـهـمـ
عـلـاـ مـنـ طـلـقـيـنـ مـنـ خـلـقـ : الـاخـلـاصـ .

٣ - قال أبو موسى الأشعري لمجلس كنت أجالـسـ فيه عبد الله (يعني ابن
مسعود) أـوـثـقـ فيـ نـفـسيـ مـنـ عـمـلـ سـنـةـ .

٤ - قال ابن حوشـبـ : كانـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وسلمـ إـذـا تـحـدـثـواـ
وـفـيهـ مـعـاذـ بنـ جـبـلـ نـظـرـواـ إـلـيـهـ بـهـيـبةـ لـهـ .

٥ - قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هـكـذـاـ يـذـهـبـ
الـعـلـمـ .

٦ - كانـ عمرـ بنـ الخطـابـ يـقـولـ لـابـنـ عـبـاسـ : قدـ طـرـأـتـ عـلـيـنـاـ عـضـلـ
أـقـضـيـةـ ، أـنـتـ لـهـ وـلـأـمـثـالـهـ .

وـمـنـ أـخـلـاصـ الـعـلـمـاءـ فـيـاـ بـيـنـهـمـ :

□ لما قـدـمـ العـزـ بنـ عـبـدـ السـلـامـ إـلـىـ الـدـيـارـ الـمـصـرـيـةـ ، باـلـغـ الشـيـخـ زـكـيـ الدـينـ

المنذري (محدث مصر) ، في الأدب معه ، وامتنع عن الافتاء لأجله ، وقال :
كنا نفقي قبل حضوره ، وأما بعد حضوره فنصب الفتيا يتعين فيه^(١).

□ سهل بن عبد الله التستري جاء لأبي داود المحدث ، فقيل له : يا أبا
داود ، هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجله ، فقال سهل :
يا أبي داود لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟

قال : حتى تقول قضيتها مع الامكان .

قال : قد قضيتها مع الامكان .

قال : أخرج لسانك الذي حدثت به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
أقبله .

قال : فأخرج لسانه فقبله^(٢).

□ بلغ سفيان الثوري مقدّم الأوزاعي^(٣) (عالم أهل الشام) فخرج حتى
لقىه بذى طوى (موضع قرب مكة المكرمة) ، فحل سفيان رأس بغير
الأوزاعي من القافلة ، ووضعه على رقبته ، فكان إذا مر بجماعة قال : الطريق
للشيخ^(٤).

□ قال أبو زيد الانصاري ، وقد ذُكر عنده شعبة الأزدي^(٥) محدث
البصرة : وهل العلماء إلا شعبة من شعبة .

(١) ص ١٢٧ . ج ١ ، حسن المعاشرة .

(٢) ابن خلkan . ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن يحيى الأوزاعي : (٨٨ - ١٥٧ هـ / ٧٧٤ - ٧٠٧ م) ، ولد في علبك وتوفي في
بيروت . قال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت : « كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام ، وكان أمره فيما أعز من أمر
السلطان . له كتاب « السنن » في الفقه ، و « المسائل » ، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها
كلها . (الأعلام : ج ٤ . ص ٩٤) .

(٤) ابن خلkan . ج ١ ، صفحة ٣٤٦ .

(٥) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتيكي الأزدي ، « المسائل » ٨٢ - ١٦٠ هـ / ٧٧٦ - ٧٠١ م . من أئمة الحديث .

□ تغيير خاطر السيوطي^(١) على القسطلاني^(٢) وقال : إنه ينقل عن كتبه ولا ينسب إليها . فمشي القسطلاني من القاهرة إلى الروضة وكان السيوطي بها منعزلًا عن الناس ، فدق عليه الباب . قال : من أنت ؟ أجاب القسطلاني أنا القسطلاني جئت إليك حافيًّا مكسوف الرأس ليطيب خاطرك علىَ قال السيوطي : قد طاب خاطري عليك .

وهذا الحادث يذكرنا بعده أخلاق القرآن العظيم ومنها : العفو ، الرضى ، الحلم ، كظم الغيظ ... فما أسرع رجوع قلوبهم إلى صفائها ورضاهما واطمئنانها بالله .

□ قال الشافعي : « الناس في الفقه ، عيال على أبي حنيفة » .

□ قال عبد الله بن سنان : « قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيعه سفيان بن عيينة^(٣) ، والفضل بن عياض^(٤) وودعاه ، فقال أحدهما : هذا

= حفظاً ودراسة وثبتنا ، ولد ونشأ بواسط . وسكن البصرة إلى أن توفي ، وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين ، وجانب الصنفاء والتزوكيين .

قال الإمام أحد : هو أمة وحده في هذا الشأن . وقال الشافعي : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . وكان عالماً بالأدب والشعر ، قال الأصمعي : لم نر أحداً قط أعلم بالشعر من شعبة ، له كتاب (الغائب) في الحديث . (الأعلام ، ج ٢ ، ص ٤٢١)

(١) هو عبد الرحمن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخفيري السيوطي جلال الدين : (٨٤٩ - ٩١١ هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) ، إمام حافظ مؤرخ أدبي له نحو ٦٠٠ مصنف . نشأ في القاهرة يتيمًا ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس . وخلأ بنفسه في روضة المقياس على التيل ألف أكثر كتبه . وفي (الأعلام ج ٤ ، ص ٧١ و ٧٢) ثبت بعض أسماء كتبه التي أشرها « الاتقان في علوم القرآن » والماجام الصغير .

(٢) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني ، شهاب الدين : (٨٥١ - ٩٢٣ هـ / ١٤٤٨ - ١٥١٧ م) مولده ووفاته في القاهرة ، له : « ارشاد الساري شرح صحيح البخاري » مطبوع بعشرة أجزاء ، و « المawahب الالهية في المنح الحمدية » مطبوع ، و « لطائف الاشارات في علم القراءات » مخطوط ، و « الكنز » في التجويد والروض الراهن في مناقب الشيخ عبد القادر » و « شرح البردة » ... (الأعلام . ج ١ ، ص ٢٢١)

(٣) سفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨ هـ / ٧٢٥ - ٨١٤ م) : محدث الحرم المكي . ولد بالكوفة . وسكن مكة وتوفي بها ، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان الشوري « لذهب علم الحجاز له » : الجامع في الحديث . وكانت في « التنوير » . (الأعلام ، ج ٢ ، ص ١٥٩) .

(٤) الفضل بن عياض . سمعي الحديث عنه بالتفعيل .

فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل المغرب^(١) .

□ كان أحمد بن حنبل من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه ، ولم يزل مصاحبـه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وقال في حقـه : « خرجـت من بغداد وما خلـفتُ هـا أتقـي ولا أفقـه من ابن حنـبل » .

□ قال أحمد بن حنـبل : ما بـت مـنـذـ ثـلـاثـينـ سـنـةـ إـلاـ وـأـنـاـ أـدـعـوـ لـلـشـافـعـيـ .
واستغـفرـ لـهـ .

قال عبد الله بن أحمد بن حنـبل قـلتـ لأـبـيـ : أـيـ رـجـلـ كـانـ الشـافـعـيـ ؟ـ
فـإـنـيـ سـعـتـكـ تـكـثـرـ مـنـ الدـعـاءـ لـهـ .

قال : يا بـنـيـ ، كـانـ الشـافـعـيـ كـالـشـمـسـ لـلـدـنـيـ ، وـكـالـعـافـيـةـ لـلـبـدـنـ ، هـلـ
لـهـذـيـنـ مـنـ خـلـفـ ، أـوـ عـنـهـمـ مـنـ عـوـضـ ؟ـ

□ لما مـرـضـ أـبـوـ يـوسـفـ^(٢) صـاحـبـ أـبـيـ حـنـيفـةـ مـرـضاـ خـيـفـ عـلـيـهـ مـنـهـ ،
عـادـهـ أـبـوـ حـنـيفـةـ ، فـلـمـاـ خـرـجـ مـنـ عـنـهـ وـضـعـ يـدـيـهـ عـلـىـ عـتـبـةـ بـابـهـ وـقـالـ : «ـ إـنـ
يـمـتـ هـذـاـ الـفـتـيـ فـاـنـهـ أـعـلـمـ مـنـ عـلـيـهـ ، وـأـوـمـاـ إـلـىـ الـأـرـضـ »ـ .

□ قال ابن كـرـامـةـ ، كـنـاـ عـنـدـ وـكـيـعـ^(٣) «ـ الـفـقـيـهـ »ـ يـوـمـاـ ، فـقـالـ رـجـلـ :
«ـ أـخـطـأـ أـبـوـ حـنـيفـةـ ، فـقـالـ وـكـيـعـ : كـيـفـ يـقـدـرـ أـبـوـ حـنـيفـةـ أـنـ يـخـطـئـ وـمـعـهـ مـثـلـ
أـبـيـ يـوسـفـ وـزـفـرـ فـيـ قـيـاسـهـاـ ، وـمـثـلـ يـحـيـيـ بـنـ أـبـيـ زـائـدـةـ ، وـحـفـصـ بـنـ غـيـاثـ

(١) تـذـكـرـةـ الـحـفـاظـ لـلـذـهـيـ ، جـ ١ـ ، صـ ٢٥٦ـ .

(٢) تـتـلـمـذـ عـلـىـ أـبـيـ حـنـيفـةـ مـنـ طـفـولـتـهـ ، وـلـمـ أـرـادـ أـمـهـ مـنـعـهـ مـنـ الـذـهـابـ إـلـىـ حـلـقـاتـ أـبـيـ حـنـيفـةـ ، لـيـعـمـلـ فـيـ
صـنـعـاتـ يـقـاتـاـتـ مـنـهـ . قـالـ لـهـ أـبـوـ حـنـيفـةـ سـيـأـتـيـ يـوـمـ عـلـىـ أـبـنـكـ يـأـكـلـ أـطـاـبـ الطـعـامـ بـأـطـبـاقـ مـنـ الـذـهـبـ . وـقـدـ كـانـ
عـنـدـمـاـ عـلـتـ مـكـاتـهـ عـنـدـ الرـشـيدـ .

وـأـبـوـ يـوسـفـ هـوـ : يـعـقـوبـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ حـبـيبـ ، أـصـلـهـ عـرـبـيـ مـنـ قـبـيلـةـ الـأـوـسـ ، وـلـدـ عـاـمـ ١١٣ـ هـ .

(٣) هـوـ وـكـيـعـ بـنـ الـجـراحـ (١٢٩ـ هـ / ٧٤٦ـ مـ) : حـافـظـ لـلـحـدـيـثـ ، ثـبـتـ ، كـانـ مـحـدـثـ الـعـرـاقـ فـيـ
عـصـرـهـ ، وـلـدـ بـالـكـوـفـةـ ، قـالـ إـلـيـمـ اـبـنـ حـنـبلـ : مـاـ رـأـيـتـ أـحـدـاـ أـوـعـيـ مـنـهـ وـلـاـ أـحـفـظـ . وـكـيـعـ إـمـامـ الـمـسـلـيـنـ .

وحبان ومندل في حفظهم للحديث ، والقاسم بن معن في معرفته باللغة العربية ، وداود الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما ووعيهما ؟ من كان هؤلاء جلساً وله ، لم يكن يخطيء لأنه إن أخطأ ردوه » .

□ وما يذكر في باب تلاقي العلماء بالأكرام ، أن العالم الشهير شيخ الشافعية : أحمد بن حجر الهيثمي المكي المتوفى سنة ٩٧٣ هـ / ، ألف كتاباً خاصاً في مناقب أبي حنيفة سماه « الخيرات الحسان » ، في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان » .

□ وقف شافعي رضي الله عنه على قبر الليث بن سعد ، وهو إمام لم يدون أصحابه عنه ، فأندثر مذهبته ، على حين كان رافع منار مصر في عهده ، يقارع مالكاً في المدينة في علمه ، ويقابل أبو حنيفة في العراق بثراه واستخدام غناه للعلم وأهله .

قال الشافعي أمّام قبر الليث : الله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكلن لعالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والورع .

□ روى الشعبي قال : ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بر kabah ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله عليه صلواته . فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فقال زيد : أربني يدك ، فأخذها وقبّلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيته نبيينا .

فما أجمل أن نرى علماء اليوم يتبادلون الاجلال والأكرام
والاحترام .

يلتقون على ما اتفقوا عليه وهو ٩٩ %
ويغدر بعضهم بعضاً على ما اختلفوا عليه وهو ١ %

فليما ذا تهويل الاختلاف ، ومباعدة الشقة ؟ !

لخدمة من هذا ؟

ولصالح من نتائجه ؟

يا سادة . . . دعوا الخلاف ، والتقوا على محبة الله ورسوله ، و المجال عملكم
معروف واضح بالآية الشريفة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِثْقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ، لِتَبَيَّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكُونُونَهُ ﴾^(١) .

واذكروا حديث رسول الله ﷺ : « صنفان من الناس إذا صلحا
صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء^(٢) ». »

☆ ☆ ☆



(١) سورة آل عمران الآية الكريمة: ١٨٧

(٢) أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس

ما عليهم

□ «احذروا زلّة العالم ، وانتظروا
فيأته » .

رسول الله

□ « القرآن ضائع » من نفوس الخلق ، ومن المجتمع ككل ، فما أجمل أن
يعلم العلماء على إعادة تثبيته في النفوس ، انهم حراس القرآن ، فما أروع أن
يكون « الميزان » مقياس أعمالهم وكلامهم وحبهم وبغضهم ، يحبون لبّه ،
ويبغضون ببغضه .

ومن يرى منهم أن الایان الحق صلاح نفسه وبيته فقط ، فليقم للتبلیغ
والارشاد بالحكمة والمعروف . وليرقى لتجويد معاني القرآن في قلوب البشر ،
ول يجعل هدفه توحيد الأمة على مختلف طوائفها ومذاهبها ؛ فإن الشجرة إذا
ازداد نوها ، واشتد التفافها ، وكثرت أوراقها ، وتشعبت أغصانها ، قل ثرها ،
وتضاءلت غلتها ، فالبستانى الحاذق يعمد اليها فيبتر ويذنب ، ويقل
ويهذب ، ويقي على أصولها ، فيتسرب الغذاء إلى هذه الأصول وحدها ،
وبذلك يعود إلى الشجرة طاقة إثمارها ، وإياءأكلها ، وهكذا القرآن : يجب
أن تصرف هم العلماء وتتجه عزائم المصلحين إلى فهمه وحده ، وفهم حياة
النبي ﷺ العملية التي تفسره وحده ، وإلى تنشية شعور المسلمين ، وتربيتهم
على قداسته وحده ، وإنما كان هنا لأن تزاحم الأمم على الحياة في هذا العصر
استثر بالوقت ، فلم يبق منه للثقافات الدينية والدراسات الروحية إلا

☆ رواه البهقي والملواني عن ابن عدي .

القليل ، فيجب اغتنام القليل وتسخيره في خدمة القرآن ، فيخفف الحمل وتسيير السفينية باسم الله^(١) .

هو مجدد ، يبدد غلو الغالين ، ويحض ابطال المبطلين . لذلك من واجبه فهم عصره بدقة .

□ يدرك بالرفق ، ما لا يدرك بالعنف ، يتحبب الى الناس : « إن رأس العقل التحبيب الى الناس^(٢) » .

□ إحياء القلوب : يقول رسول الله ﷺ : « لتفشين أمتى فتن يوت فيها قلب الرجل ، كا يوت بدنها^(٣) ». فمن سيحيي هذه القلوب سوى العالم العامل المركزي .

□ يتناصح بالعلم مع العلماء والمتعلمين : « تناصحوا في العلم ولا يخن بعضكم بعضاً ، فإن خيانة في العلم ، أشد من خيانة في المال^(٤) » .

□ يتمثل حديث رسول الله تعالى في الروح : « ألا أنبئكم بالفقير كل الفقير؟ من لا يقسط الناس من رحمة الله ، ولا يبيسهم من روح الله ، ولا يؤمنهم مكر الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه^(٥) » .

□ يحسب حساب السؤال عن فضل عالمه يوم القيمة : « إن الله تعالى يسأل العبد عن فضل عالمه ، كا يسأله عن فضل ماله^(٦) » .

(١) جمال الدين الافغاني سلسلة اقرأ ط ٢ ، ص : ٦٣ / ٦٤ .

(٢) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة .

(٣) رواه نعم بن حماد في الفتنة عن ابن عمر « كتاب الفتح الكبير » .

(٤) عن ابن عباس

(٥) ابن لال في مكارم الأخلاق عن علي

(٦) الطبراني في الصغير

- لا يُزهّد الناس بالدنيا « نعمت المطية للمؤمن » ، بل يجعلها بين أيديهم ، والقلب مع الله ، يملأ الدنيا ولا تملأه الدنيا « فعليها يبلغ الخير ، وبها ينجو من الشر^(١) » .
- يحيي السنة في كل مجالاتها : في الجهاد ، في محاربة الفقر والبطالة والكسل ، أما حلّ النبي فأساً لمسلم فقير وقال له اذهب واحتطب ولا تسأل الناس (أليست هذه سنة ؟) .
- يطيب القلوب الرياضة ، ويسمى بالقلوب السليمة المستنية . لا يُكفر ولا يشتم فهو الطبيب المداوي برفق وحنان .
- هو مبتسם لطيف كي تتفتح مغاليق القلوب له ، فلا غلظة ولا قسوة ولا تجبر ولا تكبر ، فما أكثر أحاديث رسول الله ﷺ في المرح والمزاح سنوره بعضها في غير هذه الأسطر من هذا الكتاب . فلا غلظة ولا قسوة ولا تجبر ولا تكبر .
- يرى الناس ثرات الاسلام ومبادئه في أعماله وسلوكه : طيبة خيرة مكنته سهلة . . . فتُعشق ، فيصبح قبلة المسلمين .
- لا يناظر حباً بالمناظرة ، يناظر أهل الزيف ليدفع بمحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين ، فتكون غلبته لأهل الباطل والزيف والتعريف ، بركة على المسلمين ، وعلى سلامة مسيرتهم .
- اذا نشر الله ذكره عند المؤمنين ، واحتاج اليه الناس لما عنده من علم ، ألزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم . فتواضعه لمن هو مثله في العلم محبة تنبت الألفة والقرب . وتواضعه لمن هو دونه في العلم تشريف له عند الله ،

(١) الديلمي عن ابن مسعود

عندما اذا غاب عن المؤمنين خفوا اليه ، وحنت اليه قلوبهم ، ونبتت محبتهم في
نفوسهم .

ومن صفة العالم الكامل المثالي : أن يريد الله بعلمه ، لا يطلب به شرفاً
ولا منزلة ، الفقر والغنى عنده سواء ، وأساس تقويه للناس (إيمانهم ومحبتهم
للله) ، يرفق بنأسه اليه لأنه لا يتخلف إلا بأخلاق القرآن الجليلة ، ويتجاهي
عن الأخلاق الدينية .

يذاكر العلماء مذاكراً رائده الحق لا الغلبة فيها . يجب ظهور الحق ،
وظهوره على لسان أحدهما ، حباً يستوي فيه أن يكون ظهوره على لسانه أو
لسان مذاكريه ، من غير أن يكون للشيطان فيها هما فيه نصيب ، مبعداً هو
النفس من أن يدخل بمحجة طلب الحق فيقع في المراء ، قال عليه السلام : « من ترك
المراء وهو صادق بني الله له بيته في وسط الجنة »^(١) . وقال : « ما ضل قوم
بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل »^(٢) .

يؤمن شره من خالطه ، ويأمل خيره من صاحبه ، لا يؤخذ بالعثرات ،
ولا يشيع الذنوب عن غيره ، ولا يقطع بالبلاغات ، ولا يفضي سر من عاده ،
ولا ينتصر منه بغير حق ، ويعفو ويصفح عنه ، ذليل للحق ، عزيز على
الباطل ، كاظم للغيبة عن آذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه ، يحب السفيه
بالصمت عنه ، والعالم بالقبول منه ، لا مداهنه ، ولا مشاحنه ، ولا مختال ، ولا
حسود ، ولا حقدود ، ولا سفيه ، ولا جاف ولا فظ ، ولا غليظ ، ولا طعان
ولا لعان ولا مفتاح ، ولا سباب ، يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة
ربه ، ونهاه عما يكره مولاه . يخالق بالجميل من لا يؤمن شره ابقاء على دينه ،

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة ، والامام أحمد بن حنبل .

سليم القلب للعباد من الغل والحسد ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر ، لا يجب زوال النعم عن أحد من العباد ، يداوي جهل من عامله برققه ، اذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل . لا يتوقع له بائقة ، ولا يخاف منه غائلة ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في جهد^(١) .

□ يرجع الى الحق والصواب دون خوف . أفتى الشيخ العز بن عبد السلام مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه خطأ ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه ، من أفتى له ابن عبد السلام بكتنا ، فلا يعمل به فانه خطأ .

□ إن اختلف مع عالم آخر ، لا يعاديه ، ويجعل للصلح والتفاهم كل طريق .

الشافعي قال : أربع رضعات تزوج ولا حرج ، وخمس متفرقات يحرّم زواج . وقال : لا زكاة في الحلي المباح .

اما أبو حنيفة فقد قال : يحرم الزواج برضعة واحدة أو رضعتين ، أو مصة أو مصتين ، وتحبب الزكاة في الحلي المباح اذا بلغ الحلي النصاب وهو مقدار عشرين مثقالاً من الذهب ، وقدر ذلك باشتقي عشرة ليرة ذهبية تقريرياً .

وعلى الرغم من ذلك ما سفه الشافعي رأى أبي حنيفة الذي خالفه في رأيه ، بل إنه ما قنت في صلاة الصبح عند قبر أبي حنيفة ، ولما سئل لماذا لم تقمت ، اجاب قائلاً : تأدباً مع صاحب هذا القبر ، الذي يرى بعدم القنوت في صلاة الصبح .

(١) ص : ١١ ، من أخلاق العلماء ، للشيخ محمد سليمان .

فَا أَرَوْعَهُ وَأَجْلَهُ مِنْ أَدْبٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، مَا أَجْدَرَ عُلَمَاءَ هَذَا الْعَصْرَ أَنْ
يَقْتَدِوا بِهِ .

□ وَرَعْ فَوْقَ وَرَعِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ قَدْوَةٌ :

فَقَدْ تَرَكَ أَبُو حَنِيفَةَ أَكْلَ لَحْمَ الْغَنْمِ لَا فَقَدَ شَاةً فِي الْكُوفَةِ إِلَى أَنْ عَلِمَ
مَوْتَهَا . فَقَدْ سُأْلَ عَنِ الْأَكْثَرِ مَا تَعِيشُ ؟ فَقَيْلَ لَهُ : سَبْعَ سَنِينَ ، فَتَرَكَ أَكْلَ لَحْمَ
الشَّيَاهِ سَبْعَ سَنِينَ تُورِعًا مِنْهُ لَا حَتَّالَ أَنْ تَبْقَى تِلْكَ الشَّاةَ الْحَرَامَ فَيَصادِفُ أَكْلَ
شَيْءٍ مِنْهَا فَيُظْلِمُ قَلْبَهُ إِذْ هَذَا هُوَ شَأْنُ أَكْلِ الْحَرَامِ ، وَإِنْ اتَّفَى الْأَثْمُ لِلْجَهَلِ
بَعْنَ الْحَرَامِ .

وَكَانَ يَقُولُ : « وَمَا أَرَى ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا وَلَكِنَّ الْعَالَمَ يَحْتَاجُ إِنْ
يَأْخُذَ لِنَفْسِهِ مِنْ عَمَلِهِ بِأَكْثَرِ مَا يَدْعُوا الْخَلْقُ إِلَيْهِ^(١) ». .

□ إِذَا سُئِلَ وَلَا يَعْلَمُ ، قَالَ لَا أَدْرِي ، وَهَذَا خَلْقُ نَبِيِّ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ
إِذَا سُئِلَ عَنِ الشَّيْءِ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهِ عِلْمٌ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَا
أَدْرِي .

خرج على رضي الله عنه يوماً وهو يسح بطننه ويقول : يا بردتها على
الكبد ، سئلت عما لا أعلم ، فقلت لا أعلم والله أعلم .

□ أَمَا خَلْقَهُ مَعَ اللَّهِ : فَهُوَ شَاكِرٌ وَلَهُ ذَاكِرٌ ، دَائِمُ الذِّكْرِ بِحَلاوةِ حُبِّ
الْمَذْكُورِ ، فَيَنْعِمُ الْقَلْبُ بِنِساجَةِ الرَّحْمَنِ ، يَعْدُ نَفْسَهُ مَعَ اللَّهِ - مَعَ شَدَّةِ
اجْتِهَادِهِ - خَاطِئًا مَذْنَبًا ، وَمَعَ الْاِسْتِمَارِ عَلَى حَسْنِ الْعَمَلِ مَقْصِرًا ، يَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ
فِي كُلِّ شَيْءٍ ، أَنْسَهُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَوَحَشَّتْهُ مَنْ يَشْغُلُهُ عَنْ رَبِّهِ ، إِنْ ازْدَادَ عَلَمًا
خَافَ تُوكِيدُ الْحَجَةَ ، شَفِقَ عَلَى مَا مَضِيَ مِنْ صَالِحٍ عَمَلٍ أَنْ لَا يَقْبِلَ مِنْهُ ، هُمْ

(١) الخيرات الحسان ، ص ٤٤ .

في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه ، وفي سنن الرسول فقيه ، متأنب بالقرآن والسنّة ، يمشي على الأرض هوناً بالسکينة والوقار ، وقلبه مشتعل بالفهم والاعتبار ، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فصيبة عنده عظيمة ، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم ، فخسران عنده مبين . يذكر الله مع الذاكرين ، ويعتبر بلسان الغافلين ، عالم بدأء نفسه ومتهم لها في كل حال . . .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتَّلَقُّبُهُمْ يَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ سَجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمْفُوعًا ، وَيَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ يَئِكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾^(١) .

و قبل نهاية هذا البحث أقول :

لست أهلاً للتحدث عن واجبات العلماء ، ولكنني اتماماً للبحث ، خضت في الموضوع معترفاً لهم بالفضل والارشاد .

واني لأعرف قدر نفسي . . . وشفيعي حسن القصد وخلوص النية ، والرغبة في خدمة القرآن تعالىه ، وسير مركب الدعوة بسلام وحكمة .

فالعلماء العاملون المصلحون المجددون هم أدرى مني بما قلت ولكن
﴿ وَذَكَرْ فِي إِنَّ الذَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

وأضيف دعوة الى رجوع حق الى القرآن « الميزان » الى الشريعة حكم في كل خلاف بين العلماء اليوم ، وحديث رسول الله يلسم لنا ولكل المؤمنين منهج يطيب الرجوع اليه .

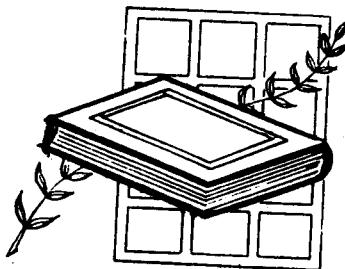
روى الترمذى عن الحارث الاعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

(١) سورة الإسراء ، الآية الكريمة : ١٠٧ / ١٠٨ .

(٢) سورة النازيات ، الآية الكريمة : ٥٥ .

أَنَّهُ قَالَ ، سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَهُ يَقُولُ : « أَلَا إِنَّمَا سَتَكُونُ فَتْنَةً ، فَقُلْتَ : مَا الْخَرْجُ مِنْهَا يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبْرٌ مِنْ بَعْدِكُمْ ، وَحِكْمَةٌ مَا يَبْيَنُكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ لِيُسَمِّيَ الْمُهَزْلَ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَارٍ قَصْمَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ ابْتَغَى الْمَهْدَى فِي غَيْرِهِ أَضْلَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَّيْنِ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَرْبِيعُ بِهِ الْأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنَةُ ، وَلَا يَشْعُرُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كُثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي مَا إِنْ سَمِعَتْهُ الْجِنُّ حَتَّى قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشُدِ ، وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدْقَةً ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرًا ، وَمَنْ حَكِمَ بِهِ عَدْلًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ دُعَاءً إِلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . (التاج .. ج ٤ ، ص ٦ / ٧) .

☆ ☆ ☆



وأنتَ أَيَّهَا الْمُسْلِمُ !

« العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه
فقد هلك »

« حديث شريف »

□ وأنتَ أَيَّهَا الْمُسْلِمُ ، لا بد أنك سمعت بالأحاديث التالية^(١) أو بعضها ،

قال ﷺ :

١ - « العلماء أمناء الله تعالى على خلقه^(٢) ». .

٢ - « اتبعوا العلماء فإنهم سُرُجُ الدُّنْيَا ومصابيح الْآخِرَة^(٣) ». .

٣ - « وَزَنْ حَبْرُ الْعُلَمَاءِ ، بَدْ الشَّهَادَةِ فَرْجَحَ عَلَيْهِمْ^(٤) ». .

٤ - « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْعِلْمَ قَبْضَاتٍ ، ثُمَّ بَثَاهَا فِي الْبَلَادِ ، فَإِذَا
سَعَتْ بِعَالَمٍ قَدْ قَبَضَ مِنَ الْأَرْضِ فَقَدْ رَفَعَتْ قَبْضَةً فَلَا يَزَالُ يَقْبِضُ حَتَّى لَا
يَبْقَى شَيْءٌ^(٥) ». .

٥ - « مَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ عِبَادَةٌ^(٦) ». .

٦ - « خِيَارُ أُمَّتِي عَلَمَوْهَا ، وَخِيَارُ عَلَمَائِهَا رَحْمَاؤُهَا^(٧) . . . ». .

(١) وكلها أحاديث صحيحة من : « منتخب كنز العمال في سن الأقوال » ، الجزء الرابع ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) رواه القضاوي وابن عساكر عن أنس ، المنتخب ج : ٤ .

(٣) رواه الديلمي في مستند الفردوس عن أنس .

(٤) رواه الخطيب عن ابن عمر ، وفي حديث شريف : « يوزن يوم القيمة مداد العلماء ، ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء ». رواه الشيزري عن أنس ، المروي عن عرمان بن حصين ، ابن عبد البر في العلم عن أبي الدرداء ، وابن الجوزي عن النعمان بن بشير .

(٥) رواه الديلمي في الفردوس .

(٦) رواه الديلمي عن ابن عباس .

(٧) أبو نعيم في الحلية ، والخطيب عن أبي هريرة .

٧ - « ما قبض الله تعالى عالماً من هذه الامة ، إلا كان ثغرة في الاسلام
لا تسد ثلمته الى يوم القيمة^(١) » .

٨ - «يرث هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين
وانتهال المبطلين وتأويلي الجاهلية^(٢) .

^٩ - «العلماء مصايح في الأرض ، وخلفاء الأنبياء وورثة الأنبياء»^(٣) .

١٠ - «إذاً أبغض المسلمين علماءهم ، وأظهروا عمارة أسواقهم ، وتألبوا على جمـع الـدـنيـا ، ابـلـاهـم اللـهـ بـأـرـبـعـ : الجـورـ منـ السـلـطـانـ ، والـخـيـانـةـ منـ وـلـادـةـ الـحـكـامـ ، والـقـحـطـ منـ الزـمانـ ، والـصـوـلـةـ منـ العـدـوـ^(٤) ». .



وورد:

١٠ - قال لقمان لابنه : يا بني ما بلغت من حكمتك ؟

قال : لا أتكلف مالا يعنيني .

قال : يا بني إنّه قد بقي شيء آخر ، جالس العلماء ، وزاحمهم بركتيتك ، فإن الله يحيي القلوب الميتة بالحكمة كا يحيي الارض الميتة بوابل السماء .

وقال لقمان يعظ ابنه : لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك ، ولا

(١) المرهي في العلم عن ابن عمر .

(٢) ابن عساكر في تاريخه عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري .

(٢) ابن عدي عن علي .

(٤) واه الحاكم عن على .

تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتوك ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في
العلم ولمن هو دونك . فاما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من
علمهم برفق . يابني : إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

٢ - قال ابن عباس : ذلت طالباً ، فعزرت مطلوباً .

٣ - قال الحسن بن علي لابنه : يا بني اذا جالست العلماء ، فكن على أن
تسع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الصمت ،
ولا تقطع على أحد حديثاً وان طال حتى يمسك .

٤ - وقال الشعبي : جالسو العلماء فإنكم إن أحسنتم حمداً لكم ، وإن أساءتم
تأولوا لكم وعذروكم ، وان أخطأتم لم يعنفوكم ، وإن جهلتم علمكم ، وإن شهدوا
لكم نفعوكم .

٥ - قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يُقبض ، وقبضه ذهاب
أهلة^(١) .

☆ ☆ ☆

- عشرة أحاديث شريفة

- خمسة أقوال مأثورة .

هل تمعنها ؟

هل عرفت قدر العالم الحقيقي ، وقيمة ما يحمل من علم ؟ !

فكيف يجرؤ انسان فيه ذرة ايمان على تناولهم بسوء أو بخبر سوء ، أو

(١) كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لأبي عبد الله النوري القرطبي الاندلسي . ط ٢ ،

. (١٩٦٨)

باشاعة ، أو كذب وافتراء ، هل تحققت من خبر يأريك عن أحدهم قبل أن تشيّع خبر السوء ؟ هل عرضت ما تسمع من المغرضين المنديسين في صفوف المسلمين على (ميزان الشريعة) .

الآن تقرأ قوله عز وجل :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قوماً بِجَهَالَةٍ فَتَصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .
- فكيف اذا كان الذي ستصيبه بجهالتك من صفة الخلق ؟
- هل راعيت (ميزان الشريعة) في أحاديثك بحق العلماء ؟
- هل حاولت أن تضع أمام أذنك مصفاة لتميز الخبيث من الطيب من الأقوال التي تسمع بحق العلماء ؟
- هل كلفت خاطرك بزيارة العالم موضوع الافتراء لتتبين ، كما أمرتنا الآية السابقة ؟

ارجع الى نفسك وفكّر !

وإن جالست العلماء : جالسهم بأدب وتواضع ، وانخفض صوتكم في حديثكم معهم ، فما كان يطلب من الصحابة لرسول الله ، يطلب منك للعالم ، فهو ورث رسول الله ، ما ورث درهماً ولا ديناً ، إنما ورث مقام الهدایة والارشاد والعلم . فسل العلماء بأدب ، وصوت خافت :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ

(١) سورة الحجرات ، الآية الكريمة : ٦

يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحنَ الله قلوبَهُم للتفوي لِهِم
مغفرةً وأجر عظيم ، إِنَّ الَّذِينَ يَنادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرَاتِ أَكْثُرُهُمْ لَا
يَعْقُلُونَ^(١) .

هذه الآيات لنا نحن اليوم ، فالنبي ﷺ والصحابة ماضوا الى ربهم ،
والقصة كحادثة مضت وراحـت ، ولكن الآيات باقية لك ولـكـ ولـكـ مسلم .

أما علمتُ أـيـهاـ المـسـلمـ أنـ أـبـاـ بـكـرـ عـنـدـمـاـ كـانـ يـحـدـثـ النـبـيـ فـكـانـهـ يـسـرـ لـهـ سـرـاـ
مـنـ اـنـخـفـاضـ صـوـتـهـ ، وـكـانـ عـمـراـ إـذـاـ تـكـلـمـ مـعـ النـبـيـ لـاـ يـسـمـعـ النـبـيـ كـلـامـهـ حـتـىـ
يـسـتـفـهـمـ عـقـلـهـ مـنـ عـمـرـ .

بل لقد حافظوا على غض الصوت مع الرسول بعد وفاته ، فكانوا ينكرون
رفع الصوت عند قبره الشريف الطاهر ، فقد روي عن عمر أنه سمع رجلين
يرفعان صوتيهما في مسجد الرسول ، فأقبل عليهما غاضباً يقول : أتدریان أين
أنتا ! ؟ من أين أنتا ؟

فقال أحدهم : من أهل الطائف .

فقال عمر : لو كنتـاـ منـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ لـأـوـجـعـتـكـماـ ضـرـباـ .

لذلك قال الفقهاء : إنه يكره رفع الصوت عند قبر النبي ، كما كان رفع
الصوت مكرهـاـ عـنـهـ فـيـ حـيـاتـهـ عـلـيـهـ .

واليوم وارث النبي الحق ، حكمـهـ فـيـ ذـلـكـ حـكـمـ النـبـيـ تـامـاـ ، فـيـ التـقـدـيرـ .
والاحترام .

أـيـهاـ المـسـلمـ ... اـنـ اـنـتـفـعـتـ مـنـ عـلـمـهـ - وـهـذـاـ وـاقـعـ - فـأشـكـرـهـ عـلـىـ ذـلـكـ

(١) سورة الحجرات ، الآيات : ٤ ، ٣ ، ٢ .

عملياً . فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله . وإن غضبوا عليك ، انظر السبب ، فلا يغضبون إلا الله ، راجع نفسك واعتذر اليهم ، تلطف ووّقر ... طاعة لأمر الله :

﴿ ذلكَ وَمَنْ يَعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ إِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾^(١) .

تريد أن يكون العالم على هواك ! من القيادة كا نصت الأحاديث ، له ألم لك ؟ ! ينبغي أن تكون أنت على هواه ، لأن هواه هوى الشريعة والميزان ، وهواك ... مع شهواتك ودنياك .

ثم إنك تهم بخياط ثيابك ، وصانع أحذياتك ، ومهندس دارك ، وحلاق شعرك ... فهل عندك اهتمام بن هندس ايمانك ، ويطيب قلبك ، ويزين روحك ؟ . فاحذر أن يكون ايمانك خراباً ، وجسدك عامراً ، ومظاهرك عامراً ، وباطنك خاويأً !

هل علمت أيها المسلم أن مخططات الاستعمار لهدم الاسلام : أضعاف سلطان الاسلام في نفوس المسلمين بالسخرية من علماء الدين ، وتصويرهم بصورة الجهلاء الجامدين تارة ، والمنافقين المستغلين لنفوذهم ووظائفهم تارة أخرى ، وبث الشائعات حولهم ؟ !

قد تجده بينهم من يخطئ ويسيء ، وأي فئة في العالم ليس فيها مندس متطرف ، وما أسهل التمييز بين العالم الحقيقي والدّاعي : « فمن ثمارهم تعرفونهم » . واعلم أن :

نقائص العظماء ، هي عزاء التافهين .

(١) سورة الحج ، الآية الكريمة : ٢٢ .

□ أئِيُّها المسلم :

ليس الورع في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الخد حتى يصَرَّ ، ولا في الظهر حتى ينحني ، ولا في الرقبة حتى تطأطئ ، ولا في التقدمات وكثرة الركعات ، إنما الورع في القلوب ، وبتعظيم شعائر الله ، وبشيخ عالم مرب يغرس في نفسك الفضائل والمكرمات ويدفعك إلى العمل في الدنيا والسعى بصدق إلى الآخرة .

ذهب الخشوع من نفوس المسلمين ، شيء طبيعي ، فأين المربيون ؟

قال حذيفة بن اليمان : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وأخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، ورب مصل لا خير فيه ، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة ، فلا ترى فيهم خاشعاً .

والسر واضح في ذلك : إن الخشوع أمر قلبي لا يراه الناس ، فما أسرع التضييع لأمر لا يراه الناس ، أما شكل العبادة الظاهري من حركات فقد يأتيها انسان بحكم العادة أو الرياء بلا خشوع واطمئنان .

ومن أخطاء المسلمين اليوم :

□ عدم انتفاعهم بالعالم ، فان مات ، يُعظَمْ وَيُبَجَّل ... أما في حياته ؟
فواقع المسلمين اليوم يجيب عن هذا السؤال .

هل أَدَبَ المسلم ابنه على حب العالم وتقديره وغرس في نفسه حبه لينتفع منه ؟

يفكر المسلم بلباس ابنه ، بطعام ابنه ، بمصروف ابنه ، بزواج ابنه ... أما دين ابنه من يعلمه إياه ، من ينشئه تنشئة صالحة ؟ من يربيه على الإيمان ؟
من ينمي فيه معاني القرآن وخشية الله ؟ لا أحد ... السبب :

رخص قيمة الدين في نفوس غالب المسلمين ! ! مع كل أسف . لقد أصابت المسلمين السكرتان : « سكرة الجهل وسكرة حب الدنيا » .

ومن يتذكر عالماً ويذهب إليه ، قد يسأل العالم فيجيب هو ، يجلس بلا أدب ، بينما كان الصحابة في حضرة رسول الله : لأن على رؤوسهم الطير ، وأنت الآن بين يدي الوارث الحمدي ، فهو يرث كل ما كان من تمجيل واحترام كان للنبي ﷺ .

- تذهب إلى الخياط ، وتراه يمسك المقص ويقطع قطعة « قماشك » لاتتدخل ولا تعترض .

- تذهب إلى الملاقي ، يمسك رأسك ويضغطه إلى تحت دون اعتراض .

- تذهب إلى الطبيب ، يدخل في جسمك الإبرة وتنائم ، ويعطيك دواء مَرًّا لا اعتراض ، بل مع جزيل الشكر والامتنان والمكافأة المادية .

أما عند العالم بدين الله ، فأنت أمامه : (عالم ونصف) ، بل أنت المرشد والموجه .

لا أقول دع عقلك وأقبل ، لا ...

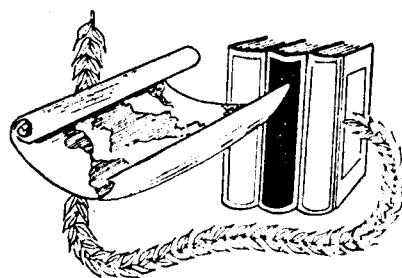
بل أجعل (ميزان الشريعة) مقاييسك في كل قول لك أو عمل مع السادة العلماء .

- اللهم سكينتك أنجزها على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ...

- لئن عاب الله علىبني إسرائيل « قتلهم الأنبياء بغير حق » ، فيعاب على المسلمين اليوم قتلهم علماءهم بغير حق ، قتلواهم جوعاً وفقرأً ونقداً وبعداً ومجافاة واشاعات ومعاداة وغيبة وافتراءً ودساً ...

- آيات القرآن : مواد لبناء الایمان والأخلاق
ومكان العمل المسجد .
والبناء هو الشیخ العالم .
هجر المسلمين المسجد والعالم ، وظنوا أنهم يستطيعون البناء !
فانظر - لانتظر - بل انظر النتیجة : « ضیاع القرآن من القلوب » .

* * *



ثرة القرآن الأولى

«أدبني ربي فأحسن تأدبي»

(رسول الله)

□ كانت الثرة الأولى والثلثى لتعاليم القرآن الكريم ، شخصيّة رسول الله عليه السلام ، ويكفيانا أن الله عز وجل ، تولى تأدبيه ، فآية أخلاق هذه التي تستمثل بانسان تولى الله تربيته وتأدبيه ؟ ! إنه حتّى بشر بأخلاق وسلوك الملائكة . ورضي الله عن أم المؤمنين السيدة عائشة التي أجبت عندما سئلت عن خلق رسول الله : بأنه « كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويُسخط بسخطه » .

□ عليه السلام ، فهو الأسوة الحسنة لنا جميعاً ، في كل شأن . حيث يمكن لكل انسان كائناً من كان ، وعلى أية حال ، وفي أية سن أن يقتدي به ، وأن يجد في حياته ما يتلذذه مثلاً أعلى له .

« وأياً ما كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فانك منها أصبحت أو أمست ، وعلى أية حال بت أو أضحيت ، فلك في حياة محمد عليه السلام هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي بضوئها طلام العيش . إن سيرته هي أكمل ما عرفت الانسانية من سيرة انسان رسول ، فلا عجب أن تطلب السماء إلى الناس جميعاً أن يتلذذوا قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(١) .

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، لحمد الراوي ، طبعة : دار العربية .

لم لا وهو في مرتبة الكمال البشري ، فما أمر شيء إلا كان أسبق إليه ، وما نهى عن شيء إلا كان أبعد الناس عنه ، تراه في كل شيء بسمته النيرة ، وحقيقة الكاملة من لحظة ولادته إلى أن لقي ربه ، في داخل بيته وخارجه ، صفة مشرقة ، ليس فيها ما يطوى أو ينكر ، لأنها بيضاء ناصعة ، نقية طاهرة ، حنيفية سمحاء .

فهو قدوة العلماء بخاصة في خصال معينة يمكن أن نذكر المهم منها :

أ - صقل محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ روحه ، وذلك في اعتكافه في غار حراء . فهو لم يجد بين صخور حراء سعادة نفسية ، وهناء روحية ، وقربة إلى الله ، لما ترك الناس والزوجة والولد ، واعتكف هناك . تهجده الطويل ... حياة لروحه وقلبه بل طرب بالله وقرب منه . لذلك ما اخذ خليلاً ، ولو اخذ لاخذ أبا بكر خليلاً ، ولكنه قال « ولكن خليل صاحبكم الله » .

فهو إذن شديد الشعور بالله ، شديد اللجوء إليه ، شديد الخشية منه ، لذلك لما لاقاه أهل الطائف بما لاقوه من إعراض ، وأغراء السفهاء به ، يسبونه ويصيرون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وأجلووه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه السفهاء ، عمد إلى ظل شجرة من عنب ، فلما أطمأن لجأ إلى الله وحده فقال : « اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتوجهني ^(١) أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي

(١) - يتوجهني : يلقاني بالغناظة والوجه الكريه .

غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العَتَبِ^(١) حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة
إلا بك !^(٢)

إنه شديد الشعور بالله ، فهذا الدعاء لا يصدر إلا عن إنسان كيابنه كله
يحس ويشعر بالله ، لذلك عندما يقسم كان يقول « والذى نفس محمد
بيده ... » .

كان يرى لقاء الله ، أقرب اليه من اللقمة التي يرفعها بيده الشريفة الى
فه ، أو من طرفة عين وارتدادها ..

□ شديد الشعور بالله ، صفة يجب أن يتحلى بها كل مؤمن ، فضلا عن
العالم الداعي الى الله ، وعلى قدر التأثر بالله يكون الانتاج والخير في الدعوة .

لقد كانت لرسول الله ساعة مع الله لا يرقى اليها ملَك مقرب ، ولا رسول
مرسل ، فهو في حضرته في كل لحظة ، وهذا ما يفسر لنا خشته من الله
عندما أراد ضرب خادمة صغيرة بسواك صغير . لم يضرها خشية من الله .
وخشيتها وشعوره بالله هي التي جعلته يكشف عن بطنه الشريف « لسود » كي
يقتص منه عندما ادعى أنه تألم من قضيب كان بيده رسول الله ، يسوى به
الصفوف قبيل معركة بدر .

ان الصفة الأولى والهامة جدا ، بل الأساس لكل داعية الى الله ، المقتدي
برسول الله حقاً وصدقًا ، شدة توجهه الى الله في كل حال .

٢ - جهاد النبي ﷺ في الدعوة ، وحكمته في ذلك . « الحكمة الحكمة
يا سادة » وأهم مظاهرها : عدم تعريض الصحابة للقتل في معارك لا يستفيد

(١) - العتبى : الرجوع عن الائعة إلى ما يرضي العاتب .

(٢) - تهذيب سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٣١ .

منها الاسلام . صبر في مكة وكان يقول : « أنت قليل يا عمر ». وفي بدر ما خرج لحرب ، إنما خرج للقافلة ، وفي أحد ما أراد الخروج ، وفي غزوة الأحزاب ، دافع من وراء الخندق .. ففتح مكة بعد صلح الحديبية ... كلها دروس للداعي أن لا يعرض أصحابه للهلاك ، إلا في مواجهة عدو مستعمر خارجي ، ففي هذه الحال يفرض الجهاد على كل مستطيع لحقن دماء الأبرياء من المسلمين « أطفالاً وشيوخاً ونساء » .

ونستنتج من ذلك ، أنه يجب دعوة الناس بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والتحبب والتآلف ، والصبر ، وبكل ايجابية ، فقد أضرت بالمسلمين السلبية ونتائجها .

٣ - جهاد النبي ، أمام العدو المستعمر ، جهاد قوة ، وليس جهاد ضعف ، ليس في حياته اتكالية وزهد وتقوّع ، بل جهاد ، وعمل ، وانتاج .
قال علي كرم الله وجهه : « إنا كنا اذا حمي البأس واشتد واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه » .

وقال ابن عمر : « مارأيت أشجع ولا أبجد ، ولا أرضى من رسول الله ﷺ » .

ما أجمل الاقتداء بهذه الصفة ، صفة جهاد العدو الصهيوني أو المستعمر ، لنظهر للناس أن الدين ، دين عزة وقوة وجهاد ، جهاد كلمة طيبة في الداخل ، وجهاد طائرة ومدرعات مع العدو المغتصب ، لنعطي الدين ، بلسان العمل والواقع ، صفتة الاجيادية في أمور الحياة المعاصرة .

٤ - يدعو النبي الى المؤمن القوي ، ويذكره الجهل والمكوث في الجبال والصوماع ، فكان ﷺ : يصوم ويفطر ، ويقوم الليل وينام ، ويتزوج

النساء ، ومن رعب عن سنته ، فليس منه ، إنه يريد المؤمن قوياً ، رجل واقع وميدان ، رجل حياته نابضة بالعمل المنتج لصالحه وصالح المجتمع .

٦ - وظيفة العالم اليوم دعوة أتباعه الى نبذ الكسل والجبن والبخل والفقر ... فدعاة النبي واستعادته من الجبن والكسل والعجز والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال ... معنى ذلك أنه عليه السلام لا يحب الجبان ، ولا الكسول ولا العاجز ، ولا الضعيف ... انه يحب الشخصيات القوية العاملة الغنية لا غنى عنها والشح والتکدیس .. بل غنى الانفاق ، وغنى الخير للآخرين .

□ أما « نَجَرٌ » النبي الكريم بيده الشريفة يد فأس لسلم كي يحتب ولا يسأل الناس ؟ ! فهل فكر عالم يوماً أن يتم بأمور المسلمين الدينوية ، ويسعى لغناهم ، لأن في الغنى قوة ؟ !

□ عندما قال عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفراً »^(١) فهو يحارب الفقر ، ويذكره أن يكون المؤمن فقيراً ، فالفقر ذلة وهدر كرامة ، وضعف واستجداء .. والآيات عزة وقوة وكرامة ، فكيف يجتمعان ! ؟

لذلك قال المري الأول ، رضي الله لنا أن يكون أسوة لنا : « لأن يأخذ أحدكم حبلة فيأتي بمحمة من حطب فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه^(٢) ». وقال : ﴿ الْيَدُ الْعَلِيَا خَيْرٌ مِّنِ الْيَدِ السُّفْلِيِّ ﴾ .

٧ - لقد ارتضى المسلمون النبي عليه السلام حاكماً لهم ، على أمور دينهم ودنياهم ، باعتباره المسلم الأول ، والمري الأول ، وكذلك ارتضوا أبا بكر وعمر وعثمان

(١) رواه أبو نعيم في الحلية .

(٢) رواه البخاري ، رياض الصالحين ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذى .

وعليا ، إلى أن جاء معاوية وغير هذه الخطة ، وجعلها وراثية ، وإن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَامُكُمْ ﴾ ، وأكرم الناس عند الله ، يجب أن يكون أكرمهم عند الناس .

العالم الوارث الحمي ، هو الحكم - على الأقل - على أرواح وايمان وقلوب المسلمين ، يهتم بتربيتها وتنميتها ، ويسعى لسموها وسلامتها ، مع الحلم على أصحابه ، كـ حلم النبي على أصحابه ، حتى المنافق منهم . أما حلم كثيراً على عبد الله بن أبي بن سلول في أحد وغيرها ، أما قال للنبي : « أطاعهم وعصاني ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هـا هنا أـبـها الناس ! » .

فالحلم على الأتباع من أخلاق رسول الله ﷺ ، والحلم : وقار وثبات عند الأسباب المحركة للغضب ، أو البعثة على التعجل في العقوبة ، الحلم : حبس النفس حتى تخضع لسلطان العقل وتطمئن لما يأمرها به . الحلم : ضبط النفس .

٧ - الرسول ﷺ مربٌ للنفوس ، مرك لها ، بقوله وعمله ، في كل أحواله ، دون أن تؤثر عليه روعة الانتصار ، بعد أن ملك الأمة ، وقد كان مطلوباً مهاجراً ملاحقاً .

إنه معلم مرك ، لم يتخـل عن هذه الوظيفة طرفة عين ، ولم يدع التوجيه حتى آخر لحظة من لحظات حياته فكان يقول : الصلاة ... الصلاة ...

ولهذا فإن ، تربية النفوس ، صفة وخلق وسجية في حياة الوارث لـرسول الله ﷺ .

٨ - وكان النبي زاهداً واجداً ، زاهداً بغير الموجود ، وإن وجد تنعم به . ولم ينفر أصحابه من الدنيا والاستمتاع بها .

روى الحاكم عن أنس ، قال عليه السلام : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ، ولكن يصيب منها جيعا ، ولا يكون كلاً على الناس » .^(١)

وفي حديث الديلمي عن ابن مسعود ، قال عليه أفضل صلاة وسلام : « لاتسبوا الدنيا فنعمت المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير ، وبها ينجو من الشر » .

فنينفر المسلمين من الدنيا ، ويزهدهم بها ، لتضيع من أيديهم ، ويقوى بها أعدائهم ، أولئك رغبوا عن الإسلام الحق ، وعن سنة رسول الله ، بل عن « ميزان الشريعة » ككل .

٩ - كان عليه السلام ، يمازح أصحابه ، ويجالطهم ، ويجادلهم ، ويداعب أولادهم ويجلسهم في حجره ، ويحبب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعذر .

قال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أَفْ قَطْ ، وما سبني من سبة ، ولا ضربني ضربة ، ولا انتهني ، ولا عبس في وجهي ، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاقبني عليه :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظَّاً غَلِظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾^(٢).

فما أقرب اللطف إلى النفس ، وما أروع فعل الابتسامة في القلب ، وما أجمل المداعبة اللطيفة المتزنة على الروح .

(١) رواه الحاكم عن أنس .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٥٩ .

رسول الله قدوة ، فلندع الغلظة والتعالي والتكبر ، ولتكن الابتسامة والمحبة الصادقة الصورة الطاهرة ، لتجذب الناس الى الداعي .

□ عن جابر بن عبد الله ، قال دخلت على رسول الله ﷺ ، والحسن والحسين على ظهره راكبين ، فقال جابر : نعم الجمل جملكما . فقال ﷺ : ونعم الراكبان همَا .

ما أروع هذه النفس الكريمة الحرة وهي تلاطف وتداعب ، ويستمع الى الملاطفة ويقبل المزاح في ساحة ، وطهر وحسن مودة ، وحب عميق . مع أنه ﷺ ، كان ينزع ولا يقول إلا حقاً ، فما أطيبك وما أكرمك يا رسول الله .

□ جاءت إليه ﷺ امرأة يقال لها أم أمين ، فقالت يا رسول الله إن زوجي يدعوك ، قال : أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت : والله ما بعينه بياض ، فقال ﷺ : إن بعينه بياضاً . قالت : لا والله ، قال ﷺ : ما من أحد إلا وبعينه بياض .

□ زهير بن حرام : رجل من أهل الباادية ، كان يهادي النبي ﷺ بوجود الباادية وما يستطرف منها ، وكان ﷺ يهادي ويكافئه بوجود الحاضرة وما يستطرف منها . وكان ﷺ يقول : زهير باديتنا ، ونحن حاضرته . وكان ﷺ يحبه ، فأتاه النبي وهو يبيع في السوق متاعاً له ، فاحتضنه من خلفه من حيث لا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفت فعرف أنه النبي ﷺ ، فجعل يمسح ظهره في صدر النبي ﷺ ، وجعل الرسول يقول : من يشتري العبد ، فقال زهير : يا رسول الله إذن تجدني كاسداً ، فقال ﷺ : أنت عند الله غال^(١).

(١) حديث رواه أنس ، وروايته باسم (زاهر) وليس (بزهير) والحديث أخرجه أحمد والترمذى في الشمائل ، وهو في كتاب الاصابة ...

فما أجمل ملاطفة النبي لأصحابه . وهو قدوة لنا بذلك !!!

□ وكان نعيمان بن عمرو بن رفاعة الانصاري لا يدخل المدينة طرفة إلا اشتري منها . ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : هذا أهديه لك ، فإذا جاء صاحبه يطلب ثنه ، أحضره إلى النبي ﷺ فيقول : أعطه هذا ثمن متاعه . فيقول : أعلم تهده لي ، فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثنه ، ولقد أحببت أن تأكل ، فيضحك ، ويأمر ﷺ لصاحبه بثنه .

□ خرج أبو بكر تاجراً إلى بصرى ، ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري ، وسوسيط بن حرملة ، وقد كانا من الذين شهدوا بدرأ ، وكان سوسيط على زاد أبي بكر ، فجاءه نعيمان ، وقال له : أطعمني ، فقال : لاحق يأتي أبو بكر ، وكان نعيمان رجلاً مضحكاً مزاحاً فيه دعاية ، فقال لسوسيط لأنغيظنك ، فذهب إلى ناس مرروا بهم ، فقال لهم نعيمان : تشترون مني عبداً لي ؟ قالوا : نعم ، قال : إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعده ، أنا رجل حر ، فإن كان إذا قال لكم هذا تركتكم فلا تشترون ولا تفسدوا علي عبدي . قالوا : لا .. بل نشتريه ولا ننظر في قوله ، فاشتروه منه بعشر قلائق ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بال القوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا ، فجاء القوم به وقالوا : قد اشتريناك . فقال : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فوضعوا عمامته في عنقه ، فقال لهم : إنه يتهزأ ، ولست بعده . فقالوا له : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في عنقه ، وذهبوا به ، ولم يسمعوا كلامه . فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخبره خبره ، فذهب هو وأصحابه ، واتبعوا القوم ، وأخبروهم أنه يمزح ، وردوا عليهم القلائق ، ورددوا سوسيطاً منهم . فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فضحك رسول الله ﷺ من ذلك حولاً كاملاً .

□ جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فدخل المسجد ، وأناخ راحلته

بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نحرتها فأكلناها فإنما قد قرمنا^(١) إلى اللحم . ويؤدي رسول الله عليه صلوات الله عليه حرقها . فنحرها نعيمان . فخرج الأعرابي ، فرأى راحلته ، فصاح : واعقره يا محمد !

فخرج النبي عليه صلوات الله عليه فقال : من فعل ؟ قالوا : نعيمان ، فاتبعه النبي عليه صلوات الله عليه يسأل عنه ، فوجده في دار ضياعة بن الزبير بن عبد المطلب قد اخترق في خندق وجعل عليه الجريد . فأشار إليه رجل ، ورفع صوته : ما رأيته يارسول الله ، وأشار بأصبعه حيث هو . فأخرجه رسول الله عليه صلوات الله عليه ، وقد تعرّض وجهه بالتراب فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك على يارسول الله هم الذين أمروني . فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويوضحك ، ثم غرم - دفع - رسول الله عليه صلوات الله عليه ثمنها .

□ هذه جوانب من حياة رسول الله ، عرضناها لتقديمها . ولو أردنا أن نوفي الموضوع حقه لعرضنا سيرته الشريفة الطاهرة كلها ، فهو مثال الكمال الخلقي ، والبر الإنساني ، إنه الرحمة المهداة للعالمين ، فلا يجد المتقدم نحو ساحة سيرته إلا البر في أكمل صوره ، والاحسان في أجمل معانيه ، والعفو عن مسيئيه ، فضلاً عن محبيه .

قال علي رضي الله عنه : « كان عليه صلوات الله عليه كريماً جواداً وفياضاً سخياً ، صادق القول ، لين العريكة ، من جالسه أحبه ، ومن رأه بدبه هابه » .

□ فالي الاقتداء بالمربي الأول . وعلى قدر الحبة يأتي التطبيق والاقتداء

(١) المقرم : البغير المقرم لا يحمل عليه ولا يذلل ، ومنه قيل للسيد قرم ومقرم تشبيهاً به ، والقرم « بفتحتين » شدة شهوة اللحم ، وقد « قرم إلى اللحم ، من باب طرب » . « مختار الصحاح » ، ص : ٤٥٧ . والحديث من طريق ربيعة بن عثمان ، راجع الأصابة ص : ٥٤٠ ، ج ٢ .

والخلق بأخلاقه ، وعلى قدر الفهم يكون النجاح . والتطبيق الأمثل ، عندما يقتدي العالم بجميع جوانب شخصيته عليه السلام ، فلا يغلب فيه حال على حال .

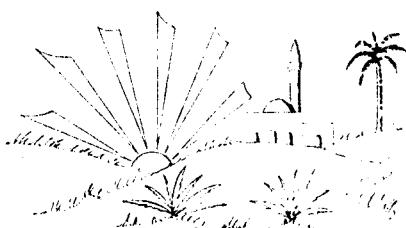
لا يغلب جانب الروح على جانب الجسد ،

ولا جانب الجسد على جانب الروح .

وبذلك تتحقق الوراثة النبوية الكاملة .

وعلى ذلك كان الصديق رضي الله عنه مع رسول إيمانه أكثر من غيره ، وعلى ذلك كان عمر رضي الله عنه مع اجتهاده وتشريعاته الرائعة ، وعلى ذلك كان عثمان رضي الله عنه مع غناه ونفاقه في سبيل الدعوة والاسلام ، وعلى ذلك كان علي رضي الله عنه مع شجاعته وفروسيته وقوته ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم .

☆ ☆ ☆



أَمْرَاءٌ حَفِظُوا الْقُرْآنَ

قال عليه السلام : « صنفان من أمني إذا صلحا صلحت الأمة : العلماء والامراء ».
« أبو نعيم في الخلية »

□ لن نسرد هنا تاريخاً ، إنما هي لمع من سيرة أُمّراء فهموا عناصر الميزان فيها سليماً . سنعرض جوانب من حياتهم ، فالحديث عن الجوانب كلها يطول بنا . ولن نكتب ترجمة هؤلاء ، فلنسنا في صدد كتابة تراجم رجال أُمّراء .

إنما هي صور صادقة من الفهم السليم للإسلام ، لم يجعلها لخرجها صورة جميلة كأن يريد لها أن تكون ، بل هي صور هكذا كانت على حقيقتها في نفوس أصحابها وأعمالهم ، فرفعتهم لروعتها وجلالها إلى مكانٍ عليٍّ .

كأننا لن نعرض جوانب حياة هؤلاء الأُمّراء ، الذين انتقينا ، قبل توليهم الإمارة إلا بقدر يسير ، قد تحتاجه لفهم نواحٍ من شخصيّة من نحن في صدده .

ولسنا نزعم أن الذين ستنظر إلىهم ، هم كل النساء القادة ، الذين فهموا الإسلام فيها سليماً ، على مَرْتَأى تاريخ هذه الأمة ، فهناك غيرهم كثير ... ولكنها أمثلة نعرضها .

أبو بكر الصديق

تمت له البيعة بخلافة رسول الله ﷺ ، فقام ليعلن منهجه في الحكم كما فهمه من الكتاب والسنة ، فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ وَلِيْتُ عَلَيْكُمْ ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ لَّكُمْ ، إِنْ أَحْسَنْتُ فَأُعْنِيُّ بِهِ ، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوْمِيُّ ، الْصَّدْقَ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذْبُ خِيَانَةٌ ، وَالْعَسْفُ فِيمَا كُنْتُ قَوِيًّا عَنِي حَتَّى أَخْذَ لَهُ حَقَّهُ ، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفٌ عَنِي حَتَّى أَخْذَ مِنْهُ الْحَقُّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، لَا يَدْعُ أَحَدٌ مِّنْكُمُ الْجِهَادَ ، إِنَّهُ لَا يَدْعُهُ قَوْمٌ إِلَّا ضَرَبُوهُمُ اللَّهَ بِالذَّلِّ ، أَطْبَعْتُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةٌ لِّي عَلَيْكُمْ ، قَوْمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ »^(١).

هذه خطة اتبعها الصديق في سياسته لشعبه ، وهي وجهة ولى وجهه شططها في حكم شعبه ، إنها سياسة لا إيهام فيها ، وقد حقق ذلك في مدة خلافته ، وزاد على ذلك عدلاً ورحمة . لقد جعل لباسه العدل ، وشعاره التقوى ، وهدفه الإخلاص ورقى أمته ، وحب الخير لها غير ناظر لمنفعة شخصية : « أَطْبَعْتُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ » .

كانت الخلافة ، وكانت أمامة رضي الله عنه ثلاثة أمور خطيرة : بعثه لجيش أسامة بن زيد ، وحروب الردة ، وبعوث العراق والشام ، فقام على هذه الأمور الثلاثة ، كل ما قام بعد ذلك من بناء الدولة الإسلامية .

شيع جيش أسامة ، فأوصاه وصيحة ، هي بلاغ الدين القويم على لسان الصديق ، إنها وصيحة أمير مسلم ينطق بالعدل والحق لسانه ، فهو مسلم مع من يحب ، ومع من لا يحب ولو في القتال ، فقال لجيش أسامة : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قَفُوا أَوْصِيكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِي : لَا تَخْوِنُوا وَلَا تُغْلِبُوا ، وَلَا تَفْدِرُوا وَلَا

(١) الكامل ، ج : ٢ ، ص : ٢٢٤ / ٢٢٥ .

تمثلاً ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لملائكة ، وسوف ترون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهن وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونك بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً .
اندفعوا باسم الله «^(١)» .

وبعث أسامة ، كان فهماً رائعاً من الصديق ، لأحوال السياسة الحبيطة به ، وكان طاعة لأمر رسول الله . فشيع الجيش ماشياً على قدميه : « وما علىَّ أنْ أُغْبِرَ قَدْمِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! » . ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل . فعاد عمر بإذن من أسامة ، بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة في هذا الموقف ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ماأمرك به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا تقصرون في شيء من أمر رسول الله .

وادرك الناس في عصر أبي بكر صواب رأيه في انفاذ جيش أسامة ، فما مَّرَّ أسامة وجند الله معه ، بقبيلة تريد الارتداد ، إلا تخوفت وسكتت وقال قائلوها فيما بينهم : لو لم يكن المسلمين على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

وجيش يرسله أبو بكر إلى تخوم الروم ، تلك الدولة التي لها في النفوس رهبة وهول ، ثم يعود بالغنائم غير منقوص ، أرهب القبائل الهائلة في صحراء العرب . إن أبا بكر بهذا العمل ، دلل على قوة الدولة ، وأوهن عزيمة

(١) الكامل ، ج : ٢ ، ص : ٢٢٧ ، والطبرى : ج : ٢ ، ص : ٢٢٦ .

القبائل ، لقد فعل هذا الجيش بسمعته ، مالم يفعله بعدهه وعدته ، فأحجم من المرتدين من أقدم ، وتفرق من اجتمع .

وفهمه الرائع للميزان ، كان في حروب الراة أيضاً ، عندما قال : « والله لآقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً - الأنثى من أولاد المعز - لقاتلتهم على منعها » .

فحق المال فرض كالصلة ، فما وردت كلمة : « أقيوا الصلاة » إلا ورد بعدها : « وآتوا الزكاة » . وقال عز وجل : « وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ... » .

حق الفقير ليس تكرماً واحساناً لمن يشاء من الأغنياء ، ليس منه وتفضلاً لمن يرغب ... لا ، إنه : « حق معلوم » ، قام الصديق يطالب به ، ليعيده إلى نصابه وطريقه المرسوم .

وأبو بكر الصديق ، المؤمن الخاشع ، القائم الليل ، الذي وصفته عائشة رضي الله عنها بقولها إنه كان : « غزير الدمعة وقيد الجوانح - أي محزون القلب - شجي النشيج » .. هذا ... غزير الدمعة ... مامنעה خشوعه من بناء قواعد مجد الدولة ، خشوعه جانب من الآيان ، وجانب آخر ، تراه يوصي قواده بالحيطة ، وينبههم في كفاحهم لعدوهم .

قال ليزيد بن أبي سفيان عندما سيره في فتوح الشام : « .. وإذا قدم عليك رسول عدوك فأكرمه ، وأقلل لبئهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريّنهم ، فيروا خللك ويعلموا عملك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنعوا من قبلك من محادثهم ، وكن أنت المتبولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ... وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ،

وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل ، واجعل التوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار ... » .

وكان رضي الله عنه يفهم القرآن استعداداً ، دون تواكل مطلقاً . الإسلام دين القوة والعزّة والعقل والأخذ بالأسباب ، لقد وقف يوماً يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام ، فلم تعجبه عذّتهم ، وسأل من حوله : ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدة جموع بنى الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب إلى أهل اليمن يستكمل العدة ، ويستنهضهم إلى الجهاد ليحفوا إليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح .

وهذه لامة لوجه من يدعى أن الإسلام تواكل وكسل واهمال للأسباب ، كلام يفترى المفترون ، فما سير جنداً إلا بعد استكمال الأسباب ، واتمام العدة والعدد بما يناسب كل جهة ، وهذا الفهم العلمي السليم : من أين تعلمه أبو بكر ؟ ، من أي أكاديمية حربية اقتبسه ؟ إنه خريج مدرسة استاذها محمد بن عبد الله ، ودستورها ومنهجها كتاب الله وسنة رسوله .

هذا ...

وكان رضي الله عنه أميناً على بيت مال المسلمين ، فسلمه لمن سماه النبي « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وولى القضاء رجلاً لم يشهر أحد بالعدل اشتهره وهو : عمر بن الخطاب ، وولى الكتابة ، كاتب النبي عليه الصلاة والسلام : زيد بن ثابت ...

وما أخذ من بيت المال إلا حاجته « على الرغم من أنه ما فكر براتب

منه ، فقد أخذ قاشه على كتفه ليفتح دكانه ، فرفض الصحابة ذلك ، وطالبوه بالترغُّب لأمور الأمة ، فأخذ حاجته وكفافه من بيت المال فقط ، وما روي عن عفتة وزهده أن امرأته اشتهرت حلواً ، واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ماتشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدرهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لشن الحلوى . وهذا فهم سليم للميزان ، فأموال الأمة أمانة في عَنْقِهِ » .

وما غرته - رضي الله عنه - الخلافة ، وما غيرت من أعماله في خدمة الأمة : كان يقيم بالسنج على مقربة من المدينة ، فتعود أن يحلب للضعفاء أغناهم كرماً منه ، ورفقاً لهم ، فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار ، فسمعاها فقال : بل عمرى لأحلبها لكم ... فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها : يا جارية ! أتحبين أن أرغني لك أو أصرح^(١) ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح ، فأي ذلك قاله فعل .

وأيامه دفعه إلى الاهتمام بال المسلمين ، عند مرضه الأخير ، فترك الأمر إلى المسلمين يختارون من يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي ، وقال لهم فيما قال : « قد أطلق الله أيديكم من بيوعي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدى » .

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا إليه يقولون : « إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » . فاستهلهم حتى « ينظر الله ولدينه ولعباده » .

(١) رَغْوَةُ الْبَنِ وَرَغْوَتَهُ وَرِغْوَتَهُ وَرِغَاؤَهُ وَرِغَائِيَّتَهُ أَيْ زِيدَهُ ، لسان العرب ، ج : ١٤ ، ص : ٣٢٩ ، والصريح : المحس الحالص من كل شيء ، والصريح : البن إذا ذهبت رغوثه ، وبين صريح : ساكن الرغوة الحالص ، لسان العرب ، ج : ٢ ، ص : ٥٠٩ .

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وأسید بن الحضير .

وسأل علياً فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته - مع أنه كان والياً معاك - نحظى برأيه ونأخذ منه ، فامض لما تريده ، ودع مخاطبة الرجل ، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير ». .

وأمل أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان ، فكتبه وختمه وخرج به مختوماً ونادى في الناس : أتباعيون من في هذا الكتاب ؟ ... وقيل إن أبو بكر أشرف من كوتته فقال : يا أهلا الناس ! إني قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله ، وقام علياً فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر . ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمين .

□ قال الإمام علي كرم الله وجهه في تأبين أبي بكر : « .. كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطعم ، ولا لأحد عندك هواة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعده ... ». .

وفي هذا الثناء غاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه .



رحم الله أبو بكر ، فقد فهم عناصر الشريعة وميزانها الدقيق ، وكان :
- أميناً في صدقته لرسول الله .

- أَمِينًا فِي خِلَاقَتِه لرَسُولِ اللَّهِ .
- أَمِينًا عَلَى أَرْوَاحِ جَنْدِ اللَّهِ .
- أَمِينًا عَلَى أَمْوَالِ عَبَادِ اللَّهِ .
- فَاهِمًا وَأَمِينًا لِكِتَابِ اللَّهِ .
- عَارِفًا أَمِينًا لِسُنْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ .

☆ ☆ ☆

عُمَرُ الْفَارُوقُ

هذه صور من حياة الفاروق في إمارته للمؤمنين ، وليس لنا حديث عن اسلامه ، وجوانب شخصيته ، وموقفه مع النبي عليه السلام ، أو مع أبي بكر ... فليس هذا موضوع بحثنا الآن ... ولكننا نقول مع العقاد عن هذا العبرى الذي قال عنه رسول الله : « لَمْ أَرْ عَبْرِيًّا يَفْرِي فَرِيًّه^(١) » :

- (اسم يقترب بدولة الإسلام ، ودولة الفرس . ودولة الروم ، وكل دولة لها نصيب في التاريخ ، فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة الحمدية ؟) .

١ - **لطفه في الدعوة** : تفقد رجلاً يعرفه ، فقيل له إنه يتبع الشراب ، فكتب إليه : أني أَحَمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذو الطول ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ . فلم يزل الرجل يرددتها ويبكي حتى صحت توبته ، وأحسن النزع وبلغت توبته

(١) فري المجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أنى بالعجب ، والمعنى أن عرب عبوري متفرد في عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .

عمر ، فقال لمن حضروا مجلسه : « هكذا فاصنعوا ... إذا رأيت أخاً لكم زلَّ زلة فسدهوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه » .

كما وجه انذاراً شديداً لأبي موسى الأشعري حين جلد شارباً ، وحلق شعره ، وسوَّد وجهه ، ونادي في الناس ألا يجالسوه ولا يؤكلوه . فأعطى الشاعي مائتي درهم ، وكتب إلى أبي موسى : لئن عَدْتَ لأسودن وجهك ، ولأطوفن بك في الناس . وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ، ومؤاكلته ، وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته إن تاب ...

إن الرحمة من صفات عمر في رعيته ، وازنت فيه حبه لإقامة الحدود والعدل في نفسه ، فكثيراً ما كان يدراً الحدود بالشبهات ، وكان من دأبه أن يترثى في اقامة الحدود .

٢ - الرعية سواسية : فقصة القبطي وابن عمرو بن العاص مشهورة ، يهمنا منها أنه أعلن حقوق الإنسان قبل اعلانها في العصر الحديث بآلف عام ، قال مخاطباً عَمِراً : « بِمَ تَعْبُدُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أَمْهَاتِهِمْ أَحْرَاراً » . ماقالها شعراً براقاً ، بل مانجا عمرو من يده إلا برضى من صاحب الشكوى ، واعتذار مقبول ، مِمَّنْ وَلَنْ ؟ ! من القبطي غير المسلم إلى فاتح مصر عمرو بن العاص ، كيف لا والناس ، والرعية كلها سواسية على اختلاف مذاهبهم !

وقصة جبلة بن الأبيهم الغساني - ملك آل جفنة - مشهورة أيضاً ، ويهمنا منها أن عمر أمير الفزارى أن يحطم أنف جبلة ، ولما سأله جبلة : يا أمير المؤمنين هو سوقة وأنا ملك ؟ قال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تقضله بشيء إلا بالتقى والعافية .

وعمر يرى الإمارة مسؤولية أمام الله عز وجل ، فهو يقول : « لومات جدي بطرف الفرات ، تخشيت أن يحاسب به الله عمر » .

لذلك تفقد رعيته ليلاً ونهاراً . أما حمل عدلاً من دقيق وكبّة دسم بمساعدة « أسلم » على ظهره ، فقال أسلم : أنا أحمله عنك ، قال عمر : أنت تحمل وزري يوم القيمة لأم لك ! وانطلق عمر يهرب إلى بيت الأطفال ، فأوقد النار ، وكانت حيته عظيمة ، فصار الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم ، وأفرغ لهم وبرّ الطعام ... ولم يزل حتى شبع الأطفال وأمهم يقول : جراك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين عمر !!

إنه الشعور بالمسؤولية النابع من الرحمة في نفس عمر .

رأى عمر شيخاً ضريباً يسأل على باب ، فلما علم أنه یهودي قال له : ما الجائ إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية وال الحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله . فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباءه فهو الله ما أنصفناه إن أكلنا شيئاً منه ، ثم نخذله عند المهرم ، فهذا من مساكين أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ، وخصص له عطاءً من بيت مال المسلمين .

وهذا يدحض فريدة أن الإسلام يفرق الأمة ، ويجعلها طائفية ... فكل مواطن في دولة الإسلام معروفة حقوقه وواجباته ، ولا فقير في دولة الإسلام ، حتى بين أتباع الديانات الأخرى .

وعمر بلا ريب أشد المسلمين تمسكاً باسلامه ، فلو كان من طبيعة الإسلام ظلم من لم يدخل فيه ، لكن عمر أشد المسلمين ظلماً لهم ، وقسوة عليهم ، لكنه في الواقع كان أشد المسلمين رعاية لعهدهم ، وعطافاً عليهم . بل مات وهو يوصي

من بعده بأهل الذمة . أما رفض أن يصلي داخل الكنيسة في بيت المقدس وقال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمين من بعدي وقالوا : هنا صلى عمر ! ..

لم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي سينتخب بعده بالذميين كافة «أن يوفي بهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم » .

«ودون هذا بالمراحل الشاسعة ، يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذت من حيطة حربية ، أو حماية قومية ، أو معااهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وأن عذرها لدون عذر عمر في خططه ، وأن أسبابها لدون أسبابه في الأقنان .

كان مسلماً شديداً في إسلامه ، فلم تكن شدته في إسلامه خطاً على الناس ، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهلياً فأسلم ، فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشأة في التاريخ الإنساني ، لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار^(١) .

وعمر الرحيم العادل ، نير الفكر ، حاضر البداهة ، فلا يجتمع إسلام حق ، مع غباء ومسكنة ، ولا مع تغابٍ وتسكن .

٣ - عمر وعزّة المسلم : لقد أحب عزة الرعية ، يكره مظاهر الضعف والمسكنة ، ويكره التوانى ليقال إن فلاناً متوكلاً على الله ، ويكره الضعف ليقال فلان زاهد ناسك ، منصرف إلى الله .

(١) عبرية عبر للمرحوم العقاد ، ط : دار الهلال ، ص : ٩٥ .

فكان يقول : « ان المتكى الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله ». .

وكان يضرب من يقاوت ويستكين ، ليظهر التخشع في الدين . نظر إلى رجل مقاوم ، قد حنى ظهره ولوى رقبته ، فخفقه بالدربة وقال : لاتُمْ علينا ديننا أماتك الله .

وكان كلما رأى شاباً منكساً رأسه ، صاح به ، ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه ، فإنما أظهر للناس نفاقاً إلى نفاق .

وكان يعجبه الشاب المسلم : نظيف الثوب ، طيب الرائحة ويرى المسلمين بخير ما علّموا أبناءهم الرمي والعلوم والفروسيّة . مما أروع فهم الإسلام الصحيح ، المتمثل في شخص عمر رضي الله عنه .

قال عمرو بن العاص : « كان عمر والله أعلم من أن يخدع ، وأفضل من أن يخدع » ، ووصف نفسه رضي الله عنه : « لست بالخبيث ، ولكن الخبر لا يخدعني » . وهذا هو ذهاء المسلم المطلوب والمحمود ، إنه دهاء ليس فيه خبث ، أو سوء طوية .

٤ - حسابه لعماله : جمع عمر رضي الله عنه صلاح عماله على الأمصار في : « أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ». .

فكان يختار ولاته اختياراً ، منطلقًا من مبدأ صلاح الرجل للولاية ، لاصلاحه في ذاته . وكان لا يولي طالب الولاية . قال يوماً : دلوني على رجل استعمله على أمر قد أهني ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريده ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ،

وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم ، فولأه .

وأوصى عماله فقال : إياكم والمحجوب ، أي لاتغلقوا أبوابكم دون الرعية ، فلما بلغه أن سعداً بني داراً سُمِّيت القصر في الكوفة ، وأغلق الباب دونه ، أرسل إليه المقتش الإداري ، وعمد إلى القصر فأحرق بابه ، وكتب إلى سعد يقول : بلغني أنك بنيت قصراً اخزنته حسناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلأً بما يلي بيوت الأموال ، وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً ، يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك وخرجك من دارك إذا خرجت .

فما أغفل رضي الله عنه شكاية عن واٍ ، فكان سرعان ما يرسل محمد بن مسلمة « أمين سره » الذي يشق به ثقة لأحد لها لتقواه وورعه .

وصح عمر على القيام بجولة تفتيسية عامة ، فقال : لئن عشت ان شاء الله ، لأسير في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرعنها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا .

وطبق رضي الله عنه على ولاته ، مبدأ : من أين لك هذا ؟ فكان إذا استعمل عاملًا أحصى ماله ، وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله ، منهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو هريرة .

٥ - عمر والقضاء : لقد وضع عمر أثناء امارته دستور القضاء مستمدًا من كتاب الله وسنة رسوله ، ليحقق العدل والأمان والطمأنينة في رعيته .

كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، وأنفذ إذا تبيّن لك ، فإنه لا ينفع حق لإنفاذ له . »

آسِ - أي سُوَّ - بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً .

ولا ينفك قضاة قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق^(١) ، فان الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التادي في الباطل .

الفهم الفهم فيها تجلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرف الأشباء والأمثال ، ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبهما إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى .

واجعل من ادعى حقاً غائباً ، أو بينة ، أمداً ينتهي اليه . فان أحضر بيته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضاء ، فان ذلك أدنى للشك ، وأجل للعمى ، وأبلغ في العذر .

(١) ويعني في دعوى أخرى مثلها ، أما التي صدر فيها الحكم وصار حقاً مكتسباً لصاحبها فلا يبدل الحكم فيها ، وذلك معنى قول عمر لما سئل عن اختلاف حكيم له في دعويين متشابهتين : « تلك كا قضينا ، وهذه كا تقضي » .

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشبهات .

وإياك والقلق والضجر والتآذى بالناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفر الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزرين للناس فيما يعلم الله خلافه منه شأنه الله ، وتهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام » .

وهكذا جمع رضي الله عنه في هذه الرسالة الرائعة : آداب القاضي ، وأصول المحاكمة ، ولو لم يكن لعمر آثار غيرها ، لعد بها من كبار المفكرين والمُشرعين .

٦ - معاملته لكتاب الصحابة : كما عمر أصحاب النبي ﷺ ، فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما ، فبعث إلى الين فأقى لها بكسوة تصلح لها ، وقال حين رأها : الآن طابت نفسي ! .

وسافر إلى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة ، وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متحرجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله : استفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم إلى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إلي ؟ قال عمر : أنا أحق باتيائك^(١) .

وكان يستفتني ابن عباس في الدين والأدب ، ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً في

(١) لما ولي صعد المنبر فقال : ما كان الله ليهافي أني أرى نفسي أهلاً مجلس أبي بكر ، فنزل مرقة - أي درجة - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرؤوا القرآن تعرفوا به ، واعلوا به تكونوا من أهله ... إلى آخر خطبته .

الحاديـث إـلا قال له مـعجـبا مـتبـسطـا : غـصـنـ غـواـصـ ! .. وـقـلـماـ سـئـلـ فيـ أـمـرـ وـابـنـ عـبـاسـ حـاضـرـ إـلاـ قـالـ يـشـيرـ إـلـيـهـ : عـلـيـكـ بـالـخـبـيرـ بـهـاـ .

لـمـ يـحـجـمـ عنـ تـوـلـيـتـهـ الـوـلـاـيـاتـ إـلاـ كـاـ أـحـجـمـ عنـ تـوـلـيـةـ الـجـلـةـ مـنـ الصـاحـابـةـ ،
وـرـؤـوسـ قـرـيـشـ الـدـيـنـ اـبـقـاهـ عـنـهـ لـمـشـورـةـ ، وـصـانـهـ عـنـ مـحـاسـبـتـهـ وـعـتـابـهـ .

وـتـجـلـيـ تـكـرـيمـ عـمـرـ لـصـاحـابـةـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ بـالـعـطـاءـ حـيـثـ قـالـ : « لاـجـعـلـ
مـنـ قـاتـلـ رـسـوـلـ اللـهـ كـمـ قـاتـلـ مـعـهـ ، فـكـانـ يـقـدـمـ الـأـقـرـبـ فـالـأـقـرـبـ مـنـ
رـسـوـلـ اللـهـ ، فـإـذـاـ اـسـتـوـاـ فـيـ الـقـرـابـةـ ، قـدـمـ أـهـلـ السـابـقـةـ ، حـتـىـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ
الـأـنـصـارـ ، فـقـالـواـ : بـنـ نـبـأـ ؟ قـالـ : اـبـدـؤـواـ بـرـهـطـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ ، ثـمـ الـأـقـرـبـ
فـالـأـقـرـبـ إـلـيـهـ » .

فـلـوـجـهـاءـ الـقـوـمـ اـكـرـامـهـ ، اـنـهـ أـهـلـ الـمـشـورـةـ وـالـنـصـحـ .

٧ - عـمـرـ يـفـتـحـ الـجـبـهـاتـ : عـمـرـ هـوـ الـذـيـ سـيـ الـبـعـوثـ إـلـىـ الـعـرـاقـ ، وـمـصـرـ ،
وـالـبـزـيـرـةـ ... إـنـهـ هـوـ الـذـيـ أـعـدـ لـلـقـادـسـيـةـ : قـائـدـهـ ، وـمـكـانـهـ ، وـخـطـطـهـ ...

لـقـدـ اـخـتـارـ سـعـدـ لـلـقـادـسـيـةـ وـقـالـ لـهـ : « لـاـيـغـرـنـكـ مـنـ اللـهـ أـنـ قـيلـ : خـالـ
رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ ، وـصـاحـبـ رـسـوـلـ عـلـيـهـ ، فـاـنـ اللـهـ لـاـ يـحـوـيـ السـيـءـ بـالـسـيـءـ ،
وـلـكـنـهـ يـحـوـيـ السـيـءـ بـالـحـسـنـ . وـلـيـسـ بـيـنـ اللـهـ وـبـيـنـ أـحـدـ نـسـبـ إـلـاـ طـاعـتـهـ ،
فـالـنـاسـ شـرـيفـهـمـ وـوـضـيـعـهـمـ فـيـ ذـاتـ اللـهـ سـوـاءـ ، اللـهـ رـبـهـمـ وـهـمـ عـبـادـهـ ، يـتـفـاضـلـونـ
بـالـعـافـيـةـ ، وـيـدـرـكـونـ مـاـ عـنـهـ بـالـطـاعـةـ ، فـاـنـظـرـ الـأـمـرـ الـذـيـ رـأـيـتـ رـسـوـلـ اللـهـ
عـلـيـهـ يـلـزـمـهـ فـالـزـمـهـ » .

وـبـقـيـ عـمـرـ عـلـىـ صـلـةـ دـائـةـ مـعـ سـعـدـ ، وـكـانـ يـنـظـرـ إـلـىـ الـمـعرـكـةـ بـعـيـنـ بـصـيرـ ،
كـتـبـ لـسـعـدـ : « اـكـتـبـ إـلـيـ أـيـنـ بـلـفـكـ جـمـعـهـ ، وـمـنـ رـأـسـهـ الـذـيـ يـلـيـ
مـصـادـمـتـكـ ، فـاـنـهـ قـدـ مـنـعـيـ مـاـ أـرـدـتـ الـكـتـابـةـ بـهـ قـلـةـ عـلـيـ بـاـ هـجـمـتـ

عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوك ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجليلة » .
فوصف سعد برسالة مفصلة طبيعة أرض المعركة^(١) .

ويؤكد عمر على العقيدة في كل نجاح ، فقد كتب إلى عمرو بن العاص وقد استبطأه في فتح مصر : «عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحذتم وأحربتم من الدنيا ما أحب عدوك ، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم » .

رحم الله عمر ... لقد اختار القواد بنفسه ، وكان له في اختيارهم حاسة عجيبة ، يعرف بها حقائق الرجال واقدارهم ، وكفاءاتهم ومعادنهم . وأوصاهم بوصية الخبر بما يصلح به القائد والجندي ، وأدار المعارك كقائد عام أعلى ، يرسم ويخطط لها ، يبعث بأوامره وتعليماته يبصرة نفاذة ، كأنه يشهد بيصرته حركاتهم وقتالهم ، ومع هذا كله كان يشاور المسلمين .

فعمر الذي قام بأعمال حطمت دولتين عظيمتين ، وفتح الجبهات ، وسیر الجيوش بحنكته وخبرة ودراءة ، هو نفسه عمر الذي يصلى الناس إماماً في المسجد ؛ بل عمر الذي كان في وجهه خطان من البكاء ، فعن هشام بن الحسن قال : كان عمر يير بالآية وهو يقرأ فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط ، ثم يلزم بيته حتى يعاد ، يحسبونه مريضاً .

وعن عبد الله بن شداد قال : سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح ، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ : « إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله » .

(١) أوردناها في سلسلة المارك الكبرى في تاريخ الإسلام الجزء الأول « القادسية » ، ص ٣٦ .

رضي الله عنه ، لقد :

ما أروع الشجعان في المحراب جمع الشجاعة والخشوع لديه

٨ - هذا ... ورائعة فهم عمر لأهداف ومرامي الشريعة ظهرت في تنفيذه مبدأ تغيير الأحكام ، بتغيير الأزمان ، وقد أفردنا له بحثاً مستقلاً ، سرى فيه اجتهاده ، ونفذ بصيرته وفكرة في ذلك ، وعمر في ذلك باق مع الشريعة لم يفارقها لحظة من حياته في إمارته ، فهو الذي أوصى : « إذا جاءك أمر في كتاب الله فاقض به ، ولا يلتفتوك عنه الرجال ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبل ، فاختر أي الأمرين شئت : إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تؤخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيراً لك ». .

وضرب لقضاته وولاته أصلح الأمثلة باجتهاده كما سرى في : مبدأ تغيير الأحكام بتغيير الأزمان .

☆ ☆ ☆

هذه جوانب من فهم أمير المؤمنين عمر لميزان الشريعة ، وهي قليل من كثير كثير ، وغيب من فيض لكنها تشكل صورة في الذهن : عن أمير فهم وحفظ ورعاى عناصر الميزان : بينه وبين ربه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين رعيته .

قال العقاد :

« تشهد العيون كاً تشهد القلوب ، إنه لمن معدن العظمة ، معدن العبرية

والامتياز بين بني الإنسان ، وللمحدثين علامات في العبرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة ، كا تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال » .

واختتم الحديث عن عمر بحديث قاله الفضل بن عميرة ، يلخص فلسفة عمر ونظريته بالإمارة على المسلمين : « قدم الأحنف بن قيس على عمر في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتاج بعاءة يدهن بعيداً من إبل الصدقة ، فقال عمر : يا أحنف ضع ثيابك ، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرمدة والمسكين ، فقال الأحنف : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ! فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ فقال عمر : يا أحنف ! وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف هذا ، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للMuslimين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة ، وأداء الأمانة مع المدارة » .

قال عليه السلام : « لو كان بعدي نبي لكن عمر بن الخطاب^(١) » ، وقال : « إن الله جعل الحق على قلب عمر ولسانه^(٢) » .

☆ ☆ ☆



(١) رواه الترمذى ، والامام أحمد .

(٢) مسند الامام أحمد ، جـ ٢ : ص ٩٥ .

□ عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر : « ان أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً علينا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عالم اللسان ، جاهل القلب والعمل » . رحم الله سيدنا عمر ... فقد كان يركز على القلب المشبع بالایمان ، وعلى رشحات ونتائج هذا الایمان !!؟ .

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ

□ أحسن خلفاء بنى أمية سيرة^(١)، وأنقاهم سريرة ، وأنزههم يداً وأعفهم لساناً ، فقد أصبح حكمه غرة في جبين العصر الأموي

انتقام سليمان بن عبد الملك بعد مشاورات حكيمه دقيقة ، للخلافة من بعده ، فكتب بذلك وصية سلمها لرجاء بن حيّوة ، فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء : أخشى أن يكون هذا أسد إلٰي شيئاً من هذا الأمر ، فأشندك الله وحرّمتني ومودي إلا أعلمني ، ان كان ذلك ، حتى أستعفيفه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة .

قال رجاء مجبياً : لا والله ما أنا بُخْبرك حرفًا . فذهب عمر غضبان ، لأنّه يرى أن الخلافة مسؤولية أمّام الله ، فهو لا يطلبها ، ولن يسعى إليها بارادته .

ولما فتحت رسالة سليمان بعد وفاته ، بايع الناس عمر بن عبد العزيز ،

(١) حكم رضي الله عنه من عام : ٩٩ - ١٠١ هـ . وهو من نسل طيب طاهر مؤمن ، سمع عمر بن الخطاب فتاة ترد على أمّها التي أمرتها أن تزوج الخليّب ما هي تقول : يا أمّاه ! إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم ، والله ما كنت لأطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلاء . فلما سمع عمر ذلك زوجها لابنه عاصم . فولدت له مهدا وبنتا هي أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، فأتت بعمر بن عبد العزيز . فكان بنو أمية يقولون عن أحوالهم في زمانه : أنت فعلتم هذا بأنفسكم ، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده ، طبعاً من حيث رعاية الأموال العامة والحكم بما أنزل الله .

□ وللتوضّع في حياة هذا الخليفة الراشدي الخامس يراجع : الكامل : ج ٢ ، ص ١٥٢ - ١٦٥ ، الطبرى : ج ٢ ، ص ٥٥٠ - ٥٧٢ ، تاريخ الاسلام : ج ١ ، ص ٢٢٥ - ٢٢١ ، ابن الجوزي : ص ٧٢ ، الرياض النضرة : ج ٢ ، ص ١٢ . نهاية الادب : ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ . وال سعودي : مروج الذهب : ج ٢ ، ص ١٦٨ .

وكان له مفاجأة ذهل لها . ولما رجع من جنازة سليمان رأه مولاه مزاحم مفتا
فـسـالـهـ السـبـبـ ، فـقـالـ : لـيـسـ أـحـدـ مـنـ أـمـةـ مـحـمـدـ فـيـ شـرـقـ الـأـرـضـ وـلـاـ مـغـرـبـهـ إـلـاـ
وـأـنـاـ أـرـيدـ أـنـ أـؤـديـ إـلـيـهـ حـقـهـ مـنـ غـيرـ طـلـبـ مـنـهـ .

ثم صعد المنبر ليعلن سياساته وبيانه في سياسة الدولة والناس ، وما قاله :

«أيها الناس ! من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا

يقربنا :

١ - يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها .

٢ - ويعيننا على الخير جهده .

٣ - ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه .

٤ - ولا يغتابن أحداً .

٥ - ولا يعترض فيما لا يعنيه » .

فانقض الشعرا والخطباء ، وثبت عنده الفقهاء والعلماء ، علمًا أن العلماء
كانوا تلامذة أمام عمر بن العزيز .

وقال : « يا أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد
عليه الصلاة والسلام ، ألا وإنني لست بقاض ، ولكني منفذ ، ولست مبتدع ،
ولكنني متبع ، ولست بخير من أحدكم ، ولكني أثقلكم حملا ، وإن الرجل الها رب
من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لخلوق في معصية الخالق » .

وبذلك ... كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أشبه مجده عمر بن
الخطاب في زهده وتقشفه ، مع أنه ملك الدنيا ، ويشبهه بإيمانه بالله ، وسنة
رسول الله .

□ ولما أراد الذهاب إلى داره ، أتاه موكب الخلافة ، وفيه لكل دابة سائس ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : مراكب الخلافة ، قال : دابتي أوفقي لي ، وركب دابته ، وصرفت تلك الدواب . ولما أتاه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها ، أمر بها فبيعت وجعل أثمانها في بيت المال ، وقال : تكفيني بغلتي .

وبلغ عبد العزيز بن الوليد - وكان غائباً - موت سليمان ، ولم يعلم ببيعة عمر ، فعقد لواء ودعا إلى نفسه ، فبلغه بيعة عمر بعهد سليمان ، فأقبل حتى دخل عليه فقال له عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك بايعد من قبلك وأردت دخول دمشق ؟ ! فقال : قد كان ذاك ، وذلك أنه بلغني أن سليمان لم يكن عهد لأحد ! فخفت على الأموال أن تذهب ، فقال عمر : لو بايعد وقمت بالأمر ، لم أنازعك فيه ولقعدت في بيتي ، فقال عبد العزيز بن الوليد : ما أحب انهولي هذا الأمر غيرك وبايده .

فلما استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته ، فاطمة بنت عبد الملك : إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر ، إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم وإني لا أجمع أنا وأنت وهو في بيت واحد ، فردهما جميعه . فلما توفي عمر وولي أخوها يزيد ردة عليها وقال : أنا أعلم أن عمر ظلمك ، قالت : كلا والله ، وامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت أطيعه حياً وأعصيه ميتاً .

رحمه الله ، لقد كان ورعاً في أموال الأمة ، ليس في أموال زوجته وحليها ، بل حتى في زيت سراجه ، فسراج زيته من أموال المؤمنين لرعاياه مصالحهم ، وسراج آخر يوقد عند بحث أموره الخاصة !!

اصلاحاته :

١ - وضع الجزية عن أسلم ، برسالة أرسلها إلى عامله الجراح بن عبد الله ، قال له : « فضع الجزية عن أسلم ، فإن الله إنما بعث محمداً عليه السلام هادياً ولم يبعثه جائياً » .

٢ - أمر الجيش المسلم أن ينسحب من سرقدن ، وما كاد الجيش ينسحب ، حتى دخلت المنطة كلها بالإسلام لعدل الإسلام المتمثل بعمراً بن عبد العزيز رضي الله عنه .

٣ - أخذ الخوارج باللين واللطف وقارعهم بالحججة ، فأرسل إلى شذوذ رئيسهم كتاباً يقول فيه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ونبيه ، ولست أولى بذلك مني ، فهم أنظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس فيه ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا » . فكتب شذوذ إلى عمر : لقد أنصفت . وقد أثترت سياسة عمر ، فقد نصب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيره منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمظلومين .

وهذا يدل ... إن طبق الإسلام كما هو ، إسلاماً كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، ترضى جميع الطوائف والفتايات والمذاهب إن كانت تريد الله ورسوله !

٤ - وأمر بترك سب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وكتب إلى العمال في الأفاق بذلك وذكر لهم قراءة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » الآية . بدل سب أمير المؤمنين علي ، فكسب بذلك العلوين ، لذلك تميز حكمه ، برضى الجميع ، وقبوله من الجميع ، وبمحبة الجميع .

٥ - ترك حياة الترف في قصور بني أمية ، فكان يطين داره بيده ، وكانت نفقة كل يوم درهمين فقط . ولما قال مسلمة لأخته فاطمة بنت عبد الملك : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ، قالت : نفعل ! ثم عاد وقيصه عليه لم يغسل فقال : ألم أمركم أن تغسلوا قميصه ، فقالت فاطمة : والله ما له غيره ! وكان ذلك في مرضه الأخير .

اشترى ثوباً بثانية دراهم ، فوضع يده عليه وقال : ما ألينه ، فقال له مولاه : اشتريت لك ثوباً بثمانمائة درهم قبل إمارتك فقلت : ما أخشنها ، وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم ، فعجبت من ذلك ، فقال عمر بن عبد العزيز : ما أحسب رجلاً يتبع كساء بثمانمائة درهم يخاف الله عز وجل .

٦ - كارعى جانب الله في أموال الأمة ، وفي رعاية الأمة ، وجعل مولاه مزاهاً رقيباً عليه ، قال له يوماً : إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي ، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها ، أو فعلًا لا تحبه ، فعظني عنده ، واتهني عنه .

ودخل ليلة مع مولاه إلى المسجد ، فر في الظلة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع الرجل رأسه إليه وقال : أحنون أنت ؟ فقال عمر : لا . فهم مولاه بضرب الرجل ، فقال عمر : صه ! إنما يسألني : أحنون أنت ؟ فقلت : لا .

فما أجمل الحلم على الرعية ، واللطف بهم ومحبتهم .

ولا بد من ذكر نبذة عن تقواه ، ويكن لمن ذلك من خطبته التالية : «أيها الناس ، إنكم لم تخلعوا عيشاً ، ولن تركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله

التي وسعت كل شيء ، وحرّم الجنة التي عرضها السموات والأرض . ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافذاً بياق ، وقليلًا بكثير ، وخوفاً بأمان . ألا ترون أنكم أسلاب الـهـالـكـين ، وسيخلفها بعدكم الـبـاقـون ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ! وفي كل يوم تشيعون غاديًّا ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانتقضى أجله ، فتغييبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا مهد ، قد فارق الأحبة ، وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه المحساب ، فهو مرتهن بعمله ، فقير إلى ما قدم ، غني عما ترك . فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافقه . وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله وأتوب إليه . وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا وددت أنه سداي ولمتي ، حتى يكون عيشنا وعيشه سوء ، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من الفضارة والعيش ، لكن اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، يدل فيها على طاعته ، وينهي عن معصيته .

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شرق وأبكى الناس حوله .

□ وما يذكر أن الناس كانوا في زمن الحاج يتساءلون إذا تلاقوا : من قتل البارحة ، ومن جلد ، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع ومصانع ، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن الـبـنـيـانـ والمـصـانـعـ وـشـقـ الـأـهـارـ ، وـغـرسـ الـأـشـجـارـ ، ولـاـ وـلـيـ سـلـيـانـ بنـ عـبـدـ الـمـلـكـ أـكـثـرـ النـاسـ مـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـقـيـانـ وـالـسـرـارـيـ مثلـهـ ، وـعـمـرـواـ مـجـالـسـهـمـ بـذـكـرـهـنـ ، وـلـماـ اـرـتـقـىـ عـمـرـ بنـ عـبـدـ العـزـيزـ الخـلـافـةـ : كـانـ النـاسـ يـتـسـاءـلـوـنـ : كـمـ حـفـظـتـ مـنـ الـقـرـآنـ ؟ وـكـمـ وـرـدـكـ كـلـ لـيـلـةـ ؟ وـكـمـ يـحـفـظـ فـلـانـ ؟ وـكـمـ يـصـومـ بـالـشـهـرـ ؟ وـهـكـذـاـ ... كـانـ النـاسـ عـلـىـ دـيـنـ مـلـوـكـهـمـ !

٧ - لقد وصلت رعاية عمر بن عبد العزيز ورحمته الحيوان أيضاً ، فحدد حولة الدابة ، وأمر بعدم إرهاق الحيوان بحملات فوق طاقته ، وأمر واليه عبد الرحمن بن نعيم في وصية طويلة منها : « ولا تجر الشاة إلى مذبحها ، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة » .

وكتب إلى سليمان بن أبي السري : « أن اعمل خانات في بلادك ، فلن مر بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلةً ، وتعهدوا دوابهم ، فلن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلدك » .

وهكذا شملت عدالته ورعايته الاجتماعية ورحمته الإنسان والحيوان !

٨ - ولا يعني ذلك أنه كان ضعيفاً مسكيناً ، نهاره وليله : صيام وقيام . والعدو يصول ويحول على حدود دولته ! .. لا ، ما فهم رضي الله عنه أن الزهد ترك أسباب الدنيا ، ولكنه فهم الزهد في الإسلام أنه عدم تعلق القلب بما في اليد ، وفهم من الزهد أن يكون مالكاً للدنيا غير ملوك لها مجال .

مدح جرير عمر بن عبد العزيز فقال :

تركت للناس دنياهم ودينهم وانت بالدين عن دنياك مشغول

قال عمر : لم تزد عليَّ أن جعلتني عجوزاً في عقر بيتها ، هلا قلت :

فلا هو في الدنيا مضيق نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله !

□ هذا الرجل الذي فهم عناصر الميزان فيها صحيحاً سليماً ، فلما أغاث الترك في الشرق على أذربيجان ، فقتلوا من المسلمين جماعة ، وجَّه عمر إليهم حاتم بن النعمان الباهلي ، فقتل أولئك الترك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير .

□ هذا الرجل هو الذي اختار السمح بن مالك الخولاني لما فيه من أمانة وديانة ، عاماً على الأندلس ، وكان السمح قائداً بأسلاً حكماً ، فرقة الفتوق ، ووازن الدخل والخرج ، وأنصف الجندي في الأعطيات . وبعد إصلاح الداخل ، أعمل همه في الجهاد ليجدد المسلمين عزائمهم ، ففتح مدينة أربونة ، وحاصر تلوز المدينة الفرنسية المعروفة ، واستشهد على أسوارها ...

ولم يغفل عمر عن تزويد جنده بالنصائح : « إن قوام الإسلام الإيمان بالله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة ، فإنه من يضيّع الصلاة فهو لما سواه من شرائع الإسلام أشد تضييعاً ومُرّأه العلم والفقه من جنده ، فلينشروا ما عالمهم الله من ذلك ، واحترس لنفسك ولجيشك من العاصي احتراسك من العدو ، وارفق بن معك في سفرهم حتى لا تنقص قوتهم أمام عدو مقيم ، بأن تقيم بن معك ليلة في كل جمعة راحة لهم ولدوا بهم ، وإصلاحاً لأمتعتهم وأسلحتهم ، ونحو منزلتك عن قرى أهل الصلح ولا يدخلها أحد من أصحابك إلا من ثق بدينه ، فلا تستنصر على أهل أرض الحرب بظلم أهل أرض الصلح » .

☆ ☆ ☆

هذه جوانب من حياة عمر بن عبد العزيز ، ولا أدعى أنها جميع الجوانب المضيئة في حياته ، إنما هي نماذج من سيرته وإصلاحاته ، التي أوصلت المجتمع إلى الأمان والطمأنينة ، حتى صار ينادي في عهده : هل من فقير لئودي الدولة دينه ، هل من أعزب فنزووجه ؟ ! لقد أثبت عمر في فترة خلافته

أنه إذا طبقت عناصر الميزان بفهمها السليم ، رضي الجميع ، وانتهت الخلافات ،
وتوحدت الكلمة : سُنَّةٌ وشيعةٌ وخوارج ... لقد ملأ الأرض عدلاً ، فهذا
الجميع ، لذلك ما حدثت أية فتنة في عهده .. وهذا يوضح دون شك ، أن
الفتن التي قامت ، والثورات التي حدثت ، كانت بسبب الانحراف عن دعوة
عنابر الميزان !

☆ ☆ ☆

وأخيراً ... ذلك هو الرجل الرائعة سيرته ، العطرة مناقبه ، السليمية
طويته .

□ مات لعمر بن عبد العزيز ابنَ ، فجاءته تعزية من أحد عماله ، فقال
عمر لكاتبِه : أجبه عنِّي ، فأخذ الكاتب يibri القلم ، فقال عمر لكاتبِه : أدق
القلم ، فإنه أبقى للقرطاس ، وأوجز للحروف ، واكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم
، أما بعد ، فإن هذا الأمر أمر قد كنا وطننا أنفسنا عليه ، فلما نزل لم
ننكره ، والسلام » .

رحم الله عمر ... فقد كانت سيرته التي تغنى بها الناس على مر الزمن ،
نابعة من إيمانه العميق بالله ، ومن فهمه السليم لشريعة الله بعناصرها :
الكتاب ، والسنّة ، والإجماع !

☆ ☆ ☆



أبو جعفر المنصور

أعظم الخلفاء العباسيين^(١) شدة وبأساً ويقظة وحزمًا وصلاحاً واهتمامًا بصالح الرعية ، وجداً في بلاطه ، لقد استطاع بما أوتيه من حزم وعزّم أن ينتشل بلاده من عبث العابثين ، وخطر الخوارج ، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام .

وصفه الطبرى أنه كان ميلاً بطبيعته إلى النظام الذي هو أساس نجاح الأعمال ، فكان ينظر في صدر النهار في أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير .

فإذا صلى العصر ، جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثور ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك . فإذا مضى ثلث الليل انصرف ساره ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه فيتوضاً ، ويجلس في محابه ، حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه ويبداً عمله كعادته في كل يوم ..

كما اشتهر بالجد في بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث ، كما كره سفك الدماء بغير الحق

(١) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي ، ولد عام : ١٠١ هـ في الحميّة على مقربة من العقبة . حكم من : ١٣٦ - ٧٥٤ - ٧٧٥ م . أخذ عليه فقط ، ميله لتوطيد حكمه بسفك الدماء في أول عهده ، ولكنه عاد يحاسب ولاته بعد استباب حكمه على أي دم يسفك ، كما حدث مع عيسى بن موسى الذي قتل رجلاً من ولد نصر بن سيار والي مروان بن محمد الأموي ! ..

وعرف المنصور بالثبات عند الشدائـد ، ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح حين كانت تصادفه إحدى الصعوبات .

كما عرف بحرصه في النفقات ، وهذا ليس عيباً به إذا فهم على حقيقته . قال المسعودي : وكان من الحزم وصواب الرأي ، وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً ، وينع الحمير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وقال المنصور يوماً : لو عندي ألف بعير ، وعندي بعير أجرب ، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره .

وقد وصفه صاحب الفخرى في هذه العبارة حيث قال : كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوي الآراء الصائبة منهم ، والتدييرات السديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة ، من أشد الناس احتالاً لما يكون من عبث أو مزاح ، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ، تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه ... وقالوا : كان المنصور يلبـس الخشن ، وربما رقع قيسـه .

وقد عرف المنصور بسهره على راحة رعيته ، وذلك بتقصي أخبار عمالـه .

ولـي رجلاً من العرب على حضـرموت ، فكتبـ إلـيـهـ والـيـ البرـيدـ : أـنـهـ يـكـثـرـ الـخـرـوجـ فـيـ طـلـبـ الصـيدـ بـبـيـزـاـ وـكـلـابـ قـدـ أـعـدـهـاـ ، فـعـزـلـهـ وـكـتـبـ إـلـيـهـ : ثـكـلـتكـ أـمـكـ وـعـدـمـتـكـ عـشـيرـتـكـ ، مـاـ هـذـهـ العـدـةـ التـيـ أـعـدـتـهـاـ لـلـنـكـاـيـةـ فـيـ الـوـحـشـ ؟ـ إـنـاـ إـنـماـ اـسـتـكـفـيـنـاـكـ أـمـورـ الـسـلـمـيـنـ ، وـلـمـ نـسـتـكـفـكـ أـمـورـ الـوـحـشـ ، سـلـمـ مـاـ كـنـتـ تـلـيـ منـ عـمـلـنـاـ إـلـىـ فـلـانـ بـنـ فـلـانـ وـالـحـقـ بـأـهـلـكـ مـلـوـمـاـ مـدـحـوـرـاـ^(١)ـ .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، للحضرمي ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، ط ٩ / ١٩٥٩ / المكتبة التجارية

الكبـرىـ بـصـرـ .

وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أgef منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح إلا بهم ، كأن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، وإن نقصت واحدة وهن ؛ أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع ... ثم عض على أصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول في كل مرة : آه ، آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب إلى بخبار هؤلاء على الصحة^(١) » .

على مثل هذا الفهم ، بنى المنصور دولته ، ويكتفيه أنه قد جعل القضاء عادلا وأنصف الضعيف ، وما جمع مالاً بظلم ... وراقب القاضي ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخراج ، بصاحب بريد يأتيه بأخبار هؤلاء على الصحة ، كما حدث مع والي حضرموت المعزول ! .



(١) المرجع السابق ، ص : ٨١ .

مَحْمُودُ بْنُ زَنْكِي

«العادل نور الدين» (١)

□ آمن بالإسلام إيماناً عميقاً ، فتمثلت فيه العقيدة الإسلامية تثلاً غريباً ، فقد أدرك من طبيعة الدين الحنيف ، وخصائصه ومزاياه ، ما لم يدركه الفقهاء والأصوليون ، فاستقرت في نفسه قواعد دين الفطرة ، فأدھش العلماء والفقھاء والقضاة ، ذوي العلم الغزير ، بفهمه السليم للشريعة ومقاصدها ومراميها .

إن إيمانه العميق ، كان محركه في حياته ، لهدف عظيم ، هو جمع كلمة المسلمين ليتمكن من إخراج الصليبيين من الشام . فسار لتحقيق هذا الهدف على هرج سليم متعدد ، فحقق بالإسلام ، ما عجز عنه غيره من كانت بلادهم وثرتهم تزيد أضعافاً على ما كان له .

لقد امتلاً قلبه بنور الإيمان ، وتمثل ذلك في أعماله ، على نحو لا يكاد المؤرخ يراه ، إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام . وهذا الإيمان ، حوله من أمير إلى مجاهد ، ومن رجل سياسة وحكم إلى زاهد في أموال الأمة .

ما كان إيمانه تعصباً وتشدداً ، بل كان سمحاً ، لذلك حارب الصليبيين

(١) محمود بن زنكي «نور الدين» أبو القاسم ، وللقـب بالملك العادل ، ولد في حلب عام ٥١١ هـ / ١١١٨ مـ . وتوفي في دمشق عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ مـ ، انتقلت إليه الإمارة بمحـدة بعد وفـة أبيه عام ٥٤١ هـ ، كان معـنـياً بـصالـح العـبـاد ، مـادـومـاً عـلـى الجـهـاد ، يـاـشرـ القـتـالـ بـنـفـسـهـ ، مـوـقـفـاـ فـي حـرـوبـهـ ، أـحـبـ الـعـلـمـ وـالتـفـقـهـ بـالـدـينـ . كان يـقـنـىـ بـأـنـ يـوـتـ شـيـيدـاـ ، فـاتـ بـعـلـةـ «ـالـخـوـانـيـقـ»ـ فـي قـلـعـةـ دـمـشـقـ . فـقـيلـ لـهـ الشـهـيدـ ، قـبـرهـ فـي المـدـرـسـةـ التـورـيـةـ بـدـمـشـقـ . (ـ رـاجـعـ الـأـعـلـامـ جـ ٨ـ ، صـ ٤٦ـ)ـ . وـ رـاجـعـ التـوـسـعـ فـي مـعـرـفـةـ حـيـاةـ هـذـاـ الـبـطـلـ الـسـلـمـ الـشـالـيـ :ـ «ـ نـورـ الدـينـ مـحـمـودـ»ـ لـدـكـتـورـ حـسـينـ مـؤـسـسـ ، وـ «ـ الـحـرـكـةـ الـصـلـيـبيـةـ»ـ لـدـكـتـورـ سـعـيدـ عـبـدـ الـفـتـاحـ عـاـشـورـ ، وـ «ـ الـكـامـلـ فـيـ التـارـيـخـ»ـ لـابـنـ الـأـثـيـرـ ، جـ ٩ـ .

لا لأنهم نصارى ، بل لأنهم أجانب عن بلاد المسلمين وقد اعتدوا على مقدسات المسلمين ، وانطلاقاً من هذا ، ما مس النصارى من أهل البلاد بسوء ، بل رأهم كاً أرادت الشريعة : مواطنين لهم حق الرعاية والذمة ، كاً فرض احترامه على أعدائه ، حتى اعتقد الصليبيون ، بأن سراً من أسرار الله عنده ، يستجيب دعاءه ، ويعطيه سؤله ، بهذا السر الإلهي ! .

ومما يذكر ، أن الشيخ عمر الملا ، شيخ جامع الموصل ، وهو مربي نور الدين ومرشدء ، كان يمضي رمضان المبارك بجواره ، فكان يتناول معه طعام الإفطار على مأدبة واحدة ، ليكون بعدها التزكية والتربية والتوجيه .



لتحات من حياة هذا البطل المسلم المثالى :

١ - كان زاهداً بكل ما ملك ، لم يكن له بيت يسكنه ، بل كان مقامه في غرفة قلعة البلد الذي يحل فيه ، ولم يكن له راتب يتقاضاه ، إنما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من ملکٍ له .

حکى رجل من المشتغلين بخدمته ، أن زوجته لم يكفيها ما كان قرره لها من النفقة ، فقال : « فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك ، تنكر واحد وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها ما لها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ! إن كانت تظن أن الذي ييدي من الأموال هو لي ، فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لصالحهم ... وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها » .

٢ - إنشاء المدارس : وهذا من الفهم السليم لشريعة القرآن ، فبالعلم تبني الأمم ، فبلغت المدارس والمساجد المئات في عصره ، وكان إذا أنشأ مدرسة ، أوسع النفقه في بنائها ، واجتهد في اختياره شيوخها ، وأوقف لها الأوقاف الواسعة .

٣ - العناية بالصحة العامة : كاً أنشأ رضي الله عنه المستشفيات ، حتى لم يخل بلد من بلاد المسلمين من مستشفى ، وقرر أن المستشفى العام للفقراء ، ومن لا تتمكنهم أسبابهم من الاستعانة بالأطباء ، أو الحصول على الدواء ، واستثنى من ذلك الدواء النادر ، أو الذي يحتاج تحضيره إلى عناية وضيق ، فقد أباح للأغنياء الحصول عليه من المستشفى ، وتلك لحة انسانية لا تقدر .

كما بني للفقراء قصراً في ربوة دمشق ، للاستجمام للأغنياء تماماً ، يكث ه الفقير لا ينفق شيئاً ، فطعامه ومقامه على نفقة الدولة ، ثم يكرم بمبلغ قوى به على نفقة عياله ويخرج ليأتي غيره من الفقراء ! .

٤ - الطرق والخانات : كاً عني بالطرق وبالخانات لينزل بها المسافرون ، قام فيها من يحرسها ، ويحرس أموال الناس ، فإذا كان الطريق مخوفاً أو فريباً من الأعداء ، أقام على مراحله الأبراج العالية المنيعة ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الراجل ، فإذا تهدد البرج خطر أو عدو ، أطلقت الطيور بالخبر ، فأخذ الناس حذرهن ، وأسرع الأمير إلى إرسال التجدات .

٥ - وكان ثور الدين جندياً حسن التكوين والتدريب ، فارساً يحسن الرمي بالقوس ، قضى أكثر من ربع قرن على صهوة جواده تحت ظلال السيوف ، حتى لقد تعب رجاله ، وقعد بالكثيرين منهم الإجهاد عن الخروج بالجيوش ، وأكلت السيوف معظم البقية ، أو أدركتهم الحتف ، وخلف هذا

الجيل من أتراك نور الدين جيل جديد من الشباب ، نشئوا وكبروا في رعايته ، واعتمد عليهم في جهاده .

٦ - يلاحظ المتلصّح لسيرة نور الدين ، أنه كان دائم التنقل بين بلاده بحركة متصلة ، وهذا التنقل خطة منه ، ليبقى على اتصال دائم مباشر بالبلاد وجندها وموظفيها وأهلها ، وإلى هنا التجوال الدائم يرجع الفضل في استقرار أمور بلاده وضبط أمورها الإدارية .

وكان إذا دخل البلد جلس للناس يسمع ظلاماتهم ، فخشى رجاله الخطأ أو التراخي ، وحرصوا على أن يكونوا عند حسن ظنه .

وكانت تلك سياساته مع قواه أيضاً ، فلا يدع لهم فرصة الراحة ، فما يعود الواحد منهم من بعث حتى يرسله في آخر ، ذلك أن خطته في تأمين بلاده ، كانت مبادأة الأعداء بالهجوم أبداً ، والإسراع إلى الجهة المهددة بمجرد أن يأتيه الخبر ، وكان جنوده دائماً على الأهبة ، فيخرج من ساعته بن حضره ، ثم يتلاحق القواد بجنودهم بعد ذلك .

رحم الله نور الدين رحمة واسعة ، فقد كانت الشريعة وحدتها أساس حكمه ، ومصدر قوته وفهمه ، ويشهد بذلك ما سبق من نقاط ، ويشهد أيضاً بذلك إلغاؤه الضرائب غير الشرعية ، وإقامة : « دار العدل » كمحكمة قضيها هو نفسه ، يحاكم بها قواه وعماله ، عند شكایة أي مواطن من تظلم ما ، فعف بذلك قواه وعماله .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ... بالنسبة لحياة هذا البطل المجاهد المسلم : أنه ما كان ينخدع
بإطراء خطيب ، أو مدح إنسان ، ومن دلائل حرصه على ألا يخدعه مادح ،
أنه وجد خطباء المساجد يبالغون في الدعاء له ، ويصفونه بهذه العبارات
الرنانة المسجوعة ، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيساري أن يوقف
ذلك ، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيطة ، ليس فيها إلا ما يطابق الواقع من
حاله وأفعاله ، فكتب له خالد صيغة هي : « اللهم أصلح عبدي الفقير إلى
رحمتك ، الخاضع لهبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء
دينك ، أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » .

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء ، ورفضه وقال : مقصودي ألا يكذب على
المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال . وأمر أن يكون الدعاء على الشكل التالي :
الله أره الحق حقاً ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه ... ومن هذا
القبيل .

ومع هذا التواضع ، كان مهيباً وقوراً ، شديداً في غير عنف ، رقيقاً في
غير ضعف .

رحم الله نور الدين فقد كان من حفظة القرآن من الضياع .

☆ ☆ ☆

وغيرهم كثير .. ونحن لم نهدف إلى التطويل في الحديث عن هذه الناذج
ولا السرد الممل لحياة أصحابها . ولو أردنا أن نضيف إلى هذه الناذج غيرها ،
لأضفنا جوانب عديدة من حياة :

عبدالملك بن مروان

الذي وصف أنه أخذ بأربع ، وتارك لأربع : أخذ بأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدث ، وبأيسر المؤونة إذا حولف ، وبأحسن البشر إذا لقي . وتارك لمحادثة اللئيم ، ومنازعة الجوج ، ومماراة السفيه ، ومصاحبة المأفون « ضعيف الرأي » .

كان في مجلسه رجل من خصوم الدولة الأموية ، فقال له الرجل : والله إن قلي لا يحبك أبداً . فقال له عبد الملك : إنما يبكي على الحب النساء ، فليكن ما بيبي وبينك العدل والإنصاف .

عرف عبد الملك^(١) بالشجاعة والنجدة ، والفصاحة والبلاغة ، وبجرمه على الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم . حفظ الكتاب الكريم ، وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة ، سعى من أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ .

قيل له : يا أمير المؤمنين ! عجل إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة ؟ ! وقال : شبني صعود المنابر والخوف من اللحن .

ولكنه أطلق يد الحجاج بن يوسف الثقفي في الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير وفي العراق لحرب الخوارج .. وتنبه فيما بعد لكثره سفك الدماء ، فكتب إلى الحجاج : « أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء ،

(١) حكم ما بين : ٦٥ - ٦٦ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٥ م .

وبذيرك في الأموال ، ولا يحتل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء والخطأ الدية ، وفي القَوْد « القصاص » ، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع الحق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغنام عنك ، وإن كنت أردهم لنفسك فما أغالك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدة ، فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا المعصية ، وظن بأمير المؤمنين كل شيء ، إلا احتالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً .

وهذا الكتاب ، كتاب رجل لا تأخذ له لومة لائم في الحق ، فصلحة شعبه واكتساب محبته هدفه .

☆ ☆ ☆

هارون الرشيد

يصوره المستشرقون صاحب جوار وأقيان ، وترف وبذخ ، وطرب وغنا ، فكانه بطل قصص ألف ليلة وليلة ، وتصوره مراجعنا العربية الأمير المثالي ، فأيتها نصدق : المستشرقون أم مراجعننا العربية الإسلامية ؟ المستشرقون ينطلقون من عداء صليبي ضد الرشيد ، فهو الذي كتب إلى تقفور : « من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » ، وكان بينها ما كان من انتصار الرشيد وخذلان تقفور . وتقفور هذا تعتبره أوروبة

مصلحةً دينياً ، فهم يشوهون حياة الرشيد انتقاماً لنقفور ، وحقداً على الرشيد . إذن ... مراجعتنا العربية المختلفة المتعددة هي مصادرنا في حياة الرشيد ، الأمير المسلم ، ليس غير^(١) .

قال ابن طباطبا : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقاراً وروقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء ، والفقهاء ، والقراء ، والقضاة ، والكتاب ... ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلاً راوية للأخبار والأثار والأشعار ، صحيح النزق والتبييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة .

كما وصفه ابن طباطبا في كتابه الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ١٧٥ : أنه من أفضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو كذلك سنة ، مدة خلافته إلا سنين قليلة . قالوا : وكان يصل كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ، ولم يحج خليفة مashiماً غيره .

وورد في تاريخ بغداد : قال أبو معاوية الضرير أحد علماء الرشيد : أكلت مع الرشيد يوماً ، فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبو معاوية ! أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا . يا أمير المؤمنين ، فقال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم ؟ قال : نعم .

(١) حكم بين عامي : ١٧٠ - ١٩٣ هـ ، أو : ٧٨٦ - ٨٠٩ م .

☆ - راجع المصادر التالية : الفخرى ، ص ١٧٧ - ١٧٨ . تاريخ بغداد : ج ١٤ ، ص ٥ وما بعدها ، تاريخ الخلفاء : ص ١٩٠ للسيوطى ، الكامل : ج ٥ ، ص ١١٨ وما بعدها .

وبلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمان .. لذلك كتب السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء : « أيام الرشيد كانت كلها أيام خير ، لأنها في حسنها أعراس » .

★ هذه جوانب من حياة أمير المؤمنين هارون الرشيد : المؤمن ، المجاهد ، محب العلم والعلماء ، الأديب ، محب الرعية .. وسير معنا في صحائف هذا الكتاب قصته مع العالم الجليل الفضيل بن عياض ، وهي خير شاهد على عمق إيمانه ، وتقديره للعلماء .

☆ ☆ ☆

المَأْمُونُ

من عقلاء الرجال^(١) ، جمع علوم الحكمة والطب والرياضيات ... وأمر بنقلها إلى العربية . تخلّي بكثير من الصفات التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين ، من ذلك ميله إلى العفو ، وكراحته للانتقام ، قال المأمون عن الفضل ابن الربيع الذي حرمه من السلاح والعتاد الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليه إليه بعد وفاته : أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب .

- وتحلى المأمون بكثير من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخين .

- وضع على مائدة المأمون في يوم عيد ، أكثر من ثلاثين لوناً ، فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته ، فقال يحيى بن أكثم : يا أمير

(١) حكم ما بين عامي : ١٩٨ - ٢١٨ هـ ، أو : ٨١٣ - ٨٣٣ م

المؤمنين ! إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم ،
فأنت هرمس في صناعته ، أو في الفقه ، فأنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه
في علمه ، أو في السخاء ، فأنت حاتم في كرمه ، أو في الحديث فأنت أبو ذرٌ في
صدق لهجته ، أو في الوفاء فأنت السبوعل بن عاديا في وفائه . فسر المأمون
بكلامه وقال : يا أبو محمد : إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولو لا ذلك
ل كانت الناس والبهائم سواء .

ولكن مما نعييه على المؤمن ، على الرغم من صفات الصلاح والخير التي تجمعت في شخصه ، محاربته لحرية الفكر ، عندما ألزم الناس بأفكار وفلسفة المعتزلة . فكان الأوجب له أن لا يشجع المعتزلة ، ولا يحارب الأفكار المعادية للمعتزلة ، ويدع الفكر في مجال الجدل والمناقشة والمناظرة ، ول يكن البقاء للأصلح والأجود .

المُعْتَصِم

وصف المعتصم بسديد الرأي^(١٠) ، والشجاعة ، والعطف وحسن التدبير ، حتى وصفه المسعودي في مروج الذهب : بحسن السيرة ، واستقامة الطريقة .

وكان شفيراً بالفقراء والضعفاء؛ رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص
حماره في الوحل، وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في
التدفئة، فأخرج الحمار من الطين، وحمل الشوك فوضعه عليه، ثم غسل يديه
في غدير، واستوى على دابته، ولحق به حرسه بخيولهم، بعد أن أمر بعض
خاصته أن يعطي هذا الشيخ أربعة آلاف درهم.

(١) حکم ما بین عامی : ٢١٨ - ٢٢١ھ ، او : ٨٣٣ - ٨٤٢

في زمن المعتصم ، تفاقم أمر بابك الخرمي ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ، وأعانه ملك أرمينية ، وامبراطور الدولة البيزنطية : « تيوفيل » ، وانتشرت جيوش بابك ، تدخل الرعب في نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران .

ومع الدعم الذي لاقاه بابك الخرمي من تيوفيل ، جهز تيوفيل جيشاً وهاجم فيه « حصن زبطرة » ليخفف من ضغط المعتصم على بابك^(١) حليفه . وقد أحرق تيوفيل المدينة ومثل بأهلها شر تيشيل ، وعاد إلى عاصمتها مسرعاً خوفاً من هجوم عربي معاكس . فلما بلغ المعتصم هذه الأنباء المثيرة - وكان قد أخذ ثورة بابك الخرمي وقضى عليها - هب من فوره ونادي بالنفير العام ، وسار في جيش هائل ، وهزم تيوفيل هزيمة شنعاء ، ثم هاجم أنقرة ودمراها ، واتجه إلى عمورية فحاصرها حتى سقطت في يده ، فخر بها وأحرقها ، خارأ^ا لحصن زبطرة ، ورداً على دعم تيوفيل لبابك ، وجواباً لتحرشاته على الحصون العربية والدولة في ساعات حرجية ليخفف الضغط عن بابك الخرمي .

وعلى المستشرق ميور : « The Caliphate, P.519 » على حكاية المعتصم مع الفقير الذي غاص حماره في الوحل ومساعدته له ، ومع فعل المعتصم في عمورية فقال بهزء : « ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة ، وتقدر ثروتها بـ الملايين ، ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداءه ، ليخلص شيئاً ضعيفاً وقع حماره في حفرة من الطين ، وأي هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ ». وتناسي ميور فعل تيوفيل في زبطرة والدولة العربية

(١) البابكية : وصفهم نظام الملك : « أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلوة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر ، ونادوا بآدابة المحرمات ، والاشتراكية في النساء ». وهذه مبادئ مزدك الفارسي .

الإسلامية في ساعات حرج ، وأن إحراق عمورية ، رد فعل طبيعي على عدو تطاول على حدود الدولة ! .

ولا يلام المعتصم ، إلا بحمل الناس على القول بخلق القرآن ، متبوعاً بذلك وصية المؤمن له ، فقد كتم وعطل حرية الفكر بسبب هذه الوصية ... وما دون ذلك قد يغفر له ، أمام قضائه على بابك الحرمي ، وإظهاره عزة الإسلام في حروبه مع تيوفيل .

☆ ☆ ☆

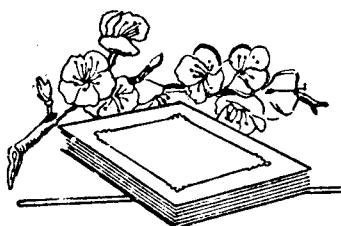
نكتفي بهذه الناذج ، دون أن ننسى : صلاح الدين الأيوبي ، قاهر الصليبيين ومحرر القدس ، والملك المظفر قطز ، قاهر التتار في عين جالوت ، وعبد الرحمن الثالث (الناصر) حيث بلغت قرطبة في عهده مبلغاً وصفت بأنها «جوهرة العالم» ، بما حوتة من تقدم في كل المجالات ، وبخاصة الثقافية منها . ويوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب العربي ، والمنتصر على الأفرنج في معركة «الزلقة» في الأندلس ، عام ٤٧٩هـ ، فمد بذلك بقاء العرب المسلمين في الأندلس أكثر من أربعة قرون ، كان شعاره على النقود التي ضربها ، الآية الكريمة : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » .

☆ ☆ ☆

ولن نذكر أمراء اخترعوا عن الشريعة ، وضيعوا الميزان ! ...
□ فكل أمير في تاريخنا ، ما كانت سيرته كسيرة : أبي بكر ، وعمر ،

وعمر بن عبد العزيز ، والمنصور ، ومحمود بن زنكي ، فقد أضاع عناصر الميزان ،
وابتغى غير الإسلام الكامل ديناً .

□ وعلى مقدار الاقتراب من الفهم السليم ، والتطبيق الكامل لميزان
الشريعة ، يكون الاقتراب من سيرة أبي بكر وعمر ... حيث قناعة الرعية ، بأن
كل ذي حق سيحصل على حقه ، ويعم الرفاه ، ويسود الاستقرار ...



علماء حفظوا القرآن

□ فهموا عناصر الميزان ، ومثلوا الإسلام
تمثيلاً سليماً صحيحاً

□ ليس هذا البحث ، تحت العنوان السابق ، بحثاً تاريخياً ، لسرد سيرة وترجمة عالم فهم الإسلام فهـما سليماً صحيحاً ، كما يجب أن يفهم .

□ فليس البحث الآن بحثاً في سيرة من فهموا ، بل ذكر ما فهموا .

□ ولن استطاع استعراض كل العلماء الخالصين العاملين على مر التاريخ الإسلامي ، إنما هي نماذج تبنت الإسلام فتتمثل في جميع جوانب حياتهم نوراً وأضياء في حوالك الأزمات .

□ فمن الذين تمثل فيهم الإسلام ، وكان « ميزان الشريعة » مقياس حياتهم إلى حد بعيد :

سعيد بن المسيب

كان الفقه لعهد سعيد بن المسيب^(١) لا يقتصر على ما هو مصطلح عليه الآن ، من معرفة الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأحوال

(١) البحث بتصرف زائد عن كتاب : « علماء في وجه الطعنان » للدكتور محمد رجب يومي . سلسلة مناهج وشخصيات . (الدار القومية للطباعة والنشر) وترجمة سعيد بن المسيب هي : سعيد بن المسيب بن أبي وهب الخزومي القرشي ، أبو محمد ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ، وكان يعيش من التجارة بالزيت ، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته . حتى سمي راوية عمر . ولد عام ٦٢٤ هـ أو ٦٢٤ م ، توفي بالمدينة عام ٩٤ هـ أو ٧١٢ .

الشخصية . بل كان يشمل جميع ما يتصل بالإسلام من سيرة وتاريخ وتوحيد وأخلاق وإرشاد وتربيّة .

ومع التفاني في العبادة ، نقلت عن أبي المسيب أقوال ترسم السبيل السوي للمؤمن المناضل في الحياة ، فقد قال له مولاه برد : ما رأيت أحسن مما يصنع هؤلاء :

فقال سعيد : وما يصنعون ؟

قال : يصلّي أحدهم الظهر ثم لا يزال صافاً رجليه يصلّي حتى العصر !

فقال سعيد وهو يزن أعمالهم في ميزان الشريعة : ويحك يا برد ...

أما والله ما العبادة هذه ، إنما العبادة الكف عن حرام الله ، والتفكير في أمره ، فالعبد التقى هو الذي يسعى إلى رزقه مجتنباً محارم ربّه ، ولن تنفعه عبادته وأمعاؤه تتلوى ، وأطفاله يتضورون . فهذه الخبرة الدقيقة بحقائق العبادة ، وبأوهام الناس جعلته يصدر آراءه عن تجربة ملموسة ، وعين ترى ، وأذن تسمع .

□ ومن مواقف سعيد الرائعة : رفضه أن يعطي ابنته للوليد بن عبد الملك ليتّخذ الوليد والده من ذلك دعامة تجذب نحوهما الأنصار والأتباع ، فيحتقر سعيد رغائب الدنيا ويستهولها ، لأنّه يرفض أن يكون مطية .

ثم يعجل بزفاف ولدته إلى طالب علم فقير لا يملّك غير قوت يومه ، هو : عبد الله بن وداعة ، فأي ملاك هذا الذي سما بإنسانيته الرفيعة ، فوق المقاييس الهاشمة ، إلى أوج رحيب تضيئه العزة ويعمره الجلال ، إلا أن يكون عالماً رفعه الإسلام من حضيض البشرية الطامحة ، إلى سماء المثالية الرائعة ، ذلكم هو سعيد بن المسيب .

ولما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة ، فدخل المسجد ، فرأى شيئاً قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعيد بن المسيب . فلما جلس ، ارسل إليه ، فأتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال سعيد : لعله أرسلك إلى غيري ... فغضب الوليد لما عاد إليه الرسول . وهم به فقال له جلساً : يا أمير المؤمنين ، فقيه المدينة ، وشيخ قريش ، لم يطق أباك من قبلك ...

ففي دولة الإسلام العلم يؤتي ولا يأتي ، ولكن في أحوال الدعوة : الإسلام يقوم للتبلیغ كا حدث أيام التتار .

□ صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم رکوعها وسجودها ، كما يجب . فأخذ سعيد كفافاً من المحرى ورماه به . فاستخدم في صلاته ، وأخذ يطمئن .

هذا إيمان القوي ، وهذا الاعتزاز بالحق ، وهذا الورع الرفيع الأخاذ ... قد أضفى على الرجل حلة زاهية من هيبة الإيمان ، وجلال الإسلام وكاله .

☆ ☆ ☆

سَعِيدُ بْنُ جُبَيرٍ

(سيد التابعين) (١)

بلغت قوة الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق مبلغًا أثار النfos ، وأشعل

(١) سعيد بن جبیر الأسدی ، بالولاء ، أبو عبد الله ، كان أعلم التابعين على الإطلاق ، حبشي الأصل ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر . ثم كان ابن عباس ، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، قال : أتسألكوني وفيكم ابن أم دھاء ؟ يعني سعيداً .

قال الإمام أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مقترن إلى علمه .

ولد سعيد عام ٤٥٠ هـ / ٦٦٥ مـ ، وقتل الحجاج بواسط عام ٩٥ هـ / ٧١٤ مـ .

الصدور ، وطبعي أن يحدث عدوانه موجة استياء تغمر القلوب . وكان الذين وضعوا - الميزان الشرعي - مقاييساً لأعمالهم ولما يرون ، مستائين ومذمرين من هذا البغي الصريح . فهم يرون النفوس ترد حتفها بغير حق .

وكان في طليعة المستنكرين ، سيد التابعين سعيد بن جبير .

سعيد صاحب الذخيرة الحافلة في الفقه كا كان يفهم في العهد الأول ، ولو تأخر الزمن بسعيد إلى عهد التدوين والتأليف ، لقرأنا من كتبه ما يعين على تحديد موضعه بين أخذاد الفقه الإسلامي ، فهو الذي مهد لظهور أبي حنيفة وممالك ! .

كان شجاع اللسان ، جريء القلب ، يقول الحق السافر دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، وجراة القلب لم تزل دافعه إلى التحرش بالباطل ومهاجنته ، ولا سيما بعد أن استندت إلى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء .

ورغم مظالم الحجاج ، شارك في بعض الوظائف مشاركة فعالة ، ليبدأ بها ما قد يتحقق به من كيد وعدوان .

أما منطق عصمنا ، ياغيرة الله : سيد التابعين عند الحجاج ؟

وجوده ، خير من عدمه ، ليدفع ما أمكنه أن يدفع على ضوء « ميزان الشريعة » فإن وجدَ عند الحجاج ، وجد مصلحة الشريعة ، ولا يعني ذلك مطلقاً ، أنه باع دينه ؟ !

ولقد قال بعضهم : أولى به أن يترك الحياة جانباً ، ويترنح للفقه في إمارة ظالمة أميرها الحجاج ، ولكن ارجع إلى « الميزان الشرعي » :

كافح المجاهد المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة ، وإذا

تعاون المصلحون في أوقات الطغيان على الخير ، أسهموا في الكفاح ، وانهم لا بد واصلون إلى بعض ما يبتغون من السداد ، ولئن لم يتمكنوا من إخماد النار المشتعلة ، فهم على الأقل يحصرونها في نطاق أضيق .

وإذا كان الحسن البصري (معاصر سعيد) ، وقريعيه في الفقه والتقوى ، قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه في رفق وحيطة . فليس لنا أن نخبر سعيداً على ارتسام منهجه ، فالانطوائي في كل عصر لا يساهم في توجيهه ، ودرء المفاسد ، كما يقوم به المكافح المجاهد^(١) .

ومن يرى أن موقف الحسن صائب وموقف سعيد خاطئ ، لا يعلم أن الإسلام دين كفاح وعمل ، وليس قيمة الورع أن تعزل المناصب ، وترك ميدان العمل لفاشق فاجر ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا في يدك ، تصرفها « عزيزان العدالة المنصف » ، فتدفع شرًا يطأ ، وتجلب خيراً يتاح . ولم يختلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد .

فقد خفَّ إلى مقاتلة « روتبيل » (ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان) عندما سار إليه عبد الرحمن بن الأشعث لتأديبه ، ولما فتح عبد الرحمن الشغور والمناطق ووقع هدنة مع الترك ، عنفه الحجاج وعزله ، لذلك ثار عبد الرحمن على الحجاج ، وأيديه سعيد بن جبير فحاكمه الحجاج بعد عودته من سجستان .

ومحاكمة سعيد ، حدث رائع يسجل آيات البطولة من مسلم يثق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المخت أن يجاهد الطغيان في جبروته ، ولا عليه إذا كانت نتيجة ذلك قاسية أليمة ، فهو يعلم في ميزان الشريعة أن حياة الذل والخنوع

(١) « علماء في وجه الطغيان » ، ص : ١٥ وما بعدها .

لا تقاوم بمكانة الشهادة العالية . لقد أذل بكبريائه قسوة الحاجاج في المحكمة ، وحطّم غروره . بل إن سعيداً قد أبى أن يهرب من طريقه إلى المحاكمة ، وقد مهد له المارس سبيل الفرار . أبى ذلك . ولقد انتفخ الحاجاج في جلسته وسائل في استخفاف :

- ما اسمك ؟

فسمع سعيداً يجيب في صلابته وعزته :

- اسمي سعيد بن جبير .

ولكن الحاجاج يتهم ويقول باستخفاف ثانية :

- بل شقي بن كُسرى !!

فيندفع سعيد ليجيئه بقوله : أبى كان أعلم باسمي منك .

وإذا ذاك يتضائق الحاجاج ، فيصيح في تبرم وغيبة .

- لقد شقيت وشقي أبوك . وظن أنه بذلك قد قطع الرد على غريمه ،

ولكنه يسمع سعيداً يجيئه :

- الغيب إنما يعلمه غيرك .

فيستشرى غيظه ويلجأ إلى الوعيد والتهديد فيصيح : لأبدلك ناراً تتلظى .

وهنا يرد سعيد إلى الحقيقة فيقول له في بساطة هادئة :

- لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت إلهآ غيرك !

طالت الأسئلة ولم يصل الحاج إلى افهام غريمه ، فسلك مسألاً آخر ،
قال :

- ما قولك في محمد ؟

- فصاح سعيد : نبي الرحمة ، وإمام الهدى بعثه الله رحمة للعالمين .

- الحاج : وما رأيك في علي ؟ أهو في الجنة أم في النار .

- سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها . فأقفل بسداده
الحازم بباب اللجاجة في وجه أموي حاقد .

- الحاج : ما رأيك في الخلفاء ؟

- سعيد : لست عليهم بوكيل .

- الحاج : أتريد أن أغفو عنك .

- سعيد : إن كان العفو فلن الله ، وأما أنت فلا تملك عفواً عن إنسان .

- الحاج : اخترأي قتلة تريد أن أقتلك بها .

- سعيد : بل اختر يا عدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلني اليوم قتلة ، إلا
قتلك الله في الآخرة بثلثها .

وكان آخر دعوة ترددت بها أنفاس سعيد بن جبير الطاهرة : اللهم
لا تسلط الحاج على أحد بعدي ، لعل الله استجاب دعاه كان عالماً عاماً
شريفاً ...

مات الحاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة ، دون أن يريق لإنسان
دمأ ، وجسم الموت شره عن الناس .

لقد آثر سعيد الشهادة والدار الآخرة ، فهو من ذوي النفوس الرفيعة والمعدن الأصيل ، لقد كان « ميزان الشريعة » مقاييسه في أعماله ، ومنطلقه إلى جهاده ، وقناعته وتصرفاته وأحكامه .

لقد كان الحجاج يستيقظ فزعاً ويصبح : يا قوم مالي ولسعيد بن جبير ! كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي ، ومات الحجاج وهو يذكر في احتضاره سعيداً وهذا يذكر يقول القائل :

اثنان لا يتهدنان دققة :
شبح الضحية والضمير المذنب .

☆ ☆ ☆

الحسن البصري

كثرت الاموال في المجتمع الإسلامي ، وكثرت معه أدوات الترف ، واشتدت الاغراءات المادية ، وفعلت فعلها في المجتمع حتى أشرف الإيمان ، والعمل الصالح على الضياع والتلف ، وبها تناز هذه الأمة عن غيرها من الأمم ، وفيها سُرُّ قوتها وانتصارتها . وما تراث النبوة . وأصبحت الأمة تتقدم بخطى واسعة إلى انهيار في الأخلاق والروح . وخدود في العاطفة والشعور الديني وضعف في صلتها بالله^(١) .

(١) راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي ، صفحة : ٦٦ وما بعدها ، « اصدار دار القلم الكويت ، ط ٢ سنة ١٩٧٩ ». وهو الحسن بن يسأر البصري ، أبو سعيد ، تابعي ، إمام أهل البصرة ، وحجر الأمة في زمنه . ولد بالمدينة . وشب في كتف علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال الغزالى : كان الحسن البصري ، أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصنخابة ، وكان غاية في الفصاحـة ، تنصـبـ الحكـةـ مـنـ فـيهـ . ولد عام ٢١ هـ / ٦٤٢ مـ . وتوفي عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ مـ .

وكان ذلك نذيرًا بكارثة كبرى ، كارثة أصيّبت بها الأمم من قبل ، وهي الإفلاس في الإيمان والروح والأخلاق ، وهي خسارة لا تعوضها الدول والحكومات والفتح المادي والسياسي ، ولا بقاء لأمة - ذات رسالة وعقيدة - بعد ذلك .

بدت طلائع هذه الفاجعة في الأفق ، وعلى من يريد منها أن يملأ المؤهلات التي يستطيع بها أن يواجه مجتمعاً انحدرت فيه القيم . بل ضفت صلته بالله ، ضاعت الإنابة ، إلى عزوف عن حقيقة الإيمان واستهانة بالظاهر الإيمانية .

أين الشوق إلى الشهادة ، الخشوع في الصلاة ، لذة الدعاء ، العطف والمواساة ، الإيثار ؟ إلى غير ذلك مما هو نتيجة الإيمان القوي العميق ؟

في هذه الحالة ، بدأ الحسن البصري ينتقد المجتمع ، نزل إلى أماقه ، ووصف مرضه ، انتقاده انتقاد الحكيم الرفيق ، الناصح الشقيق ، كان ي sis قلب المجتمع ، وينزل في صميم الحياة ويعارض تياره .

ما نجح الحسن البصري لمواعظ وخطب كان يلقاها ، بل كان يعني بتربيته من يتصل به ويجالسه ، فكان جاماً بين الدعوة والإرشاد ، وبين التربية العملية والتربية الأخلاقية والروحية ، فاهتدى به خلائق لا يخصهم إلا الله ، وذاقوا حلاوة الإيمان ، وخلوا بحقيقة الإسلام ، وقد صدق عوام بن حوشب إذ قال :

« ما أُشَبِّهُ الْحَسْنَ إِلَّا بْنِي أَقَامَ فِي قَوْمٍ سَتِينَ سَنَةً يَدْعُوْهُمْ إِلَى اللَّهِ(١) ».

(١) دائرة المعارف للبستاني ، ج ٧ ، ص ٤٤ .

فهو أسوة لكل عالم منتج ، ولو اقتدى به الجميع لما حرمت الامة من سعادة تعاليم الإسلام ، وبركات نتائجها في المجتمع ، ولا ندري إلى متى سيكتب لهذه التعاليم أن تبقى ضمن المسجد حركات وفقه وضوء ... وتعيش الجاهلية في البيوت والأسواق ...

☆ ☆ ☆

عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ

عالم مثالي على الرغم من اعتزاله^(١)، حسبه شهادة الحسن البصري فيه :

□ « عمرو ! من عمرو ؟ رجل كأن الملائكة أدبه ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد لأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بياطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه ». .

شته خصومه وجرحوه ، فقال له تلميذ يوماً : يَا أَبَا عَثَانَ إِنِّي لَأَرْجُمُكَ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ .

فقال : يَا ابْنَ أَخِي ! سمعتني أقول فيهم شيئاً !
قال : لا .

قال : فَإِيَاهُمْ فَارْحَمْ .

(١) عمرو بن عبيد : « ٨٠ - ١٤٤ هـ » ، « ٦٩٩ - ٧٦١ م ». عمرو بن عبيد بن باب التبيي بالولاء ، أبو عثمان البصري ، شيخ المغترة في زمانه ، ومقتليها ، وأحد الزهاد الشهورين ، اشتهر بعلمه وزهده . له رسائل وخطب وكتب ، منها : « التفسير » و « الرد على القدرية » توفي بمران قرب مكة ، ورثاه المنصور .

وهكذا فقد جعل عمرو بن عبيد « ميزان الشريعة » الدقيق في حديثه

السابق :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْهُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنٌ ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان / ٦٣) .

- استدعاء أبو جعفر المنصور ، فذهب إليه ، وما قيل : العالم في باب الحاكم أم الحاكم في باب العالم ؟ المهم اللقاء لخير دين الأمة وخير دنياها .
- وقد أبدى رأيه في ولاية العهد ، لا بل رأي « ميزان الشريعة » واضحًا جليًّا دون خشية بشر ، فقال إنه مفسدة تضر الدولة ، وتقدم الفشل الكسول لتحليل إليه الأمور ، مكان الحازم الإداري الصبور . فليواجه بها أبو جعفر المنصور ، ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ، أما حاشيته المقلقة ، فلا بد أن ينالها نصيب اللوم والتفريط .

وعند لقاء المنصور ، قرأ عمرو بن عبيد على أبي جعفر : « ألم تر كيف فعل ربك بعد ... إلى قوله عز وجل ... إن ربك لبالمراصاد » . وكرر الآية الأخيرة بتعدد وجراة عنيدة . ففهم المنصور ، وأخذته رعشة وبكي .

ثم قال عمرو : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ، ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعده . وإنني لأحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيمة يا أمير المؤمنين .

- فقال سليمان بن مجالد ، كبير حاشية المنصور : رفقاً بأمير المؤمنين ، فقد أتعبته منذ اليوم !

قال عمرو : مَنْ أَنْتَ ؟ !

قال أبو جعفر : أولاً تعرفه يا أبا عثمان !
قال : لا ، وما أبالي ألا أعرفه .

فأجاب المنصور : هذا أخوك سليمان بن مجال ،
فضحك عمرو متهكماً وقال :

هذا أخو الشيطان ، ويلك يا ابن مجال ! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، ثم أردتَ أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اخذوك سلماً لشهواتهم ، فأنت كالأخذ بالقرنين ، وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يعني عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

قال المنصور : يا أبا عثمان أعني ب أصحابك ، فاستعين بهم دون هؤلاء .
فرد عمرو بن عبيد في قوة : أظهر الحق يتبعك أهله .

قال أبو جعفر : هذا ابني محمد وهو المهدى ولـي عـهـدـ المؤمنـينـ .

قال عمرو : والله لقد سميت اسمـاً ما استحقـهـ بـعـمـلـ ، وألبـستـهـ لـبوـسـاـ ماـ هوـ
منـ الـأـبـرـارـ ، وـمـهـدـتـ لـهـ أـمـرـاـ أـمـتـعـ ماـ يـكـونـ بـهـ ، أـشـغـلـ ماـ تـكـونـ عـنـهـ .

أبو جعفر : هل من حاجة .

عمرو : نعم !

أبو جعفر متوجلاً : وما هي ؟

عمرو : ألا تبعث إلـيـ حـتـىـ آتـيـكـ !

أبو جعفر : اذن لا نلتقي !

عمرو : عن حاجي سالتي ، ونهض قائماً ، فودعه الخليفة ، ومكث حائراً
لا يدرى ما يصنع .

□ كان أبو جعفر يردد :

كلم طالب صيد ، كلم يishi رويداً ، غير عمرو بن عبيد .
فأيُّ عالم ذلك الذي رَنَحْ أوتار الخليفة ، حتى دفعه إلى مدحه بشطرات
من الشعر ؟ !

□ فكيف ذهب عمرو بن عبيد إلى أبي جعفر المنصور ؟ أين « ميزان
الشريعة » من ذهابه ؟ !

- لقد ذهب النبي إلى الطائف ، وعرض صلى الله عليه وسلم نفسه على
القبائل ، فمن لا يأتي ليبلغ ، يذهب إليه للتبلیغ فالتبليغ هو الهدف ولا يهمنا
كان هنا أو هناك ، ولقد أمر الله موسى وهو نبي من أولي العزم أن يذهب إلى
أكبر طاغية :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخْوَكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذَكْرِي ، اذْهَبَا إِلَى
فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (طه / ٤٣) .

ليس هذا فحسب ، بل أمرهم الله بمخاطبته باللين والرفق لعل مغاليل
نفسه تتفتح ، فبالشتائم والسباب والسلبية لا يتحقق معروف وخير :

□ ﴿ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَهُ يَتذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . (طه / ٤٤) .

فهم « ميزان الشريعة » واجب ، وواضح لا لبس فيه ، أما أن نصدر
أحكامًا ونفتى بها لا نعلم ، فخطير على الإسلام والمسلمين ، الغلطنة دقيقة في
حياتنا ، عشرة واحدة ، غلطنة واحدة ، كافية لقطع صلتنا بالإسلام . غلطنة ،

لا حكمة ، لا تفكير ، لا تریث ، تُعرّض للخسارة ، وترفض على الأجيال القادمة ، أن تعيش حياة ليس للإسلام فيها نصيب من قريب أو بعيد ... فلنكن على حذر فيها نقول ونفكّر ، لأن الوزر كأسلافنا عظيم وكبير .



أبوحنيفة

« التشريع لمصلحة المسلمين »^(١).

□ يقوم المذهب الحنفي على ثلاثة أصول هي « عناصر الميزان » :

١ - القرآن : وهو المأخذ الثابت للشريعة .

٢ - ثم الحديث .

٣ - ثم القياس ، الذي أدخل فيه عنصراً جديداً سماه « الاستحسان » ، بحيث يرجع فيه إلى حكم العقل والأخذ بما هو حق وعدل ، والعدول عما يتضح أنه جائز أو مناف لصالح المجتمع ، غير أن هذا الاتجاه بما تضمن من حرية الرأي ، عاد من بعد أبي حنيفة فحمد إلى فكرة الأخذ بالسابق ، التي جرى عليها المتقدمون من الفقهاء خوفاً من الاستشاطة .

□ كان أبو حنيفة النعمان غنياً بتجربة الحرير ، فأهلة غناه إلى أن ينصرف إلى التأدب والتفقه في الدين .

بینااليوم، ولا ندری لماذا، إلا أن يكون اتباعاً، يعاب على العالم الغني

(١) راجع « سير ملهمة » ، صفحة ١٦ . وهو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، التميمي بالولاء الفقيه المجتهد الحمقى ، أحد الأئمة الأربع ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صاه ، ثم انقطع للتدريس والافتاء . امتنع عن القضاء ورعا . ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ / ٦٩٩ م . توفي ببغداد ودفن بشرقها عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .

غناء ، لهوى النفس لا لشريعتنا الغراء . وأغرب من هذا أن يقال « ولِي » ،
لَهُمْ لَا عِلْمٌ فِي عَقْلِهِ ، فَقِيرٌ مَدْقُونٌ ، بَهْذِي بِمَا لَا يَفْهَمُ .

من قال إن العالم يجب أن يموت من جوعه كي يكون ورعاً زاهداً علينا
خلصاً ؟

إن الزهد عمل قلبي فكثيراً ما نلاحظ ، هنالك فاقداً للمال وهو معلق بكل
جوارحه بالدنيا .

وهنالك مالك للمال ، وهو زاهد القلب به ، والشريعة تقول :

﴿ ... اسْتَفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرِسِّلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيَمْدُدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ . (نوح / ١٢ / ١٠) .

الزكاة فريضة ، ركن ... فرضت على المسلمين ، ولكي يدفعها المؤمن المسلم
ينظر في حاله إن كان غنياً أو فقيراً ؟ ! فالمؤمن غني ، لأن الغنى قوة ،
والمؤمن قوي عزيز كريم ، والكرامة ثوب رقيق يزقه الفقر .

والأحاديث الشريفة تثبت أن على المؤمن أن يكون غنياً قوياً :

□ « ليس بخيراً لكم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ،
ولكن يصيب منها جميعاً ، ولا يكون كلاماً على الناس »^(١) .

□ « لاتسبوا الدنيا ، فنعمت المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير وبها ينجو
من الشر »^(٢) .

(١) الحاكم عن أنس .

(٢) الديلمي عن ابن مسعود .

أبو حنيفة : بما ملك من عظمة شخصيته ، وعزه نفسه ، ورصانة خلقه ، وشدة احساسه بالكرامة ... كان قمة شماء بين المجاهدين الأماثل ، كانت الشريعة بغيرها منها منهج في كل أعماله وموافقه ، ونذكر من مواقفه التي جعل فيها « ميزان الشريعة » نصب عينيه .

□ جمع المنصور العلماء ليأخذ رأيهم في أهل الموصل حين اشترط عليهم أن يستحل دماءهم إذا انقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط ، فهربوا ثائرين . وقال أبو جعفر : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون عند شروطهم » .

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فإن عفت فأنت أهل العفو ، وإن عاقبت فما يستحقون .

فنظر الخليفة إلى أبي حنيفة : وماذا تقول أنت ؟

رفع أبو حنيفة وجهه - نصر الله ذلك الوجه - وقال : إنهم اشترطوا لك ما لا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك . لأن دم المسلم لا يحل إلا في ثلاثة ، وشروط الله أحق ما توفي به . وهنا تتجلى روعة ميزان الشريعة عند أبي حنيفة حيث لا يقتل مسلم إلا في ثلاثة كما أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاثة : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (رواه البخاري ومسلم) .

□ تذكر المنصور أن يزيد بن هبيرة ، قد عرض عليه القضاء أيام الأمويين ، فرفض ، فكان نصيبيه السجن والضرب بالسياط : (والله لو أراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب (واسط^(١)) ، لم أدخل في ذلك . فكيف وهو يريد

(١) واسط : بلد سمي بالقصر الذي بناه الحاجاج بين الكوفة والبصرة ، وهو مذكور مصروف لأن أسماء البلدان الغالب عليها التأثيث وترك الصرف ... « راجع مختار الصحاح : ص ٦٩ » .

أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن وأختم أنا على ذلك الكتاب ، والله لا أدخل في ذلك أبداً .

فعرض المنصور عليه القضاة ، فرفض وأصر . حلف أبو جعفر ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل ، وقال : إني لا أصلاح للقضاء . فقال الريبع بن يونس وزير أبي جعفر : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ! فرد أبو حنيفة في صراحة عنيدة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيانه مني .

فأمر به أبو جعفر فقيد إلى السجن ، واستدعاه بعد أيام وسألة :

- أترغب عما نحن فيه ؟

فأجاب : أصلاح الله أمير المؤمنين ، لا أصلاح للقضاء .

فصاح المنصور منفلاً : كذبت .

أبو حنيفة : لقد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلاح للقضاء ، لأنه ينسبني إلى الكذب ، فإن كنت كذاباً فلا أصلاح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحتي للقضاء .

□ جلد أبو حنيفة مائة وثلاثين سوطاً ، فخرج عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة فصاح به : لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط في غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء ؟

فأطلق المنصور سراحه ، وأرسل إليه ثلاثين ألف درهم ، فردها فقيل له : لو تصدقت بها على المحتاجين ، فقال : ومن يضمن لي أنها جمعت من طريق حلال .

ثم جاءته الأخبار تنبئه بوفاة أبي حنيفة ، متاثراً بجراهه ، فأطرق المنصور ، يستعرض عجائب بطولته .

مالك بن أنس

«إمام دار المحرقة(١)»

«أيfect ومالك في المدينة؟»

□ نشأ في البيئة التي نزلت فيها الرسالة الإسلامية ، ورأى بعضاً من صحابة الرسول ﷺ ، من كانوا أحياء حين حياته ، فكان الحجة في فقه الدين وتفسير النصوص على المبادئ التي أخذت عن النبي .

وكتابه «الوطأ» هو أول كتاب ألف في الفقه الإسلامي ، اتخذ فيه «القرآن» وجملة من الأحاديث الصحيحة أساساً في إخراجه ، معتمداً في انتقاء الأحاديث على رواة ثقات ، سمع منهم مباشرة ، بعد شهرتهم بالصدق والأمانة والتقوى .

لقد بني أحكام الموطأ على ميزان شرعي دقيق : على القرآن : وعلى جملة من الأحاديث النبوية ، وقال : بأن أصول الفقه تقوم على الإجماع ، وقصد به إجماع فقهاء المدينة بوصفها مركز الفقه الإسلامي في عصره ، ومبعد نوره وأماوي رجاله وثقاته . ولقد خالقه أبو حنيفة النعمان لاستئثاره بالرأي لفقهاء المدينة في غير صالح المسلمين ، وإيصاده بباب الاجتهاد عند فقهاء غيرها من الأمصار الإسلامية » .

أما «السنّة» التي اتبعها في إقامة مذهبـه فترجع إلى أصلين : «الإجماع» و «القياس» .

(١) (سير ملهمة) ، ص : ٤٦ . وهو مالك بن أنس بن مالك الأنصبـي الحميري ، أبو عبد الله ، مولده ووفاته بالمدينة المنورة (٩٣ - ٧١٢ هـ / ٧٩٥ - ٧٩٥ م) . كان صلباً في دينه . كتبـه الموطأ أول كتاب ألف في الفقه الإسلامي ، وعقب على الموطأ بما سماه «المدونة الكبرى» . انتشر مذهبـه في صعيد مصر ، وشمال إفريقيا ، وعمان والبحرين والكويـت . دفن بالبيـع .

الإجماع : وكانَ عنده قائمًا على ما يجِمِعُ عليه فقهاء المدينة وكانت في ذلك العصر مرتع فقهاء الإسلام . أما القياس : فقيئه بما سماه « الاستصلاح » ، وقصد به عدم الأخذ به إذا كان في ذلك ما يضر بصالح المسلمين .

□ عاصر مالك أبا حنيفة ، واشتركا في مخنة واحدة ، حين اشتراكا في الإفتاء ضد أبي جعفر المنصور . والفرق بينهما أن أبا حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ، ومالك يرى المنفعة في زيارة أولي الأمر ، ومع ذلك لم يعرض أحدهما على الآخر ، ما أجمل الأدب ، واحترام رأي الآخرين ؟ !

□ قال مالك رضي الله عنه : حقٌّ على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان ، فیأمره بالخير وينهيه عن الشر ، ويعظه حتى يتبيّن دخول العالم على غيره ، فإن عظمه ونهاه فهو الفضل الذي ليس بعده فضل .

بئس العالم على باب الأمير : إذا دخل للمداهنة ، أو الإقرار على ظلم ، أو للتجيد والدسيسة ، إن دخل للمراءة والمطالبة بباطل .

أما إن دخل على الأمير : لما قاله الإمام مالك ، فهو فرض على العالم ، ولكن لسوء ظن المسلمين بعلمائهم يشوّهون دخولهم وأهدافهم من الدخول على السلطان !

□ سُئل الإمام مالك : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون ! فقال للسائل : رحمك الله ، وأين التكلم بالحق ؟ !

□ ورغم موقف مالك ، وهو بلا شك موقف سليم ، بقي جلال العلم ووقار الإيمان يلفانه بهالة وضوء ذات تقدير وإكبار ، فإن لم يسع إليه الحاكم سعي إليه هو .

واختلاف الإمامين « أبي حنيفة ، ومالك » في هذه الناحية ، مما غرسه الله في قلوب البشر ، إذ لو شاء سبحانه ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولكل وجهة هو مولىها .

ومع ما سبق ... لقد سعى إليه الخليفة المهدى إلى منزله ، ووراءه حشد من الأتباع والأجناد ، وظن الناس أن مالكاً رضي الله عنه سيسرع بالاستقبال على عجلة واندفاع ، ولكن الوقت يطول داخل منزله لا ييرحه وال الخليفة حرج لا يدرى ماذا يصنع أمام رعاياه ، وبعد صبر ، خرج الإمام متقد الخطو يقول في صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ليرى الناس لدينا ستر السماء ، ونعمت الله .

وألح عليه المهدى أن يسعى إلى قصره ليعلم ابنيه موسى وهارون ، فقال : لا يا أمير المؤمنين ، العلم يؤتى ولا يأتي ، واضطر الخليفة أن يبعث ولديه ، فكانا يقنان على المنزل فيدقان الباب والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق^(١) ، حتى يأتي الإذن ، فيسرعان بالدخول .

□ فكيف كان يدخل على ذي السلطان ، وهنا يرفض إخراج المهدى أن يسعى إلى قصره ليعلم ابنيه ؟ الأمر واضح بسيط :

١ - الموقف الأول : ذهب للتتكلم بالحق ، ذهب لمصلحة المسلمين عامة ، ذهب ليأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ذهب للنصح .

٢ - وفي الموقف الثاني : تعليم ، طلب للعلم ... فليأتيا إن أرادا التأدب والتعلم والتفقه . فليس بين الأمرين تناقض .

□ زاره الرشيد في المدينة ، وجلس بين يديه وسمع منه ، ودخل مرة

(١) العقيق : واد بظاهر المدينة . (مختار الصحاح : ص : ٣٨٢) .

فقال له مالك : من تواضع إلى الله رفعه ، ومن تكبر وضعه ، فقال الرشيد :
ماذا صنعت ؟ « وكان قد دخل مجلس الحديث ، وأخذ مكانه إلى جوار
مالك ». .

فيقول مالك : إن من إجلال الله ، إجلال ذي الشيبة المسلم في مجلس علمه ،
فقم واقعد بين يدي ، فأسرع الرشيد متثلاً .
ألم نقل إن جلال العلم ، ووقار العلماء يلفانه بهالة وضوء ذات تقدير
وإكبار ...

□ لقد احتفظ مالك بتوازنه بعد مخنة المنصور ، على حين مات أبو
حنيفة متاثراً بسياطه ، فسعى المنصور إليه بعد أن جلده عامله على المدينة ،
معتذراً متندماً . وأخذ يحلف أن عامله على المدينة ، هو الذي قام بجلده دون
مشورته ، وأتقن الدور ، فعزل العامل وعدّبه ، وبالغ في احترام مالك وتوقيره
مبالغة ورثها عنه ولده المهدي ، ثم حفيدها : موسى وهارون .

لقد جعلت عظمة الإيمان ، وجلال العلم ، وثبتات اليقين متجمعة في
مالك ، أن يقول أبو جعفر :

- « والله الذي لا إله إلا هو ، ما أُمِرْتُ بالذِّي كَانَ ، وَلَا عَلِمْتُهُ ، وَإِنَّه لَا
يَزَالُ أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ بَخْيَرٌ مَا كَنْتَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ، وَإِنِّي أَخَالُكَ أَمَانًا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ
اللَّهِ ». .

رحم الله مالكاً ، فقد كان قدوة وأسوة في جهاده ، وتعليمه ، وورعه .
ومذهبه ، كيف لا يكون ، وهو الذي شب في بيئه نزل فيها الوحي ، وأخذ
من صحابة رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

عبد الله بن المبارك

أخذ الكتاب بقوة من جميع جوانبه ،
 فهو الإمام القدوة^(١) .

ولد ابن المبارك بمدينة كثر فيها العلماء ، وحوت مكتباتها من نفائس الكتب . نشأ وترعرع ببيت مسلم ، من أبوين تقيين صالحين . فقتلته به عندما شب ، المفاهيم الصحيحة للشريعة والميزان الدقيق للاستيعاب السليم لمقاصدها ، فزهد بالدنيا ، رغم إقبالها عليه ، وعمل بالدعوة ونشر العلم ، والنصح لله ، والجهاد ، والتجارة ...

قال أبو داود الطيالسي : ما رأيت أجمع من عبد الله بن المبارك ، فقد كان محدثاً ، فقيهاً ، أديباً ، شاعراً لغوياً ... يقصده المتعلمون فيجدون عنده ما لا يجدون عند غيره .

وقال المعتز بن سليمان : ما رأيت مثل ابن المبارك ، نصيب عنده الشيء الذي لا يصاب عند غيره .

اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك ، فقالوا : عدوا خصال ابن المبارك من أبواب الخير . فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة ، والزهد والشجاعة ، والشعر والفصاحة ، والورع والإنصاف ، وقيام الليل والعبادة ،

(١) عبد الله بن المبارك : ١١٨ - ١١٨ هـ . ولد في مرو أشهر مدن خراسان . أدرك العهد الأموي ، وعاش حتى أيام هارون الرشيد . هو عالم المشرق والمغرب وما بينهما لما جمع في أعماله من فهم رائع سليم للشريعة . مات وهو عائد من إحدى غزواته ، ودفن في (هيت) على الفرات ، وقبته معروفة هناك . يراجع لهذه الترجمة كتاب : عبد الله بن المبارك محمد عثمان جمال ، طبع دار القلم .

والحج والعزو والفروسيّة ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والشدة في رأيه ، وقلة الخلاف على أصحابه^(١) .

لما قدم ابن المبارك مكة ، وزار سفيان بن عيينة ، والفضل بن عياض ، ودعاه عند خروجه ، فقال أحدهما : هذا فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل المغرب^(٢) .

وهكذا فإن تنوع علمه وفهمه الصحيح لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام ، كان السبب لرفعة شأنه وعلو منزلته .

١ - ابن المبارك المحدث : اتفق الأئمة على توثيقه وإمامته . قوله في الحديث مقدّم على ما سواه . فكان نقاداً ، ذا نظر ثاقب ، وصيরفيًا ماهراً ذا ميزان دقيق بين صحيح الحديث وسقيمه ، ويفرق بين غشه وسيئه ، قيل له مرة : هذه الأحاديث الموضعية ؟ ! فقال : تعيش لها الجهابذة^(٣) . وهو يعني نفسه ، فقد عاش لحديث رسول الله ، يميز صحيحة موضوعه ، وقوية وضعيفة

أخرج ابن عساكر عن ابن علية قال : أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق :

- لم تضرب عنقي ؟

- قال له الرشيد : أريح العباد منك .

- قال الزنديق : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ، ما فيها حرف نطق به ؟

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ، ص ٢٥٤ . وتهذيب الأسماء واللغات ، ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٢٥٦ .

(٣) الآلي المصنوعة في الأحاديث الموضعية ، للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

- قال الرشيد له : فأين أنت يا عدو الله من أبي اسحاق الفزاري ، وعبد الله بن المبارك فinxلأنها فيخرجانها حرفأ حرفأ^(١) .

وسبب هذه المهارة النادرة ، أن ابن المبارك ، كان عارفاً برواية الآثار ، ونقله الأخبار ، وما أصبح طيباً للحديث وصيفياً ماهراً فيه ، إلا بذلك العلم الغزير ، والنظر الشاقب ، وال بصيرة النافذة ، مما جعل الأئمة يعتمدون على جرمه وتعديلاته وتصحيحه وتضعيفه^(٢) .

٢ - ابن المبارك الفقيه :

- قال الحافظ بن حجر : عبد الله بن المبارك ، ثقة ثبت فقيه^(٣) .

- وقال سفيان بن عيينة ، لقد كان فقيهاً عالماً^(٤) .

استقى الفقه من : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأبي حنيفة . لذلك ذكره ابن النديم في الفهرست بين فقهاء المحدثين .

ويكفي ابن المبارك شهادة سفيان الثوري فيه ، وهي شهادة أستاذ لتلميذ ، عندما وصفه بأنه عالم المشرق والمغرب .

حدث محمد بن المعتر بن سليمان قال : قلت لأبي : يتأبت من فقيه العرب ؟
قال : سفيان الثوري ، فلما مات سفيان ، قلت : يتأبت من فقيه العرب ؟

(١) تذكرة المخاطب (ج ١ ، ص ٢٥٢) . و تاريخ الخلفاء لسيوطى : (ص ٢٩٣) .

(٢) أمثلة ذلك ، يراجع كتاب عبد الله بن المبارك : الإمام القدوة لحمد عثمان جمال ، ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) تقرير التهذيب ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٤) تهذيب التهذيب ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

قال : عبد الله بن المبارك^(١) .

وقيل في حقه : لأنّم أحداً من الفقهاء سلم أن يقال فيه شيء إلا عبد الله بن المبارك^(٢) .

ولابن المبارك ، آراء في الفقه ، يطول الحديث بنا ، إن ذكرناها^(٣) .

٣ - ابن المبارك الورع التقى :

قال يوماً : لأن أرد درهماً في شبهة ، أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ... حتى بلغ ستائة ألف^(٤) .

وأمثلة ورעה كثيرة منها : خرج إلى العراء ، فنزل عند نهر ، ونصب رمحه وربط فرسه ، فتوضأ وشرع في الصلاة ، فلما سلم رأى فرسه ابتلت يأكل الزرع ، فقال إنه أكل حراماً ، فلا ينبغي أن يغزى عليه ، وتركه لصاحب الزرع ، واشتري فرساً آخرى ومضى لسيمه .

ومثال تقواه : أنه كان يتكلم (في أحاديثه ودروسه ونشره للعلم) ودموعه تقطر^(٥) .

- وكان يذكر الله من بعد صلاة العصر ، لا يكلم أحداً ، حتى تغرب الشمس^(٦) .

(١) تقدمة المحرح والتعديل ، ص ١٦٢ . وحلية الأولياء ، ج ٨ ، ص ١٦٢ . « أبو نعيم الأصفهاني » .

(٢) الجواهر المصيّة ، ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) راجع بعض آرائه في الفقه من ص ١٠٨ إلى ص ١٢٤ في كتاب : عبد الله بن المبارك ، الإمام القدوة .

(٤) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، ص ٨٣ .

(٥) خلاصة تهذيب الكمال ، ص ٣٦٠ ، للخزرجي .

(٦) تقدمة المحرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ص ٢٦٩ .

- قال له رجل : قرأت القرآن في ركعة ، فقال ابن المبارك ، لكنني أعرف رجالا ، لم يزل البارحة يكرر « المحاكم التكاثر » إلى الصباح ، ما قدر أن يتتجاوزها^(١) . وذلك لأنه كان يتذمّر معاني الآية ويفهمها .

- وكان يصوم النهار في الحر الشديد ، سواء في السفر والحضر ، وحتى لو كان في الثغور للحرب والجهاد . وكان يُسرُّ العبادة ، ويكره أن يطلع عليها الناس ، ولو كانوا أصحابه وذويه . قال قطن بن سعيد : ما أفتر ابن المبارك قط ، ولا رئي صائماً قط^(٢) .

- وكان يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟ !^(٣)

٤ - تصوف وزهد ابن المبارك :

- وكان لابن المبارك أموال وفيرة ، وتجارة واسعة ، فهو غني ، رأسه أربعين ألف ، يكسب منه كل سنة مائة ألف ينفقها على أهل العبادة والعلم ، وقد ينفق من رأس ماله^(٤) .

- وكانت سُفْرتُه تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكولات من اللحم والدجاج والحلوى ، ثم يطعم الناس ، وهو صائم الدهر في الحر الشديد^(٥) ، « وهذا هو الزهد الحقيقى ، زهد الاختيار لا زهد الاضطرار ، وزهد الغنى ، لازهد الفاقة والحرمان ، ولرُب غني واسع الغنى كعمان والزبير

(١) سير أعلام النبلاء : (ج ٦ ، ص ٢٥١) .

(٢) حلية الأولياء ، ج ٨ ، ص ١٦٧ .

(٣) تاريخ بغداد ، ج ١٠ ، ص ١٥٤ .

(٤) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ .

(٥) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٨ .

وابن عوف ، كان أزهد في الدنيا من كثير من يلبسون مرقيعات الصوف^(١) ، ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب ، وقلوهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرحة إلى ما في أيدي الأغنياء ». (وكم من دعي الزهد والطمع يلوك قلبه) .

لقد فهم ابن المبارك معنى الزهد الصحيح ، مع إخلاص وتقوى ، فهو ما كان يدعي الزهد ، ولا يجب أن يعرف الناس فيه ذلك ، ويرى نفسه أقل من أن يكون زاهدا ، فقد قيل له مرة : يازاهد . فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففي ماذا زهدت^(٢) ؟ ! وكان يقول : أفضل الزهد إخفاء الزهد^(٣) .

□ كا فهم التصوف بعناء الحق ، النابع من الكتاب والسنة ، فخلا قلبه مما سوى الله من شواغل الدنيا ، والتعلق بالأغيار ، أعرض عن الدنيا بقلبه ، وأقبل على الآخرة كل الإقبال ، فهو رجل رباني محدي ، يتبع شريعة القرآن ، وسنة محمد بن عبد الله ، نصاً وروحًا ، فهو إمام بالتصوف ، ازداد به ورعاً وتقوى وخشية وذكرًا لله . فهم التصوف جهاداً وعملاً ، لاقعوداً وتواكلاً .

□ كان يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل^(٤) .

(١) القول للأستاذ محمد عثمان جمال في « عبد الله بن المبارك الإمام القدوة » ، فإن كان يعني بن يلبسون مرقيعات الصوف ، أهل التصوف ، فنحن نخالفه بذلك ، المتقاوسون عن العمل والسعى باسم التصوف ، والتصوف منهم براء . التصوف الإيجابي المُحِقِّقي يتمثل بالعالم الإمام القدوة « ابن المبارك » ، فهل من موضوعي ينكر تصوفه وصلاحه وورعه وجهاده ... ومثالية هذا الإمام ، وانطباق أعماله ومعتقداته مع الشريعة كلياً ؟

(٢) إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .

(٣) أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ص ٩٥ .

(٤) حلية الأولياء ، ج ٨ ، ص ١٦٧ .

□ خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله ... سأله
الجنة^(١).

فما أشد معرفة ابن المبارك بالله ، وشدة حيائه منه . وهذا التصوف
ال حقيقي الإيجابي ، لقد صدرت تراجم الصوفية باسم ابن المبارك ، لكمال تصوفه
وبعده عن التواكل والبطالة والسلبية والقعود . ان تصوفه ، تصوف العالم
بأحكام الشرع ، العامل بها ، والدال عليها ، فالتصوف كما قال الشعرياني : « إنما
هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ
النفس^(٢) ». وقال الشعرياني : « لقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق
الله عز وجل ، إلا من تبحر في علم الشريعة ، وعلم منطوقها ومفهومها ،
وخاصها وعامها ، وناسخها ومنسوخها ، وتبحر في لغة العرب حتى عرف
مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي فقيه ، ولا عكس^(٣) » .

ولهذا الفقيه المتصرف كرامات عديدة جداً ، من كراماته ، كرامة لا
نذكر غيرها في هذا الصدد ، وهي تدل على قربه من الله عز وجل وعلى
مكانته عند ربها ، فقد كان عبد الله بن المبارك مجاب الدعوة^(٤) . وهذه أكبر
الكرامات .

ابن المبارك المجاهد :

□ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يُرْتَابُوا،
وَجَاهُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾
(الحجرات / ١٥) .

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٢) طبقات الشعرياني ، ج ١ ، ص ٤ .

(٣) طبقات الشعرياني ، ج ١ ، ص ٤ .

(٤) تهذيب التهذيب ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

□ لا يكمل إيمان مسلم وهو قاعد عن الجهاد في سبيل الله ، خوفاً على حياته أو ماله ، مستكيناً إلى الراحة والدعة . فالمؤمن مكتمل بالإيمان حسب ميزان الشريعة ، باع نفسه لله ، وهو يعلم أن كل نفس ذائقه الموت ، سواء قعدت أم جاهدت : « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (النساء / ٧٨) فلا يبالي المؤمن إذن أوقع الموت عليه ، أم على الموت وقع ، لأن الأجل والموت بيد الله عز وجل .

لقد كان ابن المبارك إماماً في محارب المسجد ، وإماماً في ساحة الجهاد ، فهو راهب في الليل ، فارس في النهار ، ما قعد بسبب العبادة في زاوية وترك الجهاد ، بل لم يجد لنفسه مبرراً واحداً للقعود عن الجهاد .

- قال ابن كثير عنه : كان كثير الغزو والحج^(١) .

- وقال الذبي عنده : فخر المجاهدين .

- وفي العبر : كان رأساً في الشجاعة ... وكان يحج سنة ، ويغزو مرابطأ في سبيل الله في التغور سنة . فرقة يرابط في طرسوس ، وأخرى في المصيصة^(٢) .. وغير ذلك من التغور الإسلامية .

وفي رباطه كان لا ينسى أن يعلم الناس ، فيجتمع حوله المجاهدون ، ويكتبون عنه الحديث ، كما يتعلمون منه الشجاعة . وقد أرسل من التغور مرة مع محمد بن إبراهيم إلى صديقه الفضيل بن عياض قال له فيها :

لعلت أنك بالعبادة تلعب
فنجورنا بدمائنا تتختب
يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
من كان يخصب جيده بدموعه

(١) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ .

(٢) طرسوس : مدينة بين إنطاكيا وحلب وبلاد الروم ، بها توفي الأمون عندما جاءها غازياً . كانت موطنًا للصالحين والزهاد وينتصرونها للرباط والجهاد . و « المصيصة » مدينة على شاطئ نهر جيحان ، تقارب طرسوس .

فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
 رهج السنابك والغبار الأطيب
 قول صحيح صادق لا يكذب
 أنف امرئ ، ودخان نارٍ تلهب
 أو كان يتعب خيله في باطلٍ
 ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
 ولقد أتانا من مقال نبينا
 لایلتقي غبار خيل الله في
 ولما قرأ الفضيل هذه الآيات ، بكى ، وذرفت عيناه بالدموع ، وقال :
 صدق أبو عبد الرحمن ونصح . وما كان ابن المبارك في التغر وراء الصفوف
 يحمس من خلفها . حدث عبدة المروزي قال : كنا في سرية مع عبد الله بن
 المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو . فلما التقى الصfan ، خرج رجل من
 العدو ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل ، فقتله الرومي ، ثم آخر فقتلته ،
 فتأخر عنه المسلمون فصال وجال بين الصفين ، ودعا إلى المبارزة فخرج إليه
 رجل فطارده ساعة ، ثم طعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس ، فكنت فين ازدحم
 إليه ، فإذا هو يلثم وجهه بكمه حتى لا يعرفه الناس ، فأخذت بطرف كمه
 فندته وأزاحته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله بن المبارك . فقال : وأنت يا أبا
 عمرو من يشنّع علينا^(١) ، (أي تنشر خبرنا) .

وعن عبيد الله بن سنان قال : كنت مع ابن المبارك ومع المعتز بن
 سليمان بطرسوس ، فصاح الناس : النفير ، فلما اصطف الناس ، خرج على
 رومي يطلب المبارزة ، فخرج إليه مسلم ، فقتله الرومي ثم ... ثم ... حتى
 قتل ستة من المسلمين ، ثم لم يخرج إليه أحد ، فلما رأى ابن المبارك ذلك ،
 أوصى إلَيْه وقال : إن قتلت فافعل كذا وكذا ، ثم خرج من الصف فقتله وقتل
 ستة من الكافرين ، ثم امتنعوا عنه ، فغاب ، ثم نظرته فإذا هو بالمكان الذي
 كان فيه .

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ، ص ١٦٧ .

رضي الله عنه وأرضاه ، كان يحضر القتال ، ويبلي بلاء حسناً ، فإذا كان وقت القسمة غاب ، فقيل له في ذلك ، فقال : يعرفني الذي أقاتل له .

وحدث عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في أرض الروم ، وبينما نحن نسير ذات ليلة والسماء - يعني المطر - من فوقنا ، والبلة من تحتنا ، قال ابن المبارك ، يا أبا محمد ، أفنينا أيامنا في الإيلاء والظهور عن مثل هذه الليالي ... فهو يندم - رضي الله عنه - على أيام قضاها في الفقه الكبير ، لأنه شغل عن جهاد الروم ، فغاية الفقه ، العمل ، وهل من عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله ! بعد إرضاء الوالدين وخدمتها ؟ وقد كسب الرضا وبقي في الجهاد ، فكسبه أيضاً .



وفي عام ١٨١هـ حضره الموت ، وهو عائد من غزواته من بعض الشغور .
فتح عبد الله عينه عند احتضاره وقال : « **لمثل هذا فليعمل العاملون** »
وسلم روحه إلى بارئها ، وتنتهي رحلة حياة كلها : علم وتقى وزهد ،
وورع ، وبذل ، وجهاد ، ودعوة ، وصفاء روح ، ونشر علم . ولما بلغ الرشيد
خبر وفاته قال : مات سيد العلماء ، ثم جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزوه
في ابن المبارك .

رحم الله ابن المبارك ، لقد مثل الشريعة أدق تمثيل ، فهو المثال الأسوة
« **أولئكَ الذينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِادِهِمْ أَقْتَدِهِ** ». »



أسد بن الفرات

«الفقيه المجاهد» (١)

□ ترعرع في القيروان ، وفيها أخذ يخطو خطواته الأولى نحو المعرفة ، وأخذ في حفظ القرآن ، وتطلع إلى حياة العلماء ورجال الفكر ، واستكمل دراسته في مدينة تونس على يد علي بن زياد العبسي ، وما يؤثر عنده قوله : اني لادعو الله لعلي بن زياد مع والدي ، لانه اول من تعلمته العلم عليه .

ثم رحل إلى المشرق عام ١٧٢ هـ ، فاتصل بمركز الثقافة العلمية في الحجاز ، والعراق ، ومصر ، مما أثر في تفكيره ، وجرى حياته .

في الحجاز قابل إمام دار المجرة ، مالك بن انس ، وكان شيخاً شارفاً الثانين ، تحيط به حالة من المجد العلمي ، فأمضى ابن الفرات فترة غير قصيرة من الزمن يجلس إلى مالك ويشهد حلقاته ، ويكتب عنه ، ويتحدث إليه .. فيتشرب في خلال ذلك روحه ومذهبة .

مارأه ابن الفرات في الحجاز ، حفز تطلعه العلمي ، وأثار رغبته في أن يمضي إلى العراق ، قبل عودته إلى أفريقيا ، وفي العراق ، وجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني من العناية به والرعاية لشأنه ، والتقد لحاجاته في عيشه ودرسه ، ماسدة خطاه ، ومضى به نحو غايته .

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولىبني سلم ، أبو عبد الله (١٤٢ - ٢١٣ هـ / ٨٢٨ - ٧٥٩ م) : قاضي القيروان ، وأحد القادة الفاتحين ، ولد بجران بأرض الجزيرة رحل به أبوه وهو طفل مع جيش محمد بن الأشعث الخزاعي . ولقي القضاء سنة ٢٠٤ هـ وبالحاج منه استعمله زياد الله الأغلبي على جيشه وأسطوله ، ووجهه لفتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، فهاجها بعشرة آلاف ، ودخلها فاتحاً ، وتوفي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة «أو سيراكوزا» برأ وجرا . راجع الأعلام : ج ١ ، ص ٢٩١ ، والعربي العدد ٥٤ ، صفحة ٥٠ ، مقال الدكتور الحاجري .

وهكذا قدر لابن الفرات ، أن يدرس المذهبين الكبيرين السائدين في العالم الإسلامي إذ ذاك : مذهب أهل الحديث في المدينة المنورة ، ومذهب أهل الرأي في بغداد .

وفي طريق عودته ، قابل في مصر ، أمّة الفقه من أصحاب مالك ، كعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن القاسم ، فقد لهم صلة ، وكان أكبر صلة مع ابن القاسم ، وكان ابن القاسم رجلاً واسع العلم ، شديد الورع ، نافذ البصيرة ، فأثار في نفس ابن الفرات ذكرى مالك . وكان مالك قد توفي أثناء مقام ابن الفرات في العراق - فرأى في ابن القاسم صورة من مالك ، جذبه إليه ، حتى قال للناس في المسجد : « معاشر الناس : إن كان مالك بن أنس قد مات ، فهذا مالك بن أنس » .

وقد انتجت هذه الصلة الوثيقة بين أسد بن الفرات واستاذه ابن القاسم ، أثراً من الآثار الخالدة في تاريخ المذهب المالكي ، هو ذلك الكتاب الذي تلقاه عنه ، وحمله معه إلى القيروان ، ونسب إليه فسمى « الأسدية » .

اخذ القيروان مقرأ له بعد عودته ، فأقبل الناس يتلمسون حصيلة الرحلة العلية الطويلة . فكان يجلس إليه أتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيين ، فإذا فرغ منها صاحب صالح من جانب المجلس : « أود المصباح الثاني يا أبا عبد الله » ، فيأخذ في ايراد مذهب مالك وشرح أقوال المدینيين . وهذا نهج جديد في دراسة الفقه المقارن اتسعت دراسته في القيروان .

عرف قدره ، وقدر ما يحمل في فكره ، وبحره في الفقه ، علي بن حميد وزير الأمير زيادة الله الأغلبي ، فولاه زيادة الله بداع من ابن حميد منصب

القضاء ، الى جانب أبي حرز الكتاني . وكان من الطبيعي أن ينشأ عن مشاركة الرجلين في القضاء ، خلافات ومشادات ومحاصمة ، ولكنها كانت خصومة في الرأي ، لا تتجاوز حدودها . فقد كان يعصهما من ذلك دين يكفي الرجلين . **وما أحوجنا الى دين يعصم الجميع من تجاوز الحدود ،** ومروءة ترتفع بكل خصام عن سفاسف الأمور ، فلا يستحل أحد من صاحبه مانهـ الله عنه ؟ !

وفي عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه ، يتقرب بها الى الله ، باعازار دينه ، وجihad أعدائه ، فرفض الامير الاغليبي طلبه ، ولكنه ألح في التراس تحقيق رغبته ، وكان يقول : « وجدوني رخيصاً ، فلم يقبلوني . لانه تجاوز السبعين من عمره » ، « وقد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية ، فما أحوجها الى من يجريها لهم بالكتاب والسنة » . فهو يريد أن الحرب ليس أمراً مادياً فحسب ، بل أمر روحي فكري أيضاً ، يشد العزائم ، ويثير النفوس ويشوّقها الى الجهاد . وهذا ما يسمى اليوم « التوجيه المعنوي في الجيوش » .

ويستجيب الامير زيادة الله له ، ويوليه صقلية ، فقال ابن الفرات : أصلح الله الامير ! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتوليني الإمارة . لقد رأى ابن الفرات النظر في حلال الله وحرامه ، فوق الإمارة ، وأسمى منها ، وأعلى منها مرتبة ، فقال زيادة الله : إني لم أعزلك عن القضاء ، بل وليتك الإمارة ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير .

وعند الوداع في ميناء « سوسة » ، وقف المشيعون من العلماء والوجوه ورجال الدولة ، وعامة الناس ، فكان مشهداً أثار نفس ابن الفرات ، فوقف في الناس وقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، والله ياماشر الناس

ما ولِيَ لِي أَبْ وَلَا جَدْ وَلَا يَةٌ قَطُّ ، وَمَا رأَى أَحَدٌ مِنْ سَلْفِيِّ مِثْلَ هَذَا قَطُّ ، وَمَا رَأَيْتُ مَا تَرَوْنَ إِلَّا بِالْقَلْمَ ، فَأَجْهَدُوكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَأَعْبُرُوكُمْ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ ، وَكَثُرُوا عَلَيْهِ ، وَاصْبَرُوا عَلَى شَدْتِهِ ، فَإِنَّكُمْ تَنَالُونَ بِهِ الدِّينَ وَالْآخِرَةِ » .

ولما بلغ صقلية ، قاد الجيش الى النصر ، وأبلى في الحرب بلاءً مذكوراً ، وتمكن للمسلمين من هذه الجزيرة بحسن تدبيره ، وصدق ايمانه ، وقوه ارادته ، ووقفه في وجه دعاة المزية ، موقفاً حازماً حاسماً ، لم تأخذه فيه هوادة ، ولم يرقب فيه الا وجه الله ، وعز المسلمين ، وذلك حين أضر بالناس الجوع ، ودخلتهم بعض الوساوس .

ثم توفي رحمه الله ، متأثراً بجراحه التي أصابته وهو محاصر لسرقوسة ، في شهر ربيع الآخرة سنة ثلاثة عشرة ومائتين للهجرة .

وبذلك ختمت هذه الصفحة المشرقة ، المجدية بأن نفخر بها ، ونطيل تأملها ، فهذا هو فقه الدين الحق ، مع الأحكام الفقهية ، وهي جانب من الشريعة ، جهاد عملي بالروح والنفس والجسد ، وهذا جانب آخر من الشريعة .

رحم الله أسد بن الفرات فقد جمع الفقه والجهاد في شخصه ، رحمه الله : ما جلس لسائل فقهية يكررها على الناس ، وما جلس يتحذلق بترف فقهى يعرضه كل يوم بشكل جديد ليكسب مدح الناس ، وليقال عنه : انه عالم ! ما جلس وقال : الفقه هو الدين كله ، هو الشرع بأجمعه . بل قام يطلب الجهاد ، لنشر كلمة الله عز وجل ، وتطبيقاً لفقه آيات الجهاد في القرآن الكريم .



أبو حامد الغزالي

« حجّة الإسلام » (١)

□ ترجمة حياة الغزالي كتاريخ ، دونتها في هامش الصفحة ، أما الذي يهمنا هنا مباشرة ، فهو فهم الغزالي « للشريعة وميزانها الدقيق » وحفظه للقرآن من الضياع .

□ يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة ، أنهما اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده ، والاعتذار عن الدين الإسلامي ، فكانت الفلسفة هاجم ، وهؤلاء يدافعون عن الإسلام ، وينفون عنه التهم الموجهة إليه . ويحاولون أن يبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته . فكان علم الكلام كان جنة تتلقى هجمات الفلسفة ، وتحصن العقيدة الإسلامية . ولم يجرئ أحد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها ، لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلعهم في أصولها وفروعها . ولعدم تسلحهم بالأسلحة التي يواجهون بها الفلسفة ويوسعونها جرحًا وتقديًّا ، فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية ، وموقف الدفاع دائمًا قد لا يخلو من ضعف ، فغايتها أن يسامح المتهم ويعفى عنه .

□ أما الغزالي

فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد ، هاجمها هجوماً عنيفاً مبنياً

(١) « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ط٢، ١٩٦٩ الكويت ، صفحة ٢٠٦ وما بعدها .

□ أبو حامد محمد الغزالي الطوسي : (من ٤٥٠ هـ / الـ ١٠٥٨ : ٥٠٥ هـ - ١١١١ م) ، مولده ووفاته في الطايران (قصبة طوس ، بخراسان) رحل إلى نيسابور ، ثم إلى بغداد فالحجاج فبلاد الشام فصر ، وعاد إلى بلدته . نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الراي) أو إلى غزاله (من قرى طوس) لم قال بالتفخيف . له نحو مئتي مصنف ، أشهرها : أحياء علوم الدين ، تهافت الفلسفه ، المنقد من الضلال ...

على الدراسة والبحث العلمي ، وحجة مجده ، وعقل مثل عقل الفلسفة الكبار ومدوني الفلسفة ، وأجلأ الفلسفة الى أن تقف موقف المتهم ، وأجلأ مثيلها الى أن يقفوا موقف المدافعين ، فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الاسلامية عادت به الثقة الى نفوس اتباعها والمؤمنين بها ، وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية .

□ كان يؤمن بأنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على متنى ذلك العلم ، حتى يساوي أحالمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويتجاوز درجته . فجد واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على متنى علومهم ، ثم لم يستعجل كذلك ، ولم يبدأ بالهجوم ، بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة قد ألفت بلغة رمزية ، وبأسلوب غير واضح ، وكان مؤلفوها قد تعمدوا ذلك ، ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يحسنون التأليف ، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ، ونظرياتها ومسائلها بلغة سهلة واضحة ، وأسلوب مشرق » .

وقد رزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية واياضها ، فكسر ذلك السياج ، ورفع الاحتكار العلمي ، وألف كتاب : « مقاصد الفلسفة » ، ذكر فيه المصطلحات والمباحث الفلسفية من غير تعليق ولا تقد ، وعرض الفلسفة كأحسن ما يعرضها رجال الفلسفة .

وفي عمله الثاني ، بدأ الهجوم على الفلسفة ، وأخذ ينقد الفلسفة ، ومن روئته أنه تكلم عن صديق الاسلام « الجاهل » ، وما أكثرهم في أيامنا هذه ، انتقد أولئك الذين يرون أن انكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية ، خدمة

دينية ، ونصرة للإسلام ، ومحاربة للكفر والضلال ، فكان جهادهم من غير عدو ، وكانت جنائية على الدين .

يقول في كتابه « المنقد من الضلال » صفحة ٩٠ وما بعدها : « الآفة الثانية نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن ان الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب ، فانكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى انكر قوله في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرر ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وانكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللإسلام بغضاً ، ولقد عظم على الدين جنائية من ظن أن الإسلام يُنصر بانكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرّض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرّض للأمور الدينية » .

□ ومن مؤلفات الغزالي بعد ذلك « تهافت الفلسفه »^(١) : وهو في أربع مقدمات ، ذكر فيها منهاجه في البحث ، وشرح حال الفلسفه ، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة والتي لا تصادمها ، وناقشت الفلسفه في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الإلهيه ، بعد هذا كله ، يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلسفه ومناقشتهم في ذلك ، في ضوء البحث العلمي والمحجة العقلية ، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع في الطبيعيات ، ويبين فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم .

(١) لقد ألقى ابن رشد فيما بعد كتابه « تهافت التهافت » ولم يكن ملخصاً في وضع تسمية هذا الكتاب ، ولا مبرأ من حب التحذق ، واظهار الفضل والسبق في مضمار الفلسفه ، فناقش الإمام في كل ما ردّ به على الفلسفه من المسائل ، مناقشة لم يقصد بها ابطال المقايق التي دافع عنها الإمام ، بل أراد بها اظهار خطئه في طريقة الاستدلال ، وكان رحمة الله في غنى عن هذا اللُّمْز والتَّفْيِيق ...

ويتسم الكتاب بقوة التعبير ، وسلامة العبارة ، وسهولة الاسلوب ... ويدل على أن مؤلفه ممتلىء بالبيان والثقة بدينه والاعتزاد بشخصيته وتفكيره . كما هم ونقد نقداً لاذعا في أسلوب رائع ، ليقمع غرور الذين أصيروا برك النقص وخضعوا للفلاسفة ...

لقد أعاد الغزالي إلى القرآن والشريعة كل هيبيتها في النفوس ، وحفظ القرآن من الضياع فقد فهم زمانه ، فهم حاجة زمانه ، وعقل المسلمين في زمانه ، وعرف حاجتهم ، فجاء : « تهافت الفلسفه » في أوانه ، وقضى حاجة زمانه ، وكان في زمانه « باطنية » تذرعت بالفلسفه ، وظهرت بظاهر ديني - سياسي الف للرد عليهم^(١) : المستظاهري ، حجة الحق ، مفصل الخلاف ، قاصم الباطنية ...

□ أما إحياء علوم الدين :

فقد أله الغزالي بعد أن أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقة ، وانكشفت له حقائق العلم ...

□ تقييم الاحياء :

- قال عنه الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل المعروف بالعربي ، صاحب الألفية في مصطلح الحديث : إنه من أجل كتب الإسلام^(٢) .
- وكان الإمام النووي شديد الاعجاب بالإحياء ، عظيم الشغف به .

- أما ابن الجوزي فقد انتقده في مواضع ، ورأى أن الاحياء قد اشتمل على

(١) لم يطبع من كتبه في الرد على الباطنية ، وفضائل المستظاهري ، وهو المعروف بالمستظاهري ، نشر منه (كولد تسير) قسماً كبيراً ، ويبحث فيه بحثاً طويلاً باللغة الالمانية ، طبع في لينن ١٩١٦ مع المتن العربي ، أما الاخرية ففقودة ، كما يظهر من مقدمات « المتقد من الضلال للاستاذين جيل صليباً ، وكامل عياد . (راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢١٧) .

(٢) تعريف الاحياء بفضائل الاحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ للعيذروس ، ص : ١٤ .

أحاديث غير ثابتة عن طريق المحدثين ، غير أنه اعترف بتأثيره ، واختصره في كتاب سماه « منهاج القاصدين » .

ومن لاحظ نعرضاً : مما يلاحظ أن كثيراً من يقتصر على مطالعة هذا الكتاب - الاحياء - أو يكثر من قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غلو في الزهد والتقصيف ، ومخالفة النفس في المباحث ، والكرامة للحياة ، والاكتثار من الرياضيات والمجاهدات . وقد يكون مرجع ذلك أن الغزالي عند تصنيفه « الاحياء » كان في حالة قد غلت عليه فيها الخوف والميبة - وكان متاثراً شديداً التأثر - فجاء كلامه صورة صادقة لنفسه المتأثرة .

وعلى ما فيه من أحاديث ضعيفة ، وغلو صوفي ، وهضم للنفس وترك المباحث ، إلى غير ذلك من مأخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي^(١) . وابن تيمية مع اعترافها بفضل الكتاب ، فهو في مقدمة الكتب الإسلامية التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصر وجيل .

☆ ☆ ☆

□ اعتبر الغزالي أن التبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل ، والضعف في الدين ، والانحلال في الأخلاق ، الذي حدث في القرن الخامس الهجري ، تقع على العلماء ورجال الدين . وهم السبب الأول في فساد هذه الوضاع ، لأنهم ملح الأمة . وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه ، ويتمثل الغزالي ببيت خطيب فيه العلماء :

يامعشر القراء ياملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟!
□ والغزالي حق في تقاده ، ما انتقد العالم العامل ، فهو عاش في

(١) انظر - المنظم - لابن الجوزي ، ج ٩ ، ص ١٦٩/١٧٠ طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى) ج ٢ ، ص ١٩٤ .

عصر انتقد علماءه ، علماء القراء ، لا الذين قرؤوا وتمثلت المعاني فيهم فقاموا للعمل في مجتمع فسدت أوضاعه . ونحن إذ ننتقد ، ننتقد (عشر القراء) الذين انتقدتهم الغزالي ليس غير . وهم الذين « أضاعوا القرآن » .

ويذكر الغزالي كيف مرضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن المعاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها : مرض العلماء واعتلامهم ، وهم أطباء القلوب .

ويقول : والداء العossal ، فَقُدِّ الطَّبِيبُ ، فَإِنَّ الْأَطْبَاءَ هُمُ الْعُلَمَاءُ ، وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضًا شديداً ، وعجزوا عن علاجه ، وما أشبه اليوم بالبارحة !

□ ويقول في موضع آخر : « فان الاطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه ، فلهذا صار الداء عossalا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عادات وباطنها عادات ومراءة^(١) .

ومن روائعه :

□ « انتقد العلماء وسعيelin بالعلم لغلوهم في الاكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافات ، والذلة ، والجدل ، والتعمق في العلوم الآلية : كالنحو ، واللغة ، والشعر ، والغريب ، والانبهاك به . وانتقد الصوفية لاكتفائها بحفظ أقوال المشايخ وأخبارهم ، ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع

(١) أحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ب ٣ .

اغتر بها أربابها ، فَأَمَّا عِلْمُ الطِّبِّ والحساب والصناعات وما يعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْمِ الشَّرْعِ ، فَلَا يَعْتَقِدُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يَنالُونَ الْمُغْفِرَةَ بِهَا مِنْ حِيثِ أَنَّهَا عِلْمٌ ، فَكَانَ الغُرُورُ بِهَا أَقْلَى مِنَ الْغُرُورِ بِعِلْمِ الشَّرْعِ^(١) .

والغزالى ينبه الى أهمية العلوم كلها ، فعليها بناء المجتمع ، « ولا ينبغي أن يفتر رأيك في طلب العلوم الدنيوية بما حكيناه عن طرق الصوفية ، فانهم لا يعتقدون حقارة العلوم ، بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها ، وما ذكروه إنما أوردوه بالإضافة الى مرتبة الانبياء والآولياء . ومن قصد التقرب الى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة » .

وفي كتابه « جواهر القرآن » ، يدل دلالة واضحة على ايمانه العميق بطلب العلوم و دراستها ، كعلم البدن والطبيعتيات ، والفلكيات والنباتات ، بل وعلوم الآلات بسائر فروعها . فإذا قال القرآن مثلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا عَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمُ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَبَكَ^(٢) ﴾ . فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها ، إلا من عرف ت Shir'iح الاعضاء ، ظاهراً أو باطننا و عددها وأنواعها وكلمتها ومنافعها ... !

وإذا قال القرآن : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسْبَانٍ^(٣) ، وَ^(٤) وَخَسَفَ الْقَمَرَ وَجَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ^(٥) ، وَ^(٦) وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِسْتَرَهَا^(٧) .

فلا يعرف حقيقة الشمس وسيرها وأبراجها ومنازلها ، وكيفية تكور

(١) الاحياء ... ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) الانفطار ، الآية الكريمة . ٦ - ٧ - ٨ .

(٣) سورة الرحمن . الآية الكريمة : ٥ .

(٤) سورة القيامة . الآية الكريمة : ٩ .

(٥) سورة يس . الآية الكريمة : ٢٨ .

احدها على الآخر ، إلا من عرف هيئات تركيب السموات والارض ، وهو علم تتفرع منه علوم .

هذا هو الفهم السليم « للشريعة وميزانها الدقيق » .

□ رحم الله أبا حامد الغزالي الذي كان موضوعيا في تقاده ، وفاماً متطلبات عصره فيها سليما ، لقد انتقد أهل الفقه الذين تكلموا وأطالوا بظهور الجسد والثياب والمكان ونسوا طهور القلب والنفس والروح ، فكم من طاهر الثياب والجسد ، وروحه غارقة في انتقادات حب الشهوات والغدر والخيانة .

انتقد الفقهاء الذين تكلموا عن وجة الجسد الى القبلة ، وهذا مأسهله من أمر ، ونسوا توجيه القلب الى الله : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض ... » .

كما انتقد غلاة المتصوفة الذين صرفا الناس عن العلوم الدنيوية ، أما ماسمهو علوما دنيوية ، ففي اعتقادنا كل العلوم علوم تطلب لله وللدين ورفعته ، انتقدتهم انتقادا صحيحا ، لأنهم زهدوا الناس بالدنيا ، فعم بها الكافر ، وخلقها الله للمؤمن ، فالزهد عملٌ من أعمال القلب .

□ ما أروع فهم الغزالي للزهد ، (لقد وصفَ الليثُ بن سعد الذي كان يقارع في الغنى أبي حنيفة ، وصفه الشافعي بالزهد والورع) وهذا ما أراد فهمه الغزالي . امتلاك المال وبيقى القلب مع الله . المال في اليد ، والقلب مع الله ، هذا هو الزهد كما فهمه الشافعي ، وفهمه كذلك الغزالي .

رحم الله الغزالي فقد كان من حفظة القرآن ، ومن أصحاب الميزان الحقيقين .



العِزَّى بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ

« سلطانُ العلماء (١) »

□ أجمع فقهاء عصره على أنه سلطان العلماء ، إذ كان الشيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبها بمنزلة رفيعة ، فقد كتب المؤلفات الكثيرة في الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة . كما شارك في التصوف مشاركة علمية وعملية .

أخذ التصوف عن الشيخ شهاب الدين السهرودي ، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وله فهم رائع لحقيقة التصوف سنعرضه في حينه .

لقد تنسك وكتب في المواجد والمقامات ، والحق أن العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم ، فقد كان سلطان الدولة بما فيها من ملوك وأمراء . وعرفانا بالواقع وادعاناً له : عزل كثير من الفقهاء أنفسهم عن الفتوى ، كالحافظ المندربي ، مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

□ آلى العز على نفسه أن يتعقب الفساد في كل مكان ، فلا يقطع لسانه عن باطل منها جل ذووه ، وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصالح اسماعيل ، ودبَّ بينه وبين نجم الدين أيوب خلاف شديد ، لقد خاف الملك الصالح على ملكه ، فصالح الفرخجة من الصليبيين على أن ينقذوه من ملك مصر ، مقابل أن يسلم إليهم صيدا والشقيف وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث

(١) (علماء في وجه الطغيان) ، ص ٦٤ وما بعدها . وهو : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السفياني الدمشقي ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء . فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهد . لما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة صفد اختياراً ، أنكر عليه العز ولم يدع له في الخطبة ، فغضب وجسأ ، ثم أطلقه فخرج من دمشق إلى مصر . ولد بدمشق عام : ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، وتوفي بالقاهرة : ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م .

الصلبيون أن دخلوا دمشق بقتضى المعاهدة ، وأخذوا يبحثون عن السلاح
يشترونه ويعدون أنفسهم لمحاربة المسلمين .

عرض العز هذا على « ميزان الشريعة » ، فعظم ذلك عليه ، وافتى
بتحرير بيع السلاح ، وأرrou فمه السليم واجتهد الصائب ، فبنج البيع
مصلحة المسلمين ، وحيث تكون المصلحة فثم شرع الله . بيع السلاح فيه ضرر
للمسلمين ، النتيجة في ميزان العالم الفاهم للشرع : بيعه حرام .

ليس هذا فقط .. بل نَدَد بالصالح إسماعيل في مجالسه . وكان تنديده
منطلقاً من حكم الشريعة ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تَبَرْمَة وسخطه على السلطان
الغادر ، دون أن يعبأ بإرهاب يتهدده .

وانتشرت ثورة العز بالمدينة ، فانزعج لها الصالح إسماعيل ازعاجاً شديداً
وأصدر أمراً بعزله وحبسه ، فما زادت الثورة إلا استفحالاً . فاطلقه الملك على
أن يغادر دمشق . وخرج العز إلى كنائس الله ، وقلوب أهل الشام تتبعه .
فاتخذ منبره بالفسطاط مذياعاً جديداً يرسل به النذر ، ويقيم الحجج : « ليهلك
من هلك عن بيّنة ، ويحييا من حي عن بيّنة » .

□ مرّ ذات صباح على صديقه الصالح أئيب في يوم عيد ، وقد أخذ
السلطان زينته ، وخرج على قومه ، والجنود مصطفون بين يديه ، والأمراء
يقبلون الأرض بين يديه ، فالتفت الشيخ إلى السلطان في أبهته الأخاذة ،
وتيهه المتعاظم ، وصاح به : يا أئيب ما حجتك عند الله ، إذا قال لك ألم
أبوئك ملك مصر ، ثم تبيع الخمور ؟ !

فاندهش الملك وقال : هل حصل ذلك !

قال الشيخ : نعم . حانة فلان وحانة فلان .

قال السلطان : هذا من زمان أبي وما صنعت شيئاً .

قال الشيخ : ما هذا ! أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة !

لقد كان جواب العز جواب « ميزان الشرع » ، لذلك ... أصدر السلطان أمراً بإغلاق الحانات فوراً . ورجع الشيخ إلى درسه ، فسأله تلميذ عن موقفه ، لنسمع الجواب الدقيق ، الذي زين « ميزان الشريعة » . قال العز : يابني لقد رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لثلا تكبر عليه نفسه ، فتوذيه ، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى إذ أخاطبه ، فصار السلطان عندي أقل من القطر . إن موقف السلطان يذكرنا بالأية الكريمة :

﴿ ولا تمش في الأرض مَرَحاً ، إِنَّك لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَبَالَ طَوْلًا ، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ . (الإسراء ٣٨) .

□ ورث العز النبي ﷺ في علمه وسيفه ، كاً جاحد بلسانه . إحياء السنة ليس بالأشياء السهلة : سواك ، وحركة أصبع في التشهد ،

بل إن إحياء السنة الشريفة بالجهاد حين ينادي منادي الجهاد .

ولما هاجم الصليبيون دمياط ، كان العز من بين الجندي المسلم هناك ، يجاحد بسيفه ، ويحمس الجندي بكلمته . ويروي المؤرخون أن الريح قد لفتحت السفن الإسلامية المصرية بادئ ذي بدء ، فكأنها تحاربها من الوصول إلى ما تريده . فوق العز ينادي بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبادك المسلمين . ويلوح بيده إلى ناحية الصليبيين ، فتغير الوضع ، وانكسرت الرؤوس إلى سفن الفرنجية ، وكان موقف العز مصدر يُمْنِي وإقبال ، وكانت كرامة مؤمن ينهج سبيل رسول الله ، ويضع « ميزان الشريعة » نصب عينيه . وتم ببركته وخلاصه النصر ، وانطلقت الأغاريد .

وَبِالْمَنَاسَبَةِ

كان بعض العلماء يقرؤون صحيح البخاري ، إذا داهم عدوًّا البلاد ، بنية صد العدو ودرجه ! ولا شك أن هذا ميت للإسلام ، فهو دليل التواكل ، والقيام بالأعمال السهلة ، دون القيام بالجهاد ومقارعة العدو ، الحقيقة قراءة صحيح البخاري ، ليست لكل فصوله وأبوابه .

كان العلماء يتواجدون في أرض المعركة ، يقرؤون من البخاري أبواب الجهاد والرباط والغزو ونحوه فقط ، وفيها بلاغات النبوة ، ومنشورات الرسالة في الترغيب المطلق في فريضة الجهاد ، وبذل الدم والمال في سبيل الله .

كان العالم هو المجاهد في الخط الأول ، وهو المحرض للمؤمنين ، وقد وفthem وهو باعث الهم في نفوسهم ، كان يعلن للجند ، جند الله ، أحاديث الجهاد في البخاري لتطبق لا ليتبارك بها فقط ، كان يقرؤها في ميدان المعركة ، لا في صومعة تبعد عن أرض الجهاد آلاف الكيلومترات .

كان يذكرهم بقول رسول الله : من مات ولم يغز ولم ينـو الغزو ، مات ميتة جاهلية ، ومات على شعبة من النفاق ، ومات في دينه ثلة ، كان يعلن لجند الله : بأن رباط ساعة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ويعلن أن من يَفِرُّ من الزحف يقع في الكبائر الموبقة ، وبأن الشهيد يتمنى لو أحياه الله فقتل ، ثم أحياه فقتل ، لما يجده من عظيم ثواب الله ، ومقامات الشهداء عند الله . كان يعلن في جند الله إذا وطئ المستعمر أرض الوطن وجب أن يخرج إليه الجميع ، حتى المرأة من غير إذن زوجها ... ومن تأخر عن هذا النفير ، فقد خلع رقبة الإسلام .

فكان العالم يبعث في نفوسهم طاقة الإيـان الكـبرـى ، ويدفعـهم إلى الكـفـاح

والجهاد بالقوة الذاتية ، والصدق في حب الله والثقة به ، كأنهم يشمون ريح الجنة دون عدوهم .

لقد خرج الإمام أبو الحسن الشاذلي (وهو كفيف يقاد) إلى الجهاد في واقعة المنصورة ضد الصليبيين ، ومن حوله العلماء من أمثال من نتكلم عن فهمه السليم للإسلام « ميزان الشريعة » : العز بن عبد السلام ، فبث التضحية والقدائمة والصبر والقوة والبذل في نفوس الجندي ، فيفيضون إلى الصفوف زحفاً .

وينادي الإمام العز ، وقد حمل عمامته طرباً ، وتأثراً ، على كفه : (من كان يريد الكلام القريب العهد من الله ، فليأت ، ليسمع أبا الحسن) ، نعم قرأ أبو الحسن الشاذلي باب الجهاد في البخاري ، فزحف الناس ، وكانت الغلبة لأهل الذين تثلوا البخاري ، وأسر ملك فرنسا (لويس) ، وهل وضع في بيت ابن لقمان أسيراً ، ببركة القراءة ؟ لا ... ببركة تطبيق القراءة مباشرة على الطبيعة ، على أرض المعركة .

صدق رسول الله ﷺ : « تعلموا ما شئتم ، فإن الله تعالى لن ينفعكم به حتى تعملوا » فكان العلماء يعملون بما علموا ، وعمل جند الله بما علموا . وهذا هو « ميزان الشريعة » .



والشيء بالشيء يُذكر :

□ زمن الخديوي إسماعيل^(١) ، وقعت الحرب بين مصر والحبشة ، فتوالت

(١) حكم مصر بعد عهده سعيد عام ١٨٦٣ ، عزل عام ١٨٧٩ لإسرافه وتبذيره وعين السلطان العثماني ابنه توفيقاً

خلفاً له

الهزائم أيام الخديوي على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها . فضاق صدر الخديوي لذلك ، فركب مع شريف باشا وهو مخرج^(١) ، فأراد أن يفُرّج عن نفسه ، فقال لشريف باشا : مَاذَا تصنع حينما تلم بك ملمة ت يريد أن تدفعها ؟ !
قال : يا أفندينا ، إِنَّ اللَّهَ عَوْدِنِي إِذَا حَاقَ بِي شَيْءٌ مِّنْ هَذَا ، أَنْ أَلْجأَ إِلَى صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ ، يَقْرَأُهُ لِي عَلَمَاءُ أَطْهَارِ الْأَنْفَاسِ ، فَيُفْرِجَ اللَّهُ عَنِّي .

(هذا فهم سقيم ورخيص للإسلام ، والذي استغربه رغم خطأ التصرف ، لما يقرؤون صحيح البخاري ولا يقرؤون القرآن وهو أفضل ؟ !) .

والذي حدث ، أن جمع شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ العروسي^(٢) نخبة من العلماء ، وأخذ جميعهم يتلون البخاري أمام القبلة القدية في الأزهر ، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتواتي

فذهب الخديوي إسماعيل ومعه شريف باشا إلى العلماء المجتمعين ، وقال لهم محنقاً :

□ إِمَّا أَنْ هَذَا الَّذِي تَقْرُئُونَهُ لَيْسَ صَحِيحَ الْبَخَارِيِّ ، أَوْ إِنَّكُمْ لَسْتُمُ الْعَالَمَاءَ الَّذِينَ نَعْرَفُهُمْ مِّنْ رِجَالِ السَّلْفِ الصَّالِحِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُدْفِعْ بِكُمْ وَلَا بِتَلَاقِتِكُمْ شَيْئاً .

فوجم العلماء بذلك . وابتدره شيخ من آخر الصف ، وضع الحادثة والتلاوة وحديثه على « ميزان الشريعة » يقول له : منك يا إسماعيل ، فإنـا

(١) وصل شريف باشا إلى رئاسة الوزراء بعد ثورة عرابي عام ١٨٨١ .

(٢) العروسي : « ١٢١٣ - ١٢٩٣ - ١٧٩٩هـ ١٨٧٦ » وهو مصطفى بن محمد بن أحد بن موسى العروسي ، فقيه شافعي مصري ، من ولی مشيخة الأزهر عام ١٢٨١هـ . وكان مشغوفاً بابطال البدع ، فأبطل الشحادة بالقرآن في الطرق ، وعزم على امتحان المدرسين في الأزهر ، فخاقته المشايخ والطلبة ، فعزل سنة ١٢٨٧هـ . له مؤلفات منها : « نتائج الأفكار القدسية » في التصوف ، أربعة أجزاء ، و« كشف الغمة في تقييد معانٍ أوعية سيد الأمة » و« العقود الفرائد في بيان معانٍ العقائد » و« أحكام المفاکهات في أنواع الفنون المتفرقات » ...

روينا عن النبي ﷺ أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهونَ عن المنكر ، أو
ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

فزاد وجوم المشايخ ، وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ولم ينسا
 بكلمة ، واخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه ، فبينما هم كذلك ، إذا بشريف
 باشا قد عاد يسأل : أين الشيخ القائل لاخديوي ما قال ؟ فقال : أنا ، فأخذته
 وقام .

وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ ، يودعونه وداع من
 لا يأملون أن يرجع ، وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في
 قصره ، فإذا به قاعد في البهو وجلس الشيخ على كرسي أمام الخديوي فقال
 الخديوي : أعد ياأستاذ ما قلته لي في الأزهر ...

إن كلمة الناقد الخلص البناء ، التي يقولها بغيرة من دينه ، لا من هواد
 للتجريح والتخريب والدس ، تستقر في القلب ، وتجد لها في نفوس الخلائق
 مستقرأً .

فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه ، فقال له الخديوي : ماذ
 صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟

قال له : يا أفندينا أليس المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون بيع الربا ،
 أليس الزنى برخصة ؟ أليس الخمر مباحاً ؟ ... أليس ... أليس .. عدد له
 منكرات تجري بلا إنكار ، وقال : فكيف تنتظر النصر من السماء ؟

قال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشنا الأجانب وهذه مدنيتهم ؟

قال الشيخ : فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء !

ففكر الخديوي ملياً وأطرق طويلاً ثم قال له : صدقت ، وأمر فرتب له ثلاثون جنيناً ، وعاد الشيخ بعد هذا إلى الأزهر وإخوانه قد يئسوا منه ، فكأنما قد ولد من جديد .



نعود إلى العز بن عبد السلام ، الذي جرنا فهمه السليم « الميزان الشريعة » إلى حديث الخديوي إسماعيل .

□ لقد استأنف العز جهاده ، فدعا إلى محاربة أعداء الإسلام « التتار » ، ولما رأى أن تجمع الأموال من الرعية ليستعين بها الجيش في نضاله الرهيب ، ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مسلم به لا يقبل الاعتراض ، ولكن صيحة الشيخ تعلو بكلمة الميزان ، بكلمة الحق ، فيقول : لكم أن تفرضوا على الرعية كما تريدون في مثل هذه الأحوال العصيبة ، إذا لم يبق في بيت المال شيء ، وإذا باع الماليك جواهرهم النفيسة ، وأدواتهم المذهبة ، وذخائرهم الثمينة ، ولم يبق لهم شيء غير ما للعمامة ، فيتساوى الجميع ، وتفرض الضرائب على الرؤوس . وقد أذعن الحضور لأمر الشيخ ، ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطز^(١) . فكتب الله النصر للإسلام خالداً ، بهزيمة التتار ، لأول مرة في موقعة عين جالوت .

ولما اغتيل قطز ، أراد الملك بيبرس أن يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها . وكان له من الجبروت والبطش ، ماإرهب وأفزع ! ولكن العز لم يعبأ

(١) المظفر قطز بن عبد الله المعزى . سيف الدين : ثالث ملوك الماليك بمصر والشام ، كان مملوكاً للمعز « أبيك » التركاني . وترقى إلى أن كان في دولة المنصور « أباك » العساكر ، ثم خلع المنصور وتسلط مكانته سنة ٦٥٧هـ . بغض لقتال التتار فهزمه وظفر بهم في عين جالوت ٦٥٨هـ . ودخل دمشق في موكب عظيم مهيب . وفي طريق عودته إلى مصر اغتاله « بيبرس » عام : ١٢٦٠هـ / ١٢٦٠ م . دفن في القصرين ثم نقل إلى القاهرة .

به ، فامتنع عن مبaitته ، وقال له في صراحة عالية جهيبة : ياركن الدين ، أنا أعرفك ملوك البدقداري ولم يثبت لدى عتقك الآن ، فكيف أبaitنك ، فاستحضر الظاهر بيبرس شهوداً يعترفون بخروجه من ملك سيده واسترداد حريته ، فبaitه الشيخ ، وبائع خلفه الجميع .

□ بلغ العز مرتة ، أن الأمير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكاناً للزمر والطبل ، فبني به ما كان يسمى « طبلخانة » فقام العز بنفسه ، وصاحب جماعة من تلاميذه ، وهدم البناء ، فأزال المنكر بيده ليحقق الشريعة :

كانوا أجل من الملوك جلالـة
وأعز سلطاناً وأفخم مظهراً
ليس ذلك بلاعة شعرية ، إن حقيقة البيت جلية في حياة العز ، وفي
مواقفه السابقة ..

□ ولما توفي العز ، تنفس الظاهر بيبرس الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة ، ووراءها آلاف وآلاف من لا يحصون ، حتى قال بيبرس قوله الشهيرة : « اليوم قد استقر أمري ... »

رحم الله العز الذي باع أمراء الملائكة ، ونادى عليهم . وقبض ثنهم وأودعه بيت المال ، لقد صاح النادي : (أمراء للبيع ، أمراء للبيع) .
وبعد ...

قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك خوفاً شديداً من بأس
الأمير .

فصاح العز بابنه : لا تقل ذلك يابني ، فأبوك أهون من أن يقتل في
سبيل الله .

مُحَمَّدُ الدِّينِ النَّوْوَى

□ الفقيه العلامة^(١) ، ألف كتاباً عديدة ، وطارت شهرته في فقه المذهب الشافعي ، فتجدد آراءه الدقيقة ، يتناقلها المؤلفون - حتى في غير كتبه - لتكوين أداة ترجيح بين رأي ورأي ، وتلمس نور قلبه في كثير من مؤلفاته مثل : رياض الصالحين ، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، وبستان العارفين في التصوف .. إذ أن أمثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق ، يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح ، أما دقته العلمية فتضخ في كتب أخرى مثل التحرير في الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهج ، والمحمد .. وغيرها .

لذلك نرى شيخاً جليلاً كتقي الدين السبكي ، ينزل إلى قاعة الحديث الأشرفية حيث كان يجلس النووي ، فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

وَفِي دَارِ الْحَدِيثِ لَطِيفٌ مَعْنَى
أَطْوَوْفُ فِي ثَنَائِيَاهُ وَأَوْيَ
مَكَانًا مَسَأْهُ قَدْمَ النَّوَاوِي
عَسَى أَنِّي أَمْسَ بَحْرَ وَجْهِي

هذا الصوفي الفقيه ، الذي جمع : تربية وأخلاقاً وأحكاماً وعبادات ... قد أخذ الشريعة من كل جوانبها وعلى حقيقتها ، وهذا هو التصوف السليم الذي هو تزكية ، وصلة بالله ، وورع ، وخلق ... ومما أسميت هذه الصفات ،

(١) النووي : (٦٢١ - ٦٧٦ هـ / ١٢٢٢ - ١٢٧٧ م) : يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزماني الحوراني ، الشافعي ، أبو زكريا ، محي الدين . مولده ووفاته في « نوى » من قرى حوران . تعلم في دمشق . من كتبه : تهذيب الأسماء واللغات - منهاج الطالبين - الدقائق - تصحيح التنبية - المنهاج في شرح صحيح مسلم - التقرير والتيسير - حلية الأبرار - رياض الصالحين - بستان العارفين - الإيضاح - خلاصة الأحكام في مهات السنن وقواعد الإسلام - شرح المذهب للشيرازي - روضة الطالبين - التبيان في آداب حملة القرآن - المقاصد - مختصر طبقات الشافعية - مناقب الشافعية - وغيرها ... (راجع الأعلام ، ج ٩ ، ص ١٨٥) .

فسيبقي الاسم يدل على جوهرها . وقف هذا العالم في وجه ببرس الصارم العنيف ، ذلك لما رأه يجمع الأموال من التجار ، بطائفة من غلاظ الجباة ، يقصبون ويسلبون ، فكتب إلى السلطان يفت نظره ، ولما وصله الخطاب ، رأى أن العز بن عبد السلام ، قد رجع في صورة عالم جديد هو محيي الدين النووي .

فواجهه ببرس الإمام بعنف ووعيد ، ورمى الرعية بالبخل والشغب ، وأعلن أن أمر الجباة يطبق مهـا غلوـا في المكوس ، وتهـجمـوا بالسب والضرب ، إذ هـم أـعـوـانـ الـدـوـلـةـ وـرـسـلـهـ لـدـىـ النـاسـ ، وـظـلـنـ الـظـاهـرـ بـذـلـكـ أـنـهـ قـدـ أـطـفـأـ الشـائـرـةـ وـكـمـ الـأـفـوـاهـ ، ولـماـ قـرـأـ إـلـيـمـاـ الرـدـ ، دـعـاهـ الـحـقـ ، دـعـاهـ (مـيزـانـ الـشـرـيعـةـ) ، أـنـ يـنـقـضـ الـبـاطـلـ ، وـيـحقـ الـحـقـ ، فـكـتـبـ إـلـىـ الـظـاهـرـ بـبرـسـ :

□ أما تهـدىـدـ الرـعـيـةـ بـسـبـبـ نـصـيـحتـنـاـ ، وـتـهـدىـدـ طـائـفـةـ الـعـلـمـاءـ ، فـلـيـسـ هـوـ المرـجـوـ منـ عـدـلـ السـلـطـانـ وـحـلـمـهـ ، وـأـيـ حـيـلـةـ لـضـعـفـاءـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ النـاصـحـينـ نـصـيـحةـ لـلـسـلـطـانـ وـلـهـمـ ، وـلـاـ عـلـمـ لـهـمـ بـهـ ، وـكـيـفـ يـؤـخـذـونـ بـهـ لـوـ كـانـ فـيـهـ مـاـ يـلـامـ عـلـيـهـ ، وـأـمـاـ أـنـاـ فـيـ نـفـسـيـ فـلـاـ يـضـيرـنـيـ التـهـدىـدـ ، وـلـاـ أـكـثـرـ مـنـهـ ، وـلـاـ يـعـنـيـ ذـلـكـ مـنـ نـصـيـحةـ السـلـطـانـ ، فـإـنـيـ أـعـتـقـدـ أـنـ ذـلـكـ وـاجـبـ عـلـيـ وـعـلـىـ غـيـرـيـ ، وـمـاـ يـرـتـبـ عـلـىـ الـوـاجـبـ فـهـوـ خـيـرـ وـزـيـادـةـ عـنـ اللـهـ تـعـالـىـ : ﴿إِنَّمَا هـذـهـ حـيـاتـ الـدـنـيـاـ مـتـاعـ وـإـنـ الـآـخـرـةـ هـيـ دـارـ الـقـرـارـ﴾^(١) ، ﴿وـأـفـوـضـ أـمـرـيـ إـلـىـ اللـهـ إـنـ اللـهـ بـصـيرـ بـالـعـبـادـ﴾^(٢) ، وـقـدـ أـمـرـنـاـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ أـنـ نـقـولـ الـحـقـ حـيـثـاـ كـنـاـ ، وـأـلـاـ خـشـيـ فـيـ اللـهـ لـوـمـةـ لـأـمـ .

فـجـمـعـ الـظـاهـرـ الـجـباـةـ ، وـأـمـرـهـ بـالـرـفـقـ وـالـمـلـاـيـنـةـ ، وـحـذـرـهـمـ غـضـبـ الـعـلـمـاءـ

(١) سورة غافر ، الآية الكريمة : ٣٩ .

(٢) سورة غافر ، الآية الكريمة : ٤٤ .

من الخاصة ، والمحور من العامة ، وجنج للتهاون أمام عزية النwoي ، فقد فعلت نصيحة الشيخ فعلتها في نفس السلطان .

□ أعقبت هذه الحادثة حادثة أخرى أعنف وأشد منها عنفاً وإيجاعاً .

لما تهيا الظاهر لبعض حروبه ، أراد أن يأخذ من أموال الرعية ، واستفتى العلماء فأفتوه بالجواز . ولكن الشيخ النwoي امتنع عن الفتوى ، فسألته الظاهر : لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين ، لتنفقها في المجاهد كأفتى زملاؤك من الفقهاء ؟

(أولئك تركوا الميزان ، أو زانوا به ويدهم تضفط على إحدى كفتيه خوفاً ، أو طمعاً ، أو حظ نفس ... وأمثال هؤلاء أضاعوا القرآن بين الأمراء والعلماء) .

فرد الشيخ في حزم أخاذ : كلنا يعلم أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الخلي ، فإذا أنققت ذلك كله ، وبقيت ماليكك بالبنود والصوف بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون حلي ، أفتیتك بأخذ مال الرعية .

إنها صورة العز في وجه الملك المظفر قظر حين هم بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت ، تذكر الظاهر بيبرس تلك الصورة جديدة في صورة الشيخ النwoي ، فغض على شفتيه ، ودمدم يقول :

ذرية بعضها من بعض ، ما أشبه الليلة بالبارحة فيها كان .



ابن تيمية

«شيخ الإسلام (١)»

□ حارب ابن تيمية في ميدانين ، ميدان داخلي ضد من يسوق العامة سوقاً إلى المبدعات الضالة ، وانحرافات مريضة ، ومن أدعياء تصوف ، قليلي الفهم والهدف من التصوف ، حيث كان التصوف في وادٍ وهم في وادٍ غيره .. كما جابه الأشاعرة والمعتزلة والجهمية والخنابلة ... وما في أفكارهم من تحدٌ وتناحر حول العقيدة بالله تعالى وما هي وما ثبت له من الصفات ...
ولما بحث العالم الإسلامي في هذه الأمور الجرئية ، وهذه الأمور الفلسفية ضاع ، وأضاع العالم كله .

□ نظر ابن تيمية إلى أدعياء التصوف وقد ساروا بال العامة إلى أمور دخيلة بعيدة عن «ميزان الشريعة» ، بعيدة عن الفكر الإسلامي والعقيدة المحمدية ، فهناك أنصار الاتحاد ، ووحدة الوجود ، والحلول ... فوق في وجه هذه المعاني الدخيلة .

أما جوهر التصوف أخلاقاً وتربيه وتزكية نفس ، فلا يقف في وجهها منصف ، لأنها هي ضالة المجتمع .

ولما نصر ابن تيمية أهل السلف معتقداً على «ميزان الشريعة» بعيداً عن

(١) أحد بن عبد الحليم بن عبد السلام ... أبو العباس ، تقي الدين ابن تيمية «٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٢٣ - ١٢٢٨ م» : ولد في حڑان وتحول به أبوه إلى دمشق ، فتبغ و Ashton ، طلب إلى مصر من أجل فتوى بها ، فقصدتها ، فتعصب عليه جماعة من أهلها ، فسجن مدة ، ونقل إلى الإسكندرية ، ثم أطلق ، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ ، واعتقل بها بعد جهاد كبير سنة ٧٢٠ وأطلق ، ثم أعيد ، ومات معتقلًا بقلعة دمشق . «راجع الأعلام ج ١ ، ص ١٤٠ / ١٤١» لمعرفة إنتاجه الفكري الغزير .

التأويل . لجأ المعارضون إلى السلطان في دمشق والقاهرة ، فهُوَلوا الأمر .
وضلّلوا لبعدهم عن «الميزان» وألْهُوا في سجنـه ، فكان لهم ما أرادوا .

□ ومن مواقف ابن تيمية الشرعية المنشقة من الميزان :

وقف في وجه من يتخذ قبور الأولياء وسيلة توبة ، ولتحقيق الرغائب وإجابة الطلب ، ومن يعتقد أن ساكن الضريح ينفع ويضر ... فهاجم هؤلاء وهو على حق . فالولي الصالح يستفيد منه ومن تربيته وتزكيته من في عصره ، ولكل عصر مصلحون مربون . فمن أراد التقرب إلى الله بالعمل الخالص ... فليتعلم الشريعة كما نزلت على ابن عبد الله سيدنا محمد ﷺ ، يسارع هو بعدها إلى الخيرات ، يخلق بأخلاق القرآن ، يعبد الله في مقام الإحسان ...

أما أن يزهد المسلم بعالم زمانه ، ويلازم الأضرة والمزارات ويطلب من الله بواسطتها ، فهذا بعد عن الميزان ، قال عز وجل :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعَوةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلِيَسْتَجِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعْلَهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ . (البقرة / ١٨٦) .

هذا ... ولا يعني ذلك كره ومبـبة من سبقنا من الصالحين ، ولكن السعيد من انتفع بعلم وترزـكـية علماء زمانه .

□ وتظهر روعة ابن تيمية لما تغير السلطان ، وجاء سلطـان يقدـرـ الشـيخـ ، ويصدر عن رأـيهـ ، فعرض عليهـ أن ينـكـلـ بـخـصـومـهـ المـشـدـدـيـنـ جـزـاءـ ماـ أـنـزـلـوهـ بهـ منـ أـهـوـالـ . ولكنـ ابنـ تـيمـيـةـ ، رـجـعـ إـلـىـ «ـالمـيزـانـ»ـ فـوـجـدـ التـسـامـحـ هوـ المـشـلـ الرـفـيعـ فـيـ الـخـلـقـ . حتىـ قـالـ عـنـهـ غـرـيـهـ الـأـوـلـ ، قـاضـيـ الـمـالـكـيـةـ بـعـصـرـ قـولـتـهـ العـجـيـبـةـ : «ـ مـاـ رـأـيـنـاـ أـعـفـىـ مـنـ اـبـنـ تـيمـيـةـ ، لـمـ نـبـقـ مـكـنـاـ فـيـ السـعـيـ عـلـيـهـ ، وـحـينـ

قدر علينا بادر بالعفو^(١) . وابن تيمية بهذا الموقف ، يذكرنا رسول الله ﷺ
بعد فتح مكة وقولته المشهورة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

□ وموقفه رهيب من (فازان) ملك التتار ، وذلك عام ٦٩٩ هـ ، عندما
أراد أن يثار من أذاق قومه الهزيمة لأول مرة في عين جالوت . فظهور
(فازان) بالإسلام ، وصاحب معه المؤذن والقاضي والإمام ، ولكن سلط سيفه
على الرقاب المسالمة ، فقطعها في غير إيمان . ولما وصل قرب دمشق ، مال إلى
المهادنة ، وقدم طعاماً إلى الوفد الذي تشكل برئاسة الشيخ ابن تيمية ، وفريق
من أعيان الدمشقيين ، ويكتنف الشيخ عن الطعام ، فسألته (فازان) لماذا
لا تأكل أهلاً فيها الشيخ ؟

ففرد الشيخ في عناد : « كيف آكل طعامكم وقد طهيتكم من أغذام
الناس ، وطبختم بما قطعتم من أشجار الناس ، ولا ملك لأحد لكم فيه ؟ ..
وهنا يتجلّى ميزان الشريعة بالطعام الحلال .

فرد فازان مضطرباً مأخوذاً : ولكنني مسلم أهلاً فيها الشيخ .

ويجيب ابن تيمية : لقد سلطت ملوك الكرج الصليبي على المسلمين ،
ودفعت له السلاح والجندي ليقاتلبني الإسلام ، فأين كان دينك حين ذاك ؟!
فبهرت الطاغية ، وبحث عن رد ينقذه ، فلم يجد غير أن يقول : أنا مسلم
ومعي مؤذن وقاض وإمام .

فعاجله ابن تيمية : وماذا تفعل بإسلامك وقد كان أبوك وجده كافرين ،
ولم يفعل ما فعلت ، لقد عاهدا فوقياً ، وأنت عاهدت فعدرت .

فنكسَ (فازان) رأسه واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء .

(١) « علماء في وجه الطغىان » ، صفة : ٨٢ .

قال ابن تيمية بسياسة وكياسة : اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، ولتكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن قام رباء وسعة طلباً للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ولينزل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابرها . ثم خرج مرفوع الرأس ، وأصحابه يقولون له في إشراق : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك بعد هذا .

□ وعاد ابن تيمية إلى دمشق ، فشجع الناس على القتال وقاد الفقهاء في ميدان التدريب ، وهنا يتجلّى الفهم الصحيح « للميزان » في حياة ابن تيمية ، يُدرِّب الفقهاء على أعمال الفروسية والجهاد ، ثم تعصي الأيام فيعود العدو من جديد ، فيهب ابن تيمية للنضال ، ويتقدم الصنوف طالباً الشهادة كاً تطلب « الشريعة وميزانها » في مثل هذا الموقف .

ويخرج السلطان الملك الناصر للحرب ، ويشعل ابن تيمية الحماس في نفوس جند الله وهو بينهم ، ويندحر التتار . وهذا يذكرنا بحالنا اليوم ، يقف الخطيب في نهاية كل خطبة جمعة : اللهم انصر الإسلام والمسلمين ، اللهم ادحر أعداءهم ونكّس راياتهم وشتّت شملهم فإنهم لا يعجزونك ... هذا الكلام بعيد عن ميزان الشريعة إذا لم يسبقها الإعداد لأن النبي عليه السلام ما دعا إلا بعد الإعداد والاستعداد ، الدعاء وحده لا يكفي ، اللهم انصر الإسلام . الدعاء وحده هيّن على كل إنسان ، المهم أن يقتدي الخطيب ، أي خطيب ، بابن تيمية ، يشعل الحماس في النفوس ، ويكون بين الجنود ... ثم يطلب النصر من الله ، النبي هيأ الجيش في بدر ، واستشار أصحابه وكان بينهم في القتال ، ثم دعا الله قائلاً : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تبعد في الأرض ، اللهم نصرك الذي

وعدتني » . فمع وعد الله له بالنصر ، هي المجندة ورتب الأمر ثم رفع يديه بالدعاء .

□ موقف ابن تيمية في الجهاد يذكرنا أيضاً ب موقفه من أهل كسروان بالشام حين استباحوا الحرمات ، وحالفوا الأعداء ، وتعرضوا إلى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون . فتوجه الشيخ إلى قتالهم ، وأفقى بكفرهم لما عملوا ، وثبت للهول في محن خطيرة حتى أراح المسلمين وأمن الطريق .

لقد اعتصم الإمام بالحق وبشريعة الله ، فعصمه الله من كل الطغاة ، وإن كان سجن فشرف له في سبيل الحق وإصلاحه في الدين .

ولما توفي ، خرجت دمشق كلها في جنازته . عرفانا بالجليل ، ومحبة بن حارب الخرافات وسعى لتحقيق (ميزان الشريعة) الصحيح .



ابن قيّم الجوزيَّة

(متصوف حارب بدع التصوف) (١)

□ شهادة العلماء فيه :

- الذهبي : « عني بالحديث وفنونه وبعض رجاله ، وكان يستغل في الفقه ويجيد تقريره ، وفي النحو ويدريه » .

(١) محمد بن أبي بكر بن سعد الزُّرْعِي الدمشقي ، أبو عبد الله ، شمس الدين : من أركان الإصلاح الإسلامي ، مولده ووفاته في دمشق ٦٩١ - ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٦ م ، تلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، ينتصر له ، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق . كان حسن الخلق محوباً عند الناس ، أغنى بحسب الكتب ، فجمع منها عدداً عظيماً ، مؤلفاته كثيرة ، يمكن الرجوع إليها في « الأعلام » ج ٦ ، ص : ٢٨٠ / ٢٨١ » .

- برهان الدين الزرعبي : « ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه » .

- ابن حجر : « كان جريء الجنان ، واسع العلم عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف ، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ذلك ، وقد هذب كتبه^(١) ». وقال : « وكان إذا صلى الصبح ، جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غدوتي ، لو لم أقعدها سقطت قواي ، وكان يقول بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين ، وكان يقول : لا بد للسلوك من همة تسيره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه » .

- وقال الشيخ محمد الزفزاف : « امتاز بنفاذ الذهن ، وبعد الغور ، ووفرة المحفوظ ، والتحرر من ريبة التقليد الأعمى الذي يطمس معالم الحق ، ويقف حجر عثرة في سبيل الوصول إلى الصواب » ، وتوافرت فيه كثير من أخلاق العلماء : « أمانة في العلم ، وإنصاف للخصم ، وهدوء في النقاش ، وتعمق في البحث^(٢) » .

□ جاء ابن القيم وأستاذه ابن تيمية ، في عصر مليء بالخلافات المذهبية ، فحارباهما ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف من تحكيم الكتاب والسنة ، دون تعطيل أو تشبيه ، والفرق بينهما : ثورة ابن تيمية وحدته في المعارضة ، وهدوء ابن القيم وعدم تعصبه لمذهب الحنابلة ، بل كان يسير مع الحق أين سارت ركائمه ، دون نظر إلى رجاله . فقام بحراً يدعو إلى تحرر

= أشهرها : أعلام الموقعين ، وشقاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليق ، وزاد المعاد ، وإغاثة اللھان من مصائد الشيطان ، والتبيان في أداب حملة القرآن .

(١) راجع شهادة العلماء به في كتاب « ابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه ، وأراءه في الفقه والعقائد والتصوف » للدكتور عبد العظيم شرف الدين ، ط ٢ ، عام ١٩٦٧ م ، وذلك في ص : ٧١٧٠ . وأكثر ما في هذا البحث مدين للكتاب المذكور .

(٢) الشيخ محمد الزفزاف : أستاذ الشريعة الإسلامية ، ووكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (سابقاً) .

العقل من ربة التقليد ، والتمسك بالكتاب والسنّة ما أمكن ، وإلا فالاجتہاد^(١) ، وأخذ بالمصلحة المرسلة حيث لا نص .

□ وجوانب حياة ابن القيم الجوزية عامرة جداً وحافلة بالأحداث التي تستحق الذكر ، ولكننا ولما يناسب الموضوع نكتفي بناحيتين متizتين عما سواهما :

١ - التحرر الفكري ، ومحاربة التقليد .

٢ - موقفه من التصوف .

١ - كره ابن القيم التقليد والانصراف عن الكتاب والسنّة : فدعى إلى التحرر الفكري ، وعدم الجمود . ولتحقيق غرضه ، حارب التقليد ، ودعى إلى الاجتہاد .

لقد انتشر التقليد منذ القرن الرابع الهجري ، حيث استقرت المذاهب الأربع في البلاد المختلفة ، وكان لكل مذهب أنصار وأتباع ، حرصوا على نشر مذهب إمامهم ، ولما جاء ابن القيم ، وجد ظاهرة التقليد قد تحكمت في العقول ، واستولت على الأفكار ، وقصر العلماء فهمهم ومهمتهم على ترديد فتاوى الأئمة السابقين ، والتشبث بآرائهم ، ولو خالفت فتاوى الصحابة . وقد تغالوا فيما ذهبوا إليه من تقليدهم ، إذ جعلوا فتاوى أئمتهم معياراً يعرضون عليه الكتاب والسنّة وفتاوي الصحابة ، فما وافقها قبلوه ، وما خالفها ردوه .

لما سبق ، قام بجراة يدعو إلى تحرر العقول من ربة التقليد ، وإلى التمسك بالكتاب والسنّة ما أمكن ، وإلا فالاجتہاد .

(١) تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري ، ص : ٢٢٥ ، وروح المعاني للآلوي « ج ٢ / ص ١٣١ / ١ » . وأعلام الموقعين « ج ٢ : ص ٢٢٦ » .

ولكنه مدح نوعاً من التقليد ، أسماء التقليد محمود ، وهو بذل الجهد في اتباع ما أنزل الله ، وما خفي عليه بعضه ، قلد فيه من هو أعلم منه ، فهذا تقليد محمود^(١) .

ولا يتبادر إلى الذهن ، أن ابن القيم ما دام يحرم التقليد ، يرى أن الواجب على كل فرد أن يعرف كل مسألة بدليلها ، وقد أجاب على ذلك بقوله : « ولا ندعى أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين ». وإنما أنكر ما أنكره الأئمة ، ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين ، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع^(٢) .

فهو يندم من أخذ فتاوى رجل واحد وجعلها بنزيلة نصوص الشرع من آيات وأحاديث صحيحة ، بل وقدمها على نصوص الشرع ، واكتفى بالتقليد ، بدلاً من تلقي الأحكام من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأقوال الصحابة !

وابن القيم يذكر أن هناك تقليداً واجباً ، وتقليداً مباحاً ، وتقليداً محظياً . أما المباح فهو تقليد منْ هو أعلم ، والمحظى : من يجعل نفسه متعلقاً بفتاوی وإن خالفت ميزان الشريعة . أما التقليد الواجب : فهو تقليد آراء الصحابة إذا لم يظفر المرء بنص من الكتاب أو السنة ، كالذي نقل عن الشافعی في عدة مواضع : « قلته تقليداً لعمر » .. أو « قلته تقليداً لعثمان » ، و « قلته تقليداً لعطاء » ...

وقال الشافعی في الصحابة : « رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا^(٣) » .

(١) راجع « ابن قيم الجوزية » للدكتور عبد العظيم شرف الدين ، ص ١٠٤ وما بعدها ، وأعلام الموقعين ج /

. ٢٨٢

(٢) أعلام الموقعين ، « ج ٢ ، ص ٣٤٧ » .

(٣) أعلام الموقعين ، « ج ٢ ، ص ٣٠٤ » .

□ والتقليد غير الاتباع :

- التقليد : الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه ، أو قبول رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة^(١).

- أما الاتباع : فالعمل بقول ثبت له الحجة ، واقتنع به القائل ، والاتباع سائع في الشريعة ، والتقليد منوع .

□ ويستدل ابن القيم على صحة رأيه في منع التقليد : فالصحابية ، لم يعرف التقليد إلى نقوسهم سبيلاً ، وأوضح دليل على ذلك ما قام بينهم من خلاف فيما لم ينصّ عليه ، فلو كانوا مقلدين لاتبعوا رأياً قال به أحدهم ، فاختلافهم دليل على إعمال الفكر فيما لم ينص عليه ، كرأي عمر في أراضي سواد العراق ، ورأيه في المفاضلة في العطاء ، بينما رأى الصديق التسوية . رأى عمر المفاضلة لمن له فضل السبق والقدم في الإسلام ، وقال : لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ ، كمن قاتل معه^(٢) .

« وقد يدهش المرء إذا علم أن الأئمة تبرؤوا من المقلدين ، ونهوا عن التقليد ، قال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة خطب ، وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى ». وقال : « أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس » ، وقال : « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط^(٣) » .

(١) إرشاد الفحول ، للشوکانی ، ص : ٢٤٧ .

(٢) أعلام الموقعين : « ج : ٢ ، ص : ٣٦١ » .

(٣) أعلام الموقعين : « ج : ٢ ، ص : ٣٢٦ » .

وقال مالك : « أنا بشر ، أخطئ وأصيб ، فانظروا في رأيي ، مما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه ». .

ومضى ابن القيم في تفنيد مزاعم المقلدين في أنّة لا تعرف الملل ، مع علم وفير ، وعقل ناضج ، يسد كل طريق على المقلدين . علماً أنه لا يحارب « المذاهب » ، فاتباع مذهب مستند إلى القرآن والسنة ، لا غبار عليه ، يقول الشاطبي : « إذا كان الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائلهم ، بل بهم يتوصّل إليه ، وهم الأدلة عليه ». .

ولكن دعوة ابن القيم : دعوة التحرر الفكري ، والرجوع إلى الدين بنقائه وخلوّه من آراء الفرق المنحرفة ، فهو يحارب الانحراف في استنباط الأحكام هذا الانحراف الذي ظهر في التقليد ، والوقوف عند ما يراه رجل معين ، وتحكيم أقواله في النصوص ، فتقديم عليها عند التعارض ، وتحمل النصوص عليها ، كا حارب التلاعب بأحكام الدين ، في الحيل التي لجأوا إليها لتحليل الحرام للوصول إلى غرض من نوع ، وإحلال الحرام .

□ هذا هو الجانب الأول لما يناسب ما نحن بصدده من حياة ابن قيم الجوزية ، وحضرني أثناء كتابة هذه الأسطر نقاش ذكر فيه أحد هم رأياً مستنداً إلى كتاب الله عز وجل ، وقول رسول الله ﷺ ، فكان من المفروض أن ينتهي النقاش بالرجوع إلى الحقيقة ، كا أرادها الله ورسوله ، ولكن الطرف الآخر لم يرض بها وقال : ولكن شيخي قال كذا بما يخالف رأي ميزان الشريعة . فأنهيت بين الطرفين النقاش ... وقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أين أنت يا ابن القيم ؟ ! أين أنت لتشهد من يقدم قول شيخه على قول الله ورسوله ، ولو تعارضا ! ! والله عز وجل يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ
الْخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾^(١) .

٢ - ابن القيم والتصوف :

□ درس ابن القيم التصوف ، وترك من المؤلفات الصوفية ما يدل على
مبلغ علمه بالتصوف ، وما يكشف النقاب عن موقفه منه ، مستمدًا تصوفه
وعلمه به ، من مصادر ثلاثة :

١ - القرآن الكريم ، والسنّة النبوية ، وما أثر عن الصحابة من أقوال
وأفعال تدعو إلى الزهد في الدنيا « قلبياً » ، والترغيب في الآخرة .

٢ - ما سمعه من شيخه ابن تيمية ، الذي وقف سداً في وجه الصوفية
السلبية المنحرفة . فتحدث ابن القيم عن السرور الذي يحصل للمرء نتيجة
القرب من الله ، ويبيّن أن السرور يبعث على العمل ، واستدل بأحاديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث ذكر فيها ذوق طعم الإيمان ، ووجد
حلوته ، فذكر عليه الصلاة والسلام : الذوق والوجود وعلقه بالإيمان .

٣ - وأخذ عن سبقه من الصوفية : كالجنيد ، وذى النون ، وسفيان
الثورى ... فكان ابن القيم يفهم الصوفية كما فهمها الجنيد ، وكان يقول ابن
القيم : « قال سيد الطائفة الجنيد بن محمد رضي الله عنه لما قيل له : أهل
المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب السير والتقرب إلى الله ، فقال
الجنيد : إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح ، وهو عندي
عظيمة ، والذي يزني ويسرق ، أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، وقال

(١) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٣٦ .

الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفي أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة » .

وكان يورد قول الإمام أحمد ، عندما سئل عن رجل يكون معه ألف دينار « هل يكون زاهداً ؟ » فقال نعم ، على شريطة ، ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت .

واستدل ابن القيم بأقوال الصوفية على وجوب اتباع الشريعة ، قال أبو يزيد البسطامي : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتفع في الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنتظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود والشريعة » .

هذه بعض النصوص التي كان يعتمدتها ابن القيم ويعتذر بها^(١) .

وكل ما سبق ، ما منع ابن القيم من نقد التصوف المنحرف . كما حدث مع الصوفي المجاهد عبد الكريم الخطابي صاحب ثورة الريف في المغرب ، فقد خاصم وهو الصوفي المؤمن المجاهد ، رجال الطرق السلبية^(٢) ، فأيّها على صواب ؟ حتى ، المتبّع لشريعة القرآن وسنة رسول الله . وابن الجوزي^(٣) ، عندما هاجم في كتابه : « تلبيس ابليس » ، الباب العاشر ، هاجم التصوف المنحرف السلي ، وهو محق كل الحق ، فكل عمل ، يرتكب ويعمل باسم أي فئة ، إن لم يطابق الشرع ويَسْتَمِد منه ، يستنكره الجميع ويرفضونه ، سواء عمله أهل الفقه ، أو التصوف ، أو السلف ...

فكيف يقبل تصرف بعضهم المخالف للشريعة مثل :

(١) راجع (ابن قم الجوزية) ، صفحة : ٣٩٢ ، وما بعدها .

(٢) « المغرب العربي » د . صلاح عقاد ، ص : ٢٨٧ .

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي ، ولد عام : ٥٠٨ هـ ، وتوفي عام : ٥٩٦ هـ .

المريد ، ينفق كل ماله ويفتقرب كيلا يتعلّق قلبه بالدنيا ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي لبابة عندما تاب وأراد أن ينخلع عن كل ماله لتم توبته : « أمسك بعض مالك ، فهو خير لك^(٢) » ، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تذرم عالة يتکفرون الناس^(٣) » .

وقد كانت لبعضهم بضاعة فأتفقها ، وقال : ما أريد أن تكون ثقتي إلا بالله ، وهذا قلة فهم ، لأنّه يظن أن من التوكل قطع الأسباب وخارج المال كله^(٤) .

تجوييد اللباس ، يقولون : هوى للنفس ، وقد أمرنا بمجاهدتها ، وتزيين للخلق ، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله ، لا للخلق .

ليس كل ما تهواه النفس يندم ، ولا كل التزيين للناس يكره ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس^(٥) » .

وقال أبو ريحانة : يا رسول الله ، إني لأحب الجمال حتى في نعلي وعلاقة سوطني ، أفن الكبر ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال ، ونظيف يحب النظافة ، ويحب معايي الأخلاق ويكره سفسافها ،

(١) رواه أحمد ، واستاده صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) تلبيس ابليس ، صفحة ٢٠٥ وما بعدها . طبعة : دار الوعي العربي (بيروت) .

(٥) رواه الحكم عن سهل بن المنظورة .

ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وييغض البؤس والتابؤس ، الكبر من سَفَهُ الحق ، وغمط الناس حقهم^(١) .

وهكذا ... كان اعتراض ابن الجوزي وغيره لحالات مدعى التصوف ، ولا يستطيع ابن الجوزي ولا يستطيع غيره أن يمس تصوف الفضيل بن عياض أو تصوف عبد الله بن المبارك ، أو الحسن البصري ، أو العز بن عبد السلام ، أو سعيد بن المسيب ... بكلمة واحدة ، فقد تثلّت فيهم الشريعة الحقة ، ونبع تصوّفهم من القرآن والسنة ! ولذلك أقول : رجوعاً إلى ينابيع الشريعة : القرآن والسنة ، ولنكتف بلقب : مسلم ومسلمة ، مؤمن ومؤمنة .

وقد انخد ابن القيم وعاب على المتصوفة المنحرفين : وحدة الوجود ، وسقوط التكاليف ، والتفرقة بين الحقيقة والشريعة ، وتحكم الذوق ورفض العلم ، والتعبد بما لم يشرع الله .

وقال : كلما ازداد العبد قرباً من الله ، كان أكثر عبادة لله وشكراً له . واستدل على ذلك بالرسول الأعظم ، قالت له عائشة : هُون على نفسك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أفلأكون عبداً شكوراً ؟ ! . واستدل بالجنيد : ظل يعبد الله حتى آخر لحظة في حياته ، فقد روي أنه دخل عليه شاب وهو في مرضه الذي مات فيه ، وقد تورم وجهه ، وبين يديه مخدة يصلي إليها ، فقال : وفي هذه الساعة لا ترك الصلاة ! ؟ فلما سَلَّمَ دعاه وقال : شيء وصلت به إلى الله . فلا أدعه ، ومات بعد ساعة رحمه الله .

□ ابن القيم صوفي ذائق حلاوة التصوف وسروره ، ولكنه وضعه في ميزان

(١) رواه ابن عساكر عن ابن عمر .

الشريعة ، وحدد معانيه ، وفهمه فيهاً سليماً : كسهيل بن عبد الله التستري ، وأبي طالب المكي ، وأبي عثمان النيسابوري ، ويعيى بن معاذ الرازى ... فكلهم فتشوا عن اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلب ، وزكاة النفس ، وتصحيح المعاملة^(١) .

□ ورفض ابن القيم كلمات الشكر والتكلم بما يخالف الشريعة ، واعتبر درجة الصحو درجة الكمال من المحبين^(٢) . واستدل على الصحو برسول الله ، فقد أسرى به ، ورأى ما رأى ، وهو ثابت الجأش ، رابط الجنان : « ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى^(٣) ». ولو كان الفناء خيراً من الصحو لفني الرسول في هذا الحال ، ولهذا كان الرسول أفضل من موسى عليه السلام إذ خرَّ صعقاً لما تجلى الله للجبل .

□ وصوفية ابن القيم تهتم بالقلب . ففي كتابه « إغاثة الهاean » اثنا عشر باباً في صدره ، يتكلم فيها عن القلوب ، وما يتعلق بها ، تكلم الطبيب الماهر ، يشخص أمراضها ، ويصف علاجها ، وينهي بمحشه بنظرية في المعرفة ، ونظرية في السعادة وتتلخص هاتان النظريتان بـ :

١ - حياة القلوب بإدراك الحق .
٢ - سعادة القلوب بعبادة الله تعالى . « ورأى تقديم المعرفة على المحبة كما رأى الغزالي » .

- كما وضع مبادئ خلقية للمتصوف :

١ - المروءة مع النفس ، ترك ما يدنسها ويشينها .

(١) مدارج السالكين ، ج : ١ ، ص : ٧٥ .

(٢) إغاثة الهاean ، ص : ٣٢١ .

(٣) سورة النجم ، الآية الكريمة : ١٧ و ١٨ .

- ٢ - المروءة مع الخلق : الأدب والحياة والخلق الجليل معهم .
- ٣ - المروءة مع الحق سبحانه : الاستحياء من نظر الله إليه في كل لحظة ،
واصلاح العيوب ما أمكنه .

هذا هو ابن القيم :

- العالم بأحكام الشريعة ، الباحث الحر ، يعمل فكره ، ويجهد باتزان
وهدوء ، الداعي لنبذ الخلافات المذهبية والتعصب الذميم ، السلفي في العقائد ،
المتصوف في النفس والقلب ، والمصفيه ما شابه من انحراف عن الشريعة .

وفي نهاية هذا البحث أدعو كل محب للحقيقة ، أن يتخد موقفاً موضوعياً
من التصوف فيدرسه من منابعه الصافية ، من حياة رجال تبنّه فأحسنوا في
تبنيه والتخلق به ، وليكن ابن القيم أسوة لهم ، فما رأه من اخراج بعضهم ، لم
يدفعه إلى أن يهاجم التصوف ككل . بل سعى لتصفيته والعوده به إلى ينابيعه
الأولى ، وما أنكر التربية الروحية والتزكية لأن أسانيدها من الشريعة .

☆ ☆ ☆

جمال الدين الأفغاني

□ نشأ الأفغاني في عهد يائس حزين^(١) ، الشرق خامد ، أراد أن
يزلزله بصيحة عالية ، الملك الإسلامية بلا استثناء ، أشبه بالمریض المنوه
الذي سرى الداء في كل عضو من أعضاء جسمه ، وطغت دول الاستعمار بما

(١) جمال الدين محمد بن صدر الحسيني (« ص » و « در » : و معناها بالفارسية مخترق الصنوف) . ولد عام ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م / وتوفي عام ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧ ، باعث الشرق ونهضة الحاضرة . ولد في أسد آباد بأفغانستان . ونشأ بكابل ، تلقى العلوم العقلية والنقلية . وبرع في الرياضيات . أتقن : العربية والأفغانية والفارسية والسنكريتية والتركية . وتعلم الفرنسية والإنكليزية والروسية .

ملكت من القوة والعلم طغياناً مكنتها من الشر والبغى والاستغلال ، واتجابت بعقولها الهدامة إلى الدين تسمه بالرجعية والتزمت والضيق ، وتنسب إلى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ، ثم تعرض مفاتن أوروبية ، وما ابتدعه في عصور النهضة من فنون ، وما وصل إليه العصر من مستحدثات علمية ، متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوي المتأخر كما تصوره هؤلاء !

□ وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين إلى القنوط واليأس ، ويشككهم في القيمة الحقيقة للشريعة الإسلامية وبقائها الحي على تعاقب الأجيال ، حتى وجد جمال الدين ، فدرس عصره ، وألم بعضلات العالم الإسلامي ، ورأى أن الدين براء مما ينسب إليه ، وأن المسلمين لم يتقدروا في مضمار الحضارة والعلم ، إلا لأنهم تركوا الدين وراءهم ظهرياً ، فظلموا ظلماً فادحاً ، حين انتسبوا إليه ، بالقول ، ثم خافوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقّت عليهم كلمة الله !

بلاد الأفغان موطن آبائه ، وأول موطن تنسم به ريح الحياة ، دخل المعترك السياسي على حداثة سنِّه ، ثم اضطر إلى الفرار إلى الهند ، وهناك قال قوله الشهيرة : « يا أهل الهند ، وعزّة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين وقد مسخكم الله ذباباً ، لكان طينيكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلامكم سلحفاة ، وخضم البحر وأحطمتم بجزيرة بريطانيا لجرتوكها إلى القعر وعدمكم إلى بلدكم أحرازاً » .

ثم ارتحل إلى مصر ، تاركاً وراءه من كل حرف من هذه الحروف جرة تشتعل ، ولهمياً يتطاير ليتهم أوكر البغي والاستبداد ، فتصدر المجالس ليعلن

آراءه في الحكم وبرامجه في الاصلاح ، ودفع صفوته تلاميذه إلى الكتابة في الصحف ، ليصوروا الفساد الداخلي ، ويفضحوا الطغيان الداخلي ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، وإقامة حكومة دستورية ، تخضع لبرلن متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة والتقصير .

صاحب ثورة كهذه الثورة ، لا بد أن يحارب بعنف ، فتعاون الاستعمار الخارجي والطغيان الداخلي على ابعاده ، فغادر مصر ، ولكن بعد أن أعد المقد وأشعل الثقب .

وفي الغرب اتخذ صحفه منبراً ، واندitiه مجلساً تكفل لآرائه الديوع ، فأصدر في باريس جريدة « العروة الوثقى » مع تلميذه الشيخ محمد عبده لكنها حوربت لما فيها من أفكار الإيقاظ والاصلاح ، وصودرت في مختلف مصارف البريد ، ثم اضطرت إلى التوقف بعد نضال حميد .

□ حاولت بريطانيا أن تستغله في ثورة المهدى التي قامت في السودان عام ١٨٨٢ م ، لما عجز الأسد البريطاني عن مواجهتها بأسلحة وعتاد ، فرأى أن يبعث الأفغاني إلى السودان ملكاً رسمياً تلتـف حوله الجموع ليستطيع بعكتـه وعلمه أن يجمع حوله المسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة ، ويصبح السودان لقمة سائفة في فـ بـ رـ بـ رـ ئـ يـ زـ رـ اـ بـ رـ يـ اـ نـ يـ اـ إـ ذـ ذـ اـكـ ؟ !

كان جواب الأفغاني : هذا تكليف غريب ، وسفه في السياسة ما بعده من سـ فـ هـ ، هل تـ لـ كـ لـ كـونـ السـ وـ دـ انـ حتىـ تـ تـ وـ جـ وـ اـ عـ لـ يـ مـ لـ كـ يـ خـ ضـ عـ لـ آـ رـ اـ ئـ كـ كـ تـ شـ اـ ؤـ وـ نـ ؟ .

□ وفي فـ رـ نـ سـ ةـ ، نـ ظـ رـ فيـ الصـ حـ فـ الـ بـ لـ اـ رـ يـ سـ يـ ةـ فـ رـ ئـ اـ الـ فـ يـ لـ يـ سـ وـ فـ

الفرنسي « رينان » يشن حرباً طاحنة على الإسلام ، فأخذ يهرب بما لا يعرف ، وينسب إلى تعاليمه من الجمود والتزمت ما هو عنها بعيد ، بعد الأرض عن السماء . فحمل جمال الدين يراعه القوي ليقذف الحق على الباطل فيدمجه ، وطارت ردود الأفغاني كل مطار ، فقرأها « رينان » في دقة ، وعقب عليها بما ينبغي عن تراجعه حيناً وتخبطه حيناً آخر .

وعرف الأوروبيون عن طريق هذه المناظرة الم赫يرة كثيراً من الحقائق الإسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد أن ملا المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أئم . وما كاد المسيو « هانوتو^(١) » بعد ذلك بأعوام يعيد الكرازة الظالمة في حرب الإسلام حتى انبرى له تلميذ الأفغاني الشيخ محمد عبده ، فبلغ مبلغ أستاذته من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصیره في كل زمان ومكان .

□ مات في الأستانة ، وله فيها مواقف عز وكرامة أمام عبد الحميد حين عاتيه بعضهم : « إن اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناكم تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة في حضرته » ، فرد الأفغاني محتجاً : « سبحان الله ، إن جلاله السلطان يلعب بمقدرات الملائكة من الأمة على هواه ، ولا يعترضه منهم أحد . أفلًا يكون بجمال الدين الأفغاني حق أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟ ! » .

ودع الحياة بعد أن أيقظ الهم ، وأقام الشورات ، وأحيا من موات القلوب ... فترزلزل العالم الإسلامي لرحيله ... فما هي أفكاره في خطوطها العريضة ؟ :

(١) وزير خارجية فرنسي ، تصدى له الشيخ محمد عبده في كتابه : « الإسلام بين العلم والمدنية » .

□ حدد الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده أيضاً، سياسته واضحة في « العروة الوثقى »^(١) ، كانا ي يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء ، وهم المسلمين ، دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمaran الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية .

- ويرى الأفغاني في القرآن أكبر الوسائل في لفت الأفرنج إلى حسن الإسلام ، فهو يدعوهم بلسان حاله إليه ، لكنهم يرون حالة المسلمين في واقعهم ، فيقعدهم عن اتباعه وإيمان به . فإذا أردنااليوم أن نحمل غيرنا على الدخول في ديننا وجب علينا قبل كل شيء أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متisksين بخصال الإسلام .

- ومن مزايا القرآن أن العرب كانوا قبل إنزال القرآن عليهم في حالة همجية لا توصف ، فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم ، وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلمًا وفلسفة وصناعة وتجارة ، وكل هذا لعمري لم ينتج إلا عن هدى القرآن وارشاد القرآن ، فالقرآن وحده الذي كان كافياً في احتذاب الأمم القديمة وهدایتها ، جدير أن يكون كافياً اليوم أيضاً في احتذاب الأمم الحديثة وهدایتها .

- وقال : لولانا ... لولانا ... القصور منا والتبعية علينا ، انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه ، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه ، دون التخطي إلى محاربه ...

وهذه هي مصيبة المسلمين منذ قرون ، الانصراف عن الأخذ بروح القرآن ، والعمل بمعانيه ومضامينه ، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف

(١) صدر العدد الأول من « العروة الوثقى » يوم الخميس في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠١ هـ . راجع « جمال الدين الأفغاني » لعبد القادر المغربي ، سلسلة أقرأ ط ٢ دار المعارف مصر .

عند بابه ، دون التخطي إلى محاربه .. « فإن كنا نبحث عن النكات البلاغية رجعنا إلى الزمخشري ، وإذا التسنا المباحث الكلامية رجعنا إلى الرازى ، وإذا أردنا إعراب القرآن فعلينا بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي فيه كثير من المباحث النحوية ، والمسائل المتعلقة بالقراءات ... » .

يا للعجب هذه هي « علوم القرآن » !

وما خطر بفكير قائل القول أن يقول إذا أردنا : حث القرآن على العلوم التي تنهض بحال المسلمين فعلينا بتفسير الجواهر لطنطاوى جوهري .

لقد حصروا علوم القرآن بأشياء لغوية ، وصدوا عن تفسير يناسب ، العصر وقد عرضنا في غير هذا الموضع نماذج من رأى الشيخ طنطاوى جوهري تغمده الله برحمته .

☆ ☆ ☆

مَحْمَدُ عَبْدُه

وارتفع صوت محمد عبده التلميذ الأمين بالدعوة إلى أمرين عظيمين^(١).

□ الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى واعتباره - الدين - ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخطئه ... وقد خالف في الدعوة هذه رأى الفئتين العظيمتين ، اللتين يتركب منها جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هم في ناحيتهم .

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » د . محمد البهى ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط ٤ صفحة ١٠٣ ، وما بعدها .

□ الثاني : هو اصلاح اللغة العربية ليبقى الفرد والمجتمع على احتكاك دائم مع القرآن الكريم ، فضعف اللغة لن يتذوق إعجاز القرآن ومراميه ومضمونه ، فكان أحياء العربية أحياء لكتاب الله ضئلاً .

□ لقد تكونت عند الشيخ محمد عبده بما أخذته عن طريق الأزهر ، أو بما كان عن طريق الزاوية السنوسية : معرفة عقلية للإسلام ، و مباشرة عملية لتهذيب النفس ، تهذيب صوفي متزن ، ثم تقديره للثقافة الإسلامية القائمة في الأزهر إذ ذاك ، وقد عرف السنوسية عن طريق خال والده الشيخ درويش خضر الذي اتصل « بالزاوية السنوسية » وتعلم فيها وسيلة صفاء القلب ، وعرف عن طريقها ما يجب أن يتبع في فهم الإسلام : وذلك بالاحتكام إلى القرآن والسنة الصحيحة ، وعدم التعصب لما سواهما من أقوال أرباب المدارس والشروح والمؤلفين المسلمين ، وهذا الذي كان يمارسه الشيخ درويش خضر من الإسلام العملي ، الفكري الإسلامي « للسنوسي الكبير » وهو نظام يهدف إلى سمو الروح ، وتهذيب النفس ، وتوكيد أواصر الأخوة الإسلامية ، وإجادة فهم الإسلام .

وأباح الشيخ محمد عبده الاجتهاد ونبذ التقليد^(١) !

وسبب الدعوة إلى الاجتهاد عنده هو طبيعة الحياة ، وضرورات المجتمع الإنساني ، فالحياة الإنسانية صائرة ومتطرفة ، ويجد فيها من الأحداث والمشكلات اليوم ، ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة ، والاجتهاد هو الوسيلة العلمية ، والنظرية المشروعة ، للملاءمة بين أحداث الحياة المتعددة ، وتعاليم الإسلام العامة ، ولو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند حد تفقة الأنمة السابقين ،

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » صفحة ١٤٨ / ١٥٠

سارت الحياة الإنسانية في الجماعة الإسلامية في عزلة عن التوجيه الإسلامي ، وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن تحديد الإسلام لها ، وتكيفها بالكيفية الإسلامية ، وهذا وضع سيخرج المسلمين : في إسلامهم وفي حياتهم معاً ! فاما أن تخف قيمة الإسلام في نفوسهم ، فيصيروا في عزلة عن الحياة نفسها ، وضد الحياة وقانونها كذلك .

ومع أن الاجتهاد هو الوسيلة المنشورة والمحققة لامتداد الصبغة الإسلامية لأحداث المجتمع الانساني في الجماعة الإسلامية ، إلا أنه من جانب آخر لا يجوز أن يمارسه إلا من كان على الصفات العلمية التي كان عليها المحتهد الأول في القرون الثلاثة الأولى ، ومن أجل ذلك قرن الشيخ محمد عبده جوازه في عصره وبعد عصره ، بالشروط التي جاز بها فيما مضى ، واحتاط في هذه الشروط احتياطاً ، لا يقل عن احتياط الأوائل فيها .

وكان من الضروري أن يحوز الاجتهاد ، وأن يعني على التقليد ، لأنه وقف بالعقل الانساني عند حد معين لا يتجاوزه :

□ وذلك يتنافي مع طبيعة العقل ذاته ، لأن العقل وجد للملاءمة بين الإنسان وظروف الحياة التي يعيش فيها ، ولذلك كان هذا العقل مصدر هداية وتوجيه له في حياته ، فإن قضى عليه في عصر أن يقف عند حد أنواع الملاءمة التي استنبطت في عصر سابق ، كان ذلك خروجاً به عن طبيعته ، وشللاً لحركته الذاتية في سيره .

ويتنافى الوقوف به عند زمن معين مع طبيعة الحياة ، لأن أحداثها ليست أزلية غير متغيرة ، بل صفاتها التغير والتجدد ، واذن ... قد يكون ما ناسب أحداثها الماضية من علاج اقترح من قبل غير مناسب لعلاج الأحداث

الجديدة ! والحكم يأخذ الأحداث الجديدة لتكيف الماضي وعلاجه قد يؤدي إلى تعسف ومشقة ، نتيجة التناقض بين خصائص الأحداث الجديدة والعلاج الذي أخذ لأحداث سابقة فيها مضى .

- ويتنافى أيضاً مع طبيعة المبادئ الإسلامية وخصائصها : لأن هذه المبادئ ليست لها طبيعة التوقيت ، ولا الخصوص المكاني أو الزماني ، فهي للناس كافة ، وللإنسانية في أزمنتها المتتابعة ، وفي جميع بقاعها ، ومقتضى ذلك : أنها صالحة لتناول أحداث الحياة ، وقدرة على صفعها بالصيغة الإسلامية ، وأنها صالحة كذلك لتوجيه الإنسان في الحياة ، في ظروفها المختلفة .

□ كما نعى محمد عبده على التطويل في بحوث العبادة ، وعلى ترك التطور والتفصيل في باب المعاملات ، حيث يقول : « إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان ، أمور وواقع لم ينص عليها في هذا الكتاب ، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ هذا لا يستطيع ! ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها ... والفقهاء هم المسؤولون عند الله عن هذا ، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة ، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها ، كأحكام الضرورات ، لا لأنهم يقترون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها و يجعلونها كل شيء ، ويتربكون لأجلها كل شيء ! » .

□ يقرؤون « الأصول » ، ولا يخطر ببال واحد منهم أن يرجع فرعاً من هذه الكتب إلى أصله ، أو يبحث عن دليله ، بل لم ينجلوا أن يقولوا : نحن

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » صفحة ١٥٣ .

مقلدون ، لا يلزمـنا النظر في الكتاب والسنة ! ! دانوا لكتبـ المتقدمـين (عليهمـ مباشرة) علىـ تعارضـها وتناقضـها ، الذيـ تشتـتـ بهـ شـملـ الأـمـةـ ، ويكتـفـونـ بـقولـهمـ : وكلـهـ منـ رسولـ اللهـ مـلـتسـ !

« ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذكرون فيها ، ويتفقـونـ علىـ الـراـجـحـ الذيـ يـنـبـغـيـ أنـ يـكـونـ عـلـيـهـ الـعـلـمـ ، وـإـذـاـ كـانـ بـعـضـ الـمـسـائـلـ رـجـحـ لـأـسـابـ تـخـصـ بـمـكـانـ أوـ زـمـانـ ، يـنـبـغـيـ لـهـمـ التـبـيـهـ عـلـىـ ذـلـكـ ، وـعـلـىـ أـنـ هـذـاـ الـحـكـمـ لـيـسـ عـامـاـ ، وـإـنـاـ سـبـبـهـ كـذـاـ ... لـأـنـهـ يـجـعـلـونـ كـلـ مـاـ قـيـلـ عـنـ فـقـيـهـ وـاجـبـ الـاتـبـاعـ فـيـ كـلـ زـمـانـ وـمـكـانـ^(١) » .

□ ويـقـومـ مـنـهـجـهـ فـيـ تـفـسـيرـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـلـىـ أـسـسـ أـولـاهـاـ : اـخـضـاعـ حـوـادـثـ الـحـيـاةـ الـقـائـةـ فـيـ وـقـتـهـ لـنـصـوصـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ : إـمـاـ بـالـتوـسـعـ فـيـ مـعـنـىـ النـصـ ، أـوـ بـجـمـلـ الشـبـيـهـ عـلـىـ الشـبـيـهـ .

رسمـ فـيـ مـنـهـجـهـ دـائـرـةـ تـسـطـيعـ أـنـ تـحـيطـ بـالـحـيـاةـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ حـاضـرـ الـإـنـسـانـ الـمـسـلـمـ ، كـاـمـاـ حـاطـتـ فـيـ الـمـاضـيـ الـبعـيدـ بـحـيـةـ الـمـسـلـمـ فـيـ عـهـدـ الـدـعـوـةـ ، وـفـيـ الـعـهـدـ الـقـرـيبـ مـنـهـ بـعـدـ ذـلـكـ .

كـاـ دـعـاـ الـأـزـهـرـيـنـ إـلـىـ فـهـمـ كـتـابـ اللهـ ... إـلـىـ نـبـذـ التـقـلـيدـ ... إـلـىـ الرـجـوعـ إـلـىـ كـتـبـ الـمـقـدـمـينـ ... إـلـىـ فـهـمـ الـحـيـاةـ الـوـاقـعـيـةـ ، إـلـىـ السـيـرـ مـعـ السـائـرـيـنـ فـيـهـ ... إـلـىـ عـرـضـ الـإـسـلـامـ بـعـقـلـيـةـ الـعـصـرـ ... وـأـسـلـوبـ الـعـصـرـ ...

وقـالـ : « إـنـ الـعـالـمـ الـمـسـلـمـ لـاـ يـكـنـهـ أـنـ يـخـدـمـ الـإـسـلـامـ مـنـ كـلـ وـجـهـ يـقـضـيـهـ حـالـ هـذـاـ الـعـصـرـ ، إـلـاـ إـذـاـ كـانـ مـتـقـنـاـ لـلـغـةـ مـنـ لـغـاتـ الـعـلـمـ الـأـورـبـيـةـ ، تـمـكـنـهـ مـنـ

(١) تاريخ الإمام ، ج ١ ، ص ٩٤٢ / ٩٤٥ .

الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله ، من مدح وذم^(١) . كما حث على طلب العلم من أوربة وعلومها الحية^(٢) .

وفي شرح الإسلام (لرينان) الفيلسوف الفرنسي من قبل جمال الدين محمد عبده ، اضطرا أن يفرقا في غير لبس : بين الإسلام ديناً مصدره القرآن ، والسنّة الشريفة الصحيحة ، وبين عمل المسلمين وأفهامهم في القرآن والسنّة في فترات متتابعة ، كصورة تبعد وتقترب من مصدري الإسلام ، « أي الإسلام شيء وواقع المسلمين شيء آخر » .

ونلخص رأي الشيخ محمد عبده في الاصلاح وعودة عزة الأمة إليها ، بأمور ثلاثة :

١ - رجوع إلى القرآن : حيث يصبح أساساً في معاملاتنا وتصرفاتنا وأحكامنا وتقييمنا للأمور جميعها .

٢ - اصلاح الأزهر : لا جدرانه وقاعاته ، بل علماؤه . بحيث يخرج الأزهر عالماً عاملاً ، ولا يكون ذلك إلا بادخال التربية الروحية مع العلوم الدينية فيه .

٣ - العلم الحديث : ستبقى أمّة الإسلام عالة على العالم ما لم تنهض وبدافع من إسلامها بأخذ علوم العصر كلها ، فتنتج اسلحتها ومصانعها وما تحتاجه بيدها ، ثم تتابع الدراسة والتطوير بشكل لا يسبقها أحد .



(١) تاريخ الإمام ، ج ١ ص ٩٢٧ .

(٢) تاريخ الإمام ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

هؤلاء شوّهُوا الشريعة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ .
(ابراهيم / ٤)

□ الإسلام ، دين يشمل الحياة بأسرها ، إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة ، وبالنفس والجسد ، والفرد والمجتمع ، إنه لا يهتم فقط بما في الطبيعة الإنسانية من وجوه الإمكان إلى السمو ، بل يهتم أيضاً بما فيها من قيود طبيعية^(١) ، إنه لا يطلب من أتباعه الحال ، ولكنه يهدىهم إلى أن يستفيدوا أحسن الاستفادة مما فيهم من استعداد ، وإلى أن يصلوا إلى مستوى أعلى من الحقيقة ، حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل .

□ فكل من لم يفهم الإسلام كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم ، أو كما فهمه الذين أوردنا نماذج منهم كأسوة في الفهم الصحيح ، وكل من فرق بين الإسلام دين دنيا وأخرة ، أو قصره على زاوية صغيرة من مضمونه الشامل ، أو بدأ بالتأويل والتحريف ... كل من لم يأخذ الإسلام بمفهومه الذي بيّنه نبیُّ الإسلام عليه السلام ، فهو محرف نبذ الميزان ، وألقى بالشريعة جانبًا ، فشوء الإسلام بقدر ابعاده عنه ، حتى وصل بعضهم إلى لا إسلام ، بل إلى محاربة شنيعة للإسلام والمسلمين .

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، صفحة ١٠٨ .

إخوان الصَّفِياء وحُلَان الْوَفَاء

استخدم هؤلاء الفلسفة لتفويض أنس جميع الأديان ، بعكس المعتزلة الذين
لجأوا إلى العقل والفلسفة للدفاع عن الدين .

وضعوا رسائل في العلوم ، وتحفظوا في إظهار آرائهم جهاراً ، فاستعملوا
الرموز وحشروا آراءهم بين السطور ، وأكثروا الوصيَّة لأتباعهم بالتشدد في
صيانة رسائلهم وتعاليمهم .

وضع الرسائل نخبة منهم مثل : زيد بن رفاعة ، محمد بن نصر المقدسي ،
أبو الحسن علي بن هارون ، أبو أحمد النهر جوري ... ، وعدد الرسائل « إحدى
وخمسون » رسالة ، مقسمة إلى أربعة أقسام :

- ١ - الرسائل الرياضية التعليمية وهي ١٤ .
- ٢ - الرسائل النفسانية العقلية وهي ١٠ .
- ٣ - الرسائل الجسمانية الطبيعية وهي ١٧ .
- ٤ - الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية وهي ١١ ، ويلي ذلك ، « الرسالة الجامعية » .

□ لقد كان لفكرة الباطن والظاهر أثر واسع في مذهبهم ، فقد وجدوا
فيها بابا للتأويل ، وأسلوبا لكتابة جعلوا ظاهرها غير باطنهما ، فخرجت
معانيهم عن معاني الدين الإسلامي ، ولكي يسهل انتشارها فقد غلفوها بالعلم
وصبغوها بصبغة المعرفة .

قالوا : الدين قسمان : باطن وظاهر ، والحقيقة في الباطن ، ومن وجد
الباطن ، فهو ليس بحاجة إلى الظاهر من صلاة وصوم ...

كما قالوا : إن عالم الأفلاك هو عالم الملائكة ، والنبوة هي من تأثيرات عطارد ، وقالوا بالتناسخ في الرسالة « ١٣ » ، ولا غرابة في ذلك ، فهم في شاغورسيون ، والتناسخ من معتقداتهم .

لقد كرس إخوان الصفاء حياتهم وجهودهم لنفس بنيان الإسلام وتقويضه في الداخل ، فقد عزّ عليهم أن يروا رجلاً يقوم في جزيرة العرب وحيداً فقيراً أعزل ، ويدعو إلى عقيدة وشريعة ، فلا يلبث أن يكون أمة ، ويكون دولة ، ويكون حضارة . ويرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، فغرت هؤلاء نفوسهم الطامحة ، وأغرّتهم بأن يجربوا هذه التجربة ، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع عسى أن يكونوا أمة ودولة وحضارة ، ولماذا لا تشر الجهد ؟ ولماذا لا تتكرر المعجزة ، والفطرة البشرية لا تزال هي الفطرة ، ولا يزال الناس أشباهها ؟

لن تشر المجهود في تحطيم الإسلام ، وإقامة عقيدة شبيهة ، لأن الجيد يفرض نفسه ، والبقاء للأصلح ، والباطل يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيكث في الأرض .

« لقد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام الندية ، وعقائده الصافية الواضحة ، تهدد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارة الصليبية ، ثم هجوم التتار - ذلك الجراد المنتشر - صاعقة نزلت على الإسلام والأمة الإسلامية ، وكانت جديرة بأن تقضي على الإسلام وقصصيه من ميدان الحياة ، ومصاف الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات ، للفظ نفسه الأخير ، وأصبح أسطورة من الأساطير ^(١) ».

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ص : ١٧ / .

رغم ذلك كله شق الإسلام وكتاب الله طريقيها إلى الأمم ، وفتحا فتوحا جديدة ، في ميدان الاتشار - كا حدث بين التار وفي إفريقيبة - وفي ميادين العقل والعلم والسياسة .



البابية أو البهائية

- البابية^(١) : نسبة إلى الباب وهو علي محمد رضا الشيرازي ، ولد سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م (وفي روایة ١٨١٩) ، وأعلن نفسه عام : ١٨٤٤ م بباب المعرفة إلى الحق الإلهي ، ومن أجل هذا لقب بـ « الباب » .

- والبهائية : نسبة إلى بهاء الله وهو ميرزا حسين علي ، خليفة « الباب » على حركته التي يعتبرها أتباعه إصلاحاً إسلامياً ، وتعاليمه كما يلي :

- الله واحد ، و (علي) مراته التي ينعكس عليها ، والتي يكن لكل واحد أن يراها .

- الله خلق الخلق بسبع صفات تسمى حروف الصدق والحق ، وهي : القدر ، القضاء ، الإرادة ، المشيئة ، الإذن ، الأجل ، الكتاب .

- السنة : تنقسم إلى تسعه عشر شهرا ، وكل شهر ينقسم إلى تسعه عشر يوماً ، فالسنة ٣٦١ يوماً .

- كل الحدود ألغيت عدا حدي السرقة والزنا .

- الحرية المطلقة في التجارة والعقد .

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني طبعة البني الحلبي : ١٩٦١ ، ذيل الكتاب بقلم محمد سعيد كيدنى . ص :

٤١ وما بعدها .

- دفع « الفائدة » مباح ، سواء على البضائع المباعة ، أو على الحسابات المصرفية .
- فريضة الصوم لمدة شهر بهائي ، أي تسعه عشر يوما من طلوع الشمس إلى غروبها ، وعلى من بلغ الحادية عشرة إلى الثانية والأربعين .
- يُنصح بالطهارة بالماء ولكنها ليست فريضة مكتوبة.
- يجوز للمرأة السفور .

- صلاة الجماعة أبطلت ، عدا الصلاة على الميت ، ومع ذلك الاجتماع للوعظ أمر لا بأس به .

والمطلع على هذه الحقائق يرى أن الميزان ، ميزان الشريعة معطل ، بل غير معترف عليه مطلقا .

□ تحول البهائيون إلى حزب سياسي ، ومن دعاتهم ميرزا فضل الله ، ولقد اتخذت هذه الحركة مدينة عكا في الأرض المحتلة مقرا لها ، ولجبل الكرمل في حيفا مكانة خاصة لوجود جثة الباب فيه .

وهدف البهائية حاليا بعد الباب توحيد الأديان ، والخطوة الأولى لذلك :

- ١ - ادعاء حاجة المسلمين إلى الإصلاح ، وهي كلمة حق أريد بها باطل .
- ٢ - والخطوة الثانية هي الحاجة إلى شريعة جديدة .

□ كاتطورت (البهائية) ، فأصبح تعدد الزوجات مقصورا على اثنتين فقط ، وأصبحت ترى صحة جميع الأديان ، والكتب الدينية ، وتدعوا جميع أهل الملل إلى دينها ، ثم اعتقادت بألوهية « الباء » ، على النحو الذي تعتقده بعض فرق الشيعة الغلاة بحلول الجزء الإلهي في الإمام .

- وللباب (على محمد الشيرازي) كتاب « البيان » ، وفيه تأوّل قوله عز وجل « ثم إن علينا بيانه » .

- والبهائية أربع فرق :

- ١ - البابية الخُلُص : أتباع الباب ، علي محمد الشيرازي ، مؤسس البهائية .
- ٢ - البابية الأزلية : أتباع « صبح أزل » الذي كان في قبرص .
- ٣ - البابية البهائية : أتباع بهاء الله ميرزا حسين علي نوري .
- ٤ - البابية العباسية : أتباع عباس أفندي أحد الدعاة لهذا الدين الجديد ، وكان يقيم في بيروت . ويضيف الملل والنحل فرقة خامسة هي « الناقضون » ، وهم أتباع محمد علي أخي العباس .

□ وكل فريق يؤيد دعوه ، ويكره من عداه ، فاعتزلوا المعاشرة ، وحرموا معاملة بعضهم البعض ، وكانت عداوة كل منهم للآخر أشد من عداوتهم جيماً من طعن في معتقداتهم ، وقال بيطلان دعواهم .

وبما أن البهائية لم تجد رواجاً بين المسلمين لبعدها عن « ميزان الشريعة » ، لذلك اتجه أتباعها إلى نشرها في أوروبا وأمريكا . أما المسلمين فليسوا في حاجة إلى هذه الديانة ، ويكتفي أن نعلم أن الإسلام الذي ظهر منذ أربعة عشر قرناً دعا الإسلام إلى تلقي العلوم والمعارف ، في حين أن مؤسس الديانة « البهائية » دعا أتباعه إلى الابتعاد عن العلم وتجنب التعلم ، وطرح الكتب في الماء ، ومحوها أو إحراقها ... فشتان بين دين العلم والتعلم ، ودين الجهل وإحراق الكتب .



القَادِيَانِيَّةُ

□ وتنسب القاديانية إلى مدينة قاديان في الهند^(١) ، وتسمى القاديانية أيضاً « بالأحمدية » نسبة إلى غلام أحمد ، الذي ولد بقاديان عام ١٨٣٥ م .

ادعى أنه المسيح الموعود ، والمهدي الموعود في وقت واحد . وفي سنة ١٣٤٤ هـ / ١٨٩٦ م ، وجه إلى علماء الهند وغيرها رسائل توضح دعوته ، ويصف مكانته عند الله ، ومحاكاة الله له ، وما قاله : « وقد تفردت بفضل الله بكشوف صادقة ، ورؤيا صالحة ، ومكلمات إلهية ، وكلمات إلهامية ، وعلوم نافعة ، وزادني ربى بسطة في العلم والدين ، وأرسلني مجدداً لهذه المائة ، وسماني عيسى نظراً للمفاسد الموجودة ، فإن أكثرها من قوم المسيح » ، « اعلموا أن روح الله ينطق في نفسي ، فلا يعلم سري ودخيلة أمري إلا ربى ، هو الذي نزل عليَّ وجعلني من النورين » .

ومع ادعاء القاديانية ، أنهم من المسلمين ، فهذه نقاط اختلاف جذرية تجعلهم بعيدين عن الإسلام بعد المشرق عن المغرب ...

١ - إله القاديانية يسهر وينام على لسان الإلهام كما قال غلام أحمد : « أنا أُسهر وأنام »^(٢) .

أما إله الحق : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾^(٣) .

٢ - يهب الله - عند القاديانيين - لغيره صفة الإحياء والإفناه^(٤) .

(١) راجع للتوسيع الكتب التالية : (القاديانية مطية الاستعمار البغيض) للأستاذ محمد خير القادري ، وكتاب : (كشف الستار عن القاديانية مطية الاستعمار) لحمد عمر ملتاني . (والملل والنحل) في الملحق الأخير من ص ٥٧ ، إلى ص ٦٦ . وكتاب : (ما هي القاديانية ؟) ، للمودودي طباعة دار القلم « الكويت » ...

(٢) البشرى ، جلد ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢٥٦ .

(٤) خطبة الهمامة ، ص ٢٣ .

وفي الإسلام : ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يبيتكم ثم يحييكم ، هل من شرائكم من يفعل من ذلك من شيء﴾^(١)

٣ - قيوم العالمين هو وجود عظيم له أيات وأرجل لا إحصاء لها ... وله عروق حاوية على جميع أطراف الكون^(٢) .

وفي الإسلام : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾^(٣) .

٤ - إله القاديانية يصوم ويغتر ، ويخطئ ويصيب^(٤) .

وفي الإسلام : ﴿قل هو الله أحد ، الله الصمد﴾ ، وهو غني بالذات لا احتياج له ، وهو مenze عن الخطأ والنقص والعيب سبحانه وتعالى عما يصفون .

٥ - غلام أحمد نبي الله له رسالة والوحي يهبط عليه من الله .

وفي الإسلام ، محمد رسول الله ﷺ لا نبي ولا رسول بعده .

□ وللقاديانية رئيس ديني يلقبونه بلقب « أمير المؤمنين » وخليفة المسيح الموعود ، والمهدي المعضود .

□ لم تدل دعوة القداديانيين قبولاً يذكر في البلاد العربية في الإسلام ، لأن (ميزان الشريعة) يرفض دعواهم ، خصوصاً في ختم الرسالة بسيدنا محمد ﷺ .

وما يذكر ... أنهم أفتوا بعدم حرب الانكليز في الهند ، لذلك أرسل أحدهم

(١) سورة الروم ، الآية الكريمة : ٤٠ .

(٢) توضيح المرام / ٨٨٦ / ٦٨ .

(٣) سورة الشورى ، الآية الكريمة : ١١ .

(٤) تبلیغ الرسالة ، ج ١ ، ص ١٣٢٦ .

وهو « محمد أمين خان » إلى مملكة الروس للتبيشير ، فأخبر المركز في قاديان بكتاب نصه : « حضرت هنا لبث الدعوة الأحمدية وبما أن مصالح الجماعة الأحمدية والحكومة البريطانية متراقبة ومتعددة فكان من اللازم أن أؤدي خدمة الحكومة البريطانية ، ولذلك ظنوني كجاسوس انكليزي ووضعني بضعة أيام في السجن^(١) » .

□ إن الإسلام من وجهيه الروحية والاجتماعية ، رغم الدعوات الضالة المضللة ، والدعم الذي لاقته من الاستعمار كالقاديانية والبهائية ، لا يزال وبالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين ، أعظم قوة هداية بالهم عرفها البشر .

☆ ☆ ☆

وأمثلة أخرى

□ الأمثلة الثلاثة السابقة ، أمثلة لشذوذ كامل عن : « ميزان الشريعة » .
بل أمثلة اتخذت من اتسابها الاسمي للإسلام تحطيم الإسلام من الداخل .
□ ولكن الفهم السيء مع حسن الطوية ، أضرَّ أيضاً بالإسلام . وشوَّه جمال القرآن ودعوته وتعاليمه . وكثير من الكتب التي هاجمت (الفكر الديني) ، ما هاجمت الإسلام الحق ، لأنها ما كلفت نفسها الإطلاع عليه من معينه الصافي ورجاله الصادقين على قلتهم . هذه الكتب صُورت واقعاً ظنته إسلاماً وهاجمته .

□ من الفهم السيئ للقرآن وميزان الشريعة ، مع حسن النية :

(١) مختصر من إعلان خليفة غلام أحمد المتدرج في صحيفة الفضل ، جلد : ١١ .

١ - صنف جعل الإسلام فقهًا كله ، أو تلاوة للآيات بلا تطبيق ، أو اهتمام بإعراب القرآن مع القراءات ... إلى هنا ويفت . مع أن الآيات التي تبحث في الفقه ليست أكثر من / ٥٠٠ / آية فأين بقية الـ / ٦٣٤٢ / آية ؟ التي يضمها كتاب الله ! !

- ومثال على هذا الجمود عند هؤلاء المحرفين معطلي العقول ، من قالوا « تتبع ولا نبتدع » :

- إذا امرأة غاب زوجها ولم يُعرف خبره ، يُقضى عليها أن تبقى بلا زواج حتى سن الستين ، وهذا عجب . وقد بحث هذا الشيخ جوهرى طنطاوى ، فوجد أن القضاء في مصر لا يصح إلا إذا أقره الخليفة في بلاد الترك من آل عثمان . والحكم في مصر على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان الذي هو مذهب الخليفة ، فقابل الشيخ جوهرى ، الشيخ سليم البشريشيخ الجامع الأزهر . فقال له الشيخ جوهرى : إن مذهب المالكية سهل جدا في هذه المسألة . ولكن الحكومة الانكليزية التي احتلت مصر لما رأت أنه لا بد من الاستئذان من الخليفة في العمل بمذهب غير الحنفي للتيسير ، أبى خيفة أن ترجع العلاقة بين مصر والأستانة .

فقال الشيخ جوهرى كلامه العقول الشرعي : من المؤلم أن يكون دين الإسلام الذي هو أسهل الأديان ، بسببه تكون المرأة عرضة للفاحشة ، بل الفاحشة محققة في كثير من هؤلاء المسكينات .

وبعد ذلك تغيرت الأحوال وانتهى ملك بني عثمان ، فقام القضاة بمصر ، وعلى رأسهم الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي القضاة بمصر ورئيس المحكمة الشرعية العليا . فشرعن ساعد الجد ، وبحث في المذاهب كلها ، واستخرج منها زبدة صالحة للعمل بقدر الإمكان ، وقدم للحكومة (مذكرات من ضياع القرآن)^(١٦) - ٢٤١ -

مشروع قانون الزواج) وسهل الأمر جدا في أحكام النفقة والزوج الغائب بحيث انتفى الحرج ... فهل رضي الجميع به ؟

في القرن التاسع عشر ، قال أحد المتنفذين ببصر للشيخ المهدى العباسي ، (وهو المفتي بمذهب أبي حنيفة مع القاضي التركى من قبل السلطان العثمانى) : استخرجا من المذاهب الأربعه وغيرها قانوناً به حكم البلاد ، فإن علماء الدين ينافق بعضهم بعضاً ... وهذا يوجب ارتباك الأحوال . فرضي قاضي الترك ، أما المهدى العباسي فقد قال للقاضي : أنت مولى من قبل الخليفة على مذهب أبي حنيفة ، فمالك وللمذاهب الأخرى ، فلما يئس حاكم مصر من علماء الدين ، استجلب القانون الفرنسي ، فحكمت به البلاد^(١) .

حوادث الدهر أحاطت بال المسلمين ، ولا ينفعهم إلاأخذ القرآن كله دون التفريط بشيء من آيه . فإن ثبت لأولي الأمر في الأمة وهم نوابها أن الأمة أصابها ضر من أي حكم من الأحكام الشرعية ، فإن هذا ينافي الإسلام ، لأن الدين شرع لمنفعة الناس ، لا لمضررهم ، فإذا تحقق الضرر ، فليزل هذا الحكم حتى ، لأن الحكم الشرعي مظنون ، والضرر محقق ، والتحقق مقدم على المظنون ، وهذا القول لا يتعارى فيه اثنان في الإسلام ، إن علم الفقه هو الأحكام الشرعية الطنية ، فإذا تحقق الضرر ، كيف نعمل بالمظنون ، قاعدة ستكون نبراساً ، ونوراً مبيناً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا يقودنا إلى الاجتهاد وإلى :

مبدأ تغيير الأحكام بتغير الأزمان ؟



(١) راجع تفسير « المواهر » ج ٩ / ١٠ . صفحة : ١٨٩ / ١٩٠ .

الاجتهاد

مبدأ تغيير الأحكام بتغيير الأزمان

★ « الإسلام دين الحياة ، والحياة دين » .

ساحة المفتي العام للجمهورية «

□ شريعة القرآن ، شريعة خلود ، باقية ما بقيت الدنيا ، لذلك وجب أن تكون وافية بجميع الأحكام والقوانين التي تحتاج إليها الأمم في تدبير شؤونها ، وتنظيم حياتها ، صالحة لمسايرة هذه الحياة في جميع تطوراتها ، ومراحل تقدمها ورقيها . تزودها في كل عصر ، وفي كل جيل بما يكفل السعادة ، ويسعى عليها الأمان والسلام ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى :
﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾^(١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام :

« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكم بهما : كتاب الله ، وسنة رسول الله »^(٢) .

القرآن : تبيان لكل شيء ولكن ليس المقصود أنه أحاط بجزئيات الواقع والحوادث ، ونص على تفاصيل أحكامها ، إلا في موضع ثلاثة : نظام الأسرة ، والعقوبات على الجرائم الأساسية في المجتمع « وهي الحدود والقصاص » ، والميراث .

☆ - اعتقدت لهذا البحث الدقيق المرابع التاليه : رسالة الزميل الأستاذ مير سهيل التي أشرف عليها الدكتور فتحي الدربيني ، وكانت بعنوان « مبدأ تغيير الأحكام بتغيير الأزمان » . وكتاب : المدخل إلى علم أصول الفقه للدكتور الدوليبي : ص ٢٨٩ وما بعدها . و « الحقوق المدنية » للأستاذ الزرقا ، الجزء الأول ، ص ٧٧ . وأعلام المؤuginين لابن قيم الجوزية ، الجزء الثالث : « فصل في تغير الفتووى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد » .

(١) سورة النحل الآية الكريمة : ٨٩ .

(٢) رواه الإمام مالك عن أبي هريرة ، راجع : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول . ج ١ ، ص ٤٠ .

والسبب في عدم تبع القرآن للجزئيات ، هو أن القوانين متناهية ، والحوادث والواقع غير متناهية .

والواقع يشهد بأنه في أغلب الأمر ، لم يدخل في هذه التفاصيل ، ولم يعن بعرض تلك الجزئيات ، وإنما أتت الأحكام التي عرض لها قوانين عامة ، ومبادئ كلية ، يمكن تحكيمها في كل ما يعرض للناس في حياتهم اليومية ، مما يتصل بتلك القوانين والمبادئ .

فهي مبادئ وقوانين حكمة ثابتة ، لا تختلف ، ولا يسوغ الالحاد بها ، وعامة كلية ، يمكن أن تتمشى مع اختلاف الأحوال والظروف .

فالقرآن : الذي هو المصدر الأول للتشرع الإسلامي تبيان لكل شيء من حيث أنه أحاط بجميع الأصول والقواعد التي لا بد منها في كل قانون عام ، وذلك كوجوب العدل والشورى ، ورفع الحرج ، ودفع الضرر ، ورعاية الحقوق ، وأداء الأمانات إلى أهلها .. وما إلى ذلك من المبادئ العامة التي لا يستطيع أن يشترعها قانون يراد به صلاح الأمم وإسعادها منها تغير الزمن .

والقرآن : تبيان لكل شيء ، من حيث أنه أحاط أيضاً بأصول ما يلزم لحفظ المقاصد التي لم تأتِ الشرائع السماوية ، ولم تنشأ القوانين إلا لخدمتها والمحافظة عليها ، فعليها يقوم أمر الدين والدنيا . وبالحافظة عليها ينتظم شأن الأفراد والجماعات .

والسُّنَّة النَّبُوَيَّة : جاءت توفي الأمر حقه ، من الشرح والبيان ، والتكييل والتعليق والتنظير ..
﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾^(١) .

(١) سورة الحشر ، الآية الكريمة : ٧ .

فقد يَئِنَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ أَحْكَامٌ مَا كَانَ يُرَضِّعُ لِلنَّاسِ مِنْ حَوَادِثٍ ، يُسْتَقِيْهَا مِنَ الْوَحْيِ ، أَوْ يُنْشِئُهَا بِالْاجْتِهَادِ الْحَكِيمِ الْمَسْدُدِ . فَسَنَّ فِي ذَلِكَ أَحْكَاماً كَانَتْ تَقْتَصِيْهَا حَاجَاتُ النَّاسِ وَحَالَةُ الْأَمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّاشرَةِ . وَأَحْكَاماً أُخْرِيًّا لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا الْحَالُ بِالْخِلَافِ الْعَصُورِ وَالْجَمَاعَاتِ .

فَوْضُوعُ لَنَا مَبَادِئُ حِكْمَةِ فِي أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَقَوْاعِدُ صَالِحةٍ لِنَظَامِ الْأُسْرَةِ ، وَتَرْبِيَةِ النَّاشرَةِ ، وَأَسْسًا مَتِينَةً لِإِحْكَامِ رِوابِطِ الْاجْتِمَاعِ ، فَسَنَّ مِنَ الْقَوْانِينِ فِي الْعَامِلَاتِ وَالْمَجْنَاهِيَّاتِ وَعَلَاقَاتِ الدُّولِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ ، مَا يَكْفِلُ قَرَارُ السَّلَامِ وَالْأَمْنِ فِي الْأَرْضِ . حَتَّى الْآدَابُ الْخَاصَّةُ ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي السَّفَرِ وَالْإِقْلَامَةِ وَالصَّحَّةِ وَالْمَرْضِ وَالْغَنَّى وَالْفَقْرِ ، كُلُّ ذَلِكَ عَنِّي بِهِ ، وَتَرَكَ لَنَا فِيهِ مُثْلًا عَالِيَّةً لِلتَّرْبِيَّةِ ، وَغَاذِجَ صَالِحةً لِلتَّهْذِيبِ وَالتَّقْيِيفِ . ثُمَّ كَانَ عَلَيْهِ يَقِيسُ وَيَجْتَهِدُ ، فَيُجْمِعُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمَتَاثِلَاتِ ، وَيُفْرِقُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ ، وَيُرِبِّطُ الْأَشْيَاءَ بِنَظَائِرِهَا ، وَيُلْجِقُ الْفَرَوْعَ بِأَصْوَلِهَا ، مِنْهَا إِلَى عَلَلِ الْأَحْكَامِ ، وَأَسْرَارِ التَّشْرِيعِ .

وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : عَلِمُوا أَنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ لَهَا حُكْمُهَا وَمَرَامِيهَا ، وَلَهَا أَسْبَابُهَا وَغَایَاتُهَا ، وَأَنَّ نُصُوصَهَا لَهَا لَبُورَةٌ ، فَلَا يَصِحُّ الْوَقُوفُ مِنْهَا عَنْدَ حَدُودِ الْأَلْفَاظِ وَصُورِ الْعِبَادَاتِ مَعَ إِغْفَالِ اللَّبِ وَالثَّرَةِ الْمَقْصُودِ تَحْقِيقَهَا مِنَ الْحُكْمِ . لَأَنَّهَا شَرِيعَةٌ عَامَّةٌ ، فَوْجِبُ أَنْ تَكُونَ وَافِيَّةً أَحْكَامُهَا بِحَاجَةِ الْأَمْمِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُهَا مَعْلَلَةً بِالْمَصَالِحِ ، قَابِلَةً لِلتَّبَدِيلِ مَعَ الزَّمْنِ ، فَهِيَ مَتَطَوَّرَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ فَرَوْعَهَا ، ثَابِتَةٌ فِي قَوَاعِدِهَا وَأَصْوَلِهَا .

وَرَجَالُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : كَانُوا يَفْهَمُونَ الشَّرِيعَةَ مِنْ مَصَادِرِهَا ، وَيَسْتَبِطُونَ الْفَرَوْعَ مِنْ أَصْوَلِهَا ، وَهَكُذا كَانُوا يَجِدُونَ فِي هَذِهِ

المصادر والأصول ما ينبع بأحكام ما يجده من حوادث وقائع ، وما شعروا أنهم عاجزون بهذه النصوص أن يواجهوا ما يتولد عليهم من مختلف النوازل ، وأن يجدوا لها حكماً في الشريعة يحقق مقصود الشارع من تحقيق مصالح العباد ، لا سيما بعد الفتح الإسلامي واحتلال العرب بغيرهم من الأمم التي خضعت لسلطان الإسلام^(١) .

والفقه : ليس هو العلم بأوضاع الألفاظ وعمومها اللغوي ، وخصوصها ، ولا معرفة دلالاتها الجلية الواضحة ، فإن ذلك شيء لا يقتصر عنه عارف بلغة العرب ، وإنما هدفه المعاني وأسرار التشريع ، وتعرف الأسباب والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض ليعتبر منها ما يكون أشبه بمقصد الشارع من تشريعه .

معرفة مقصود الشارع هي المطلوب الأول من الاستنباط والاجتهاد ، والذي يجب أن يوصل إليه الحكم في ماله .

فهذا النوع من الفقه وهذا الاستنباط الذي تستخرج به المعاني من بواطن النصوص ، وبه يعرف مراد الشارع من مراده ويوقف على أسرار تشريعه جهد الاستطاعة هو الذي مكن الفقهاء من سلف الأمة الإسلامية ، أن يجدوا في شريعة الإسلام كل ما يحتاجون إليه في الفتيا والحكم والقضاء ، وكل ما فيه إصلاح الجماعة الإسلامية وتمكين روابطها ، والنهوض بها من كمال إلى أكمل مع تطور الزمن وتبدلها .

-
- (١) فاجتهدات عمر رضي الله عنه في المشكلات التي عرضت له عندما تولى الخلافة مشهورة ، نعدد منها :
- ١ - من المجاهدين من كان يقتل القائد من القواد الأعداء وعليه نفائس ثنتها عشرات الآلاف ، فهل يأخذه كله على قاعدة : « إن من قتل قتيلاً فله سليه » .
 - ٢ - أن بعض ذوي الغرب طالبوا بالهم الذي كان لهم ، فهل يرده عليهم ؟
 - ٣ - أراضي العراق ومصر ... هل يقسمها أو يتركها أملاكاً عامة ينتفع بها من يأتي من المسلمين على مدى العصور !
 - ٤ - المال الفائض عن نفقات الدولة ، ماذا يفعل به ، يخزنه أم يوزعه ؟ وإذا وزعه ، هل يوزعه بالتساوي !

وهو الذي يجب أن يتبعهم عليه الفقهاء في كل عصر حتى يوفى للشريعة بكل مقاصدها ، ويتحقق لها أغراضها من تحصيل المنافع ودرء المفاسد .

وهذا الفقه الذي يوقف به على مقاصد الشريعة وأغراضها هو الذي كان يحدو بالفقهاء أن يعدلوا عن أحكام كانت لهم في بعض المواطن ، ليقتوا على خلافها ، وأن يكون مثل الإمام الشافعي رضي الله عنه في كثير من المسائل مذهب قديم ، ومذهب جديد .

فإن تغيير الرأي ، وعدول الفقيه عن اجتهاده الأول ، ليس سببه في جميع الأحوال راجعاً إلى تبيئ وجه الصواب بعد الخطأ ، ولا إلى ظهور دليل قوي كان خافياً عليه من قبل ، ولكنه كثيراً ما يكون سببه تنقل المجتهد في الأقطار ووقوفه على تغير العرف والعادة والأحوال عند الأمم المختلفة ، أو مرور الزمن وتبدل الأحوال والظروف في الأمة الواحدة ، فيراعي في أحكامه هذا الاختلاف ، وفي هذه الحالة يكون كلام اجتهاديه صحيحاً ومعتبراً برغم اختلافها في المسألة الواحدة ، إذ هو اختلاف سببه تغير الظروف والأزمان والبيئات .
وحيث لاجمال لسرد المسائل الكثيرة ، نكتفي بثل واحد وهو أن الإمام محمد صاحب أبي حنيفة ، أفتى بنجاسة الرذاد من بول الحيوانات ، حينما كان في بغداد ، ولما ذهب إلى قرية مرو ، وجد كثرة الحيوانات ، والشوارع غير منتظمة بخلاف الحال في بغداد ، أفتى بعكس رأيه تمشياً مع مصلحة البيئة الجديدة .

□ وجملة القول :

إن الشريعة الإسلامية فيها الوفاء بصالح الأمم في كل زمان ومكان ، ويكن أن نرجع في إثبات هذا الحكم ، إلى أن شريعة الإسلام ، شريعة عامة

لجميع الأفراد ، لا يختص بوجوب الإذعان لها والأخذ بتعاليمها فريق من الناس دون فريق .

ودائمة تسرى أحكامها على جميع الأزمنة منذ نزول القرآن حتى تنتهي حياة التكليف ، وأنها تهدي إلى طريق الخير والصلاح ، وتعين على سلوكه ، وتنبه إلى مداخل الشر والفساد ، وتحذر منه . ولا تأمر إلا بما فيه مصلحة حقيقة دينية أو دنيوية ، ولا تنهى إلا عن الضرر والشر وأسباب الفساد وكل أحكامها معللة ، بالحِكم والمصالح ، وهي كفيلة بتحقيق مصالح العباد في كل حال وزمان ، وقد اعترف بهذا مؤتمر الحقوق الدولية الذي انعقد في لاهي عام ١٩٣٦ ، إذ صدر قرار ينص على أن الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق في كل مكان وزمان .

فالشريعة كالكائن الحي ، تمتاز بالحركة والنماء والتطور ، وهي مرنة تتسع هنا وهناك في كل الأزمان ، لتشمل بأحكامها ما تجيء به الحياة المتعددة المتغيرة ، من وقائع ونوازل وأحداث ، وليس معنى هذا أن أحكام الشريعة تتغير بحيث تساير الزمن الذي يفرض نفسه عليها ، وإنما المقصود بأن هذه الأحكام تعطي الدواء المناسب بحسب تغير الظروف والأحوال بما يحقق مقصد الشارع .

وهذا التطور أمر طبيعي يناله كل كائن حي ، وتفرضه طبيعة الحياة ، وتقره البدنية العلمية ، وهي تناهي النصوص الشرعية ، وعدم تناهي المحدث والواقع .

الثابت والمتطور من الأحكام :

□ والناظر في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أن منها ما هو متتطور مع

تطورات الزمن ومتطلباته ، ومنها ما هو ثابت لا يخضع للتطور ، ولا يتعلق بتغير الأزمان .

فأما الأحكام الثابتة فهي :

١ - العادات ب مختلف ضروبها : لم تتطور البتة منذ عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، ولن تتطور أبداً ، لأن الله جل وعلا أراد أن يعبد هكذا ، فلن يجد منها ، أو من أحكامها ما لم يكن موجوداً أيام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلك أن الشريعة قرآناً وسنة معاً ، قد حددت كل شعيرة منها ، بما لا يحتمل شيئاً من الاجتهاد ، والذي هو سبيل التطور ، وهذا أمر ضروري بلا ريب إذا عرفنا أن الأمور التعبدية لامجال للعقل الإنساني فيها .

٢ - الحدود والقصاص : وهي عقوبات الجرائم الهامة في المجتمع ، كحد الزنا والسرقة والقتل والارتداد والقذف وشرب الخمر وقطع الطريق .

٣ - نظام الأسرة : وذلك باعتبارها أصل النظام الاجتماعي ، ولو ترك الأمر فيها للاجتهاد والرأي لأدى ذلك إلى اضطراب الحياة الاجتماعية .

٤ - الميراث : باعتباره يتعلق بانتقال الملكية وتوزيعها ، فوجب أن يكون دقيقاً ، ولا سيما وقد ظهر خطره في عصرنا الحاضر بظهور النظريات المتعددة التي تتصارع في هذا الأمر .

وأما الأحكام المتطورة :

فهي المعاملات لأنها أمور دنيوية ، وأحكامها تتعلق بما يكون من أحداث لازالت تتجدد وتتغير في هذه الدنيا التي قال عنها الرسول ﷺ : «أنتم اعلم

بأمر دنياكم» . وبذلك يتغير النظر فيها ، ويبدل على أن يكون دائمًا في فلك القرآن الحكم وسنة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى .

ففي المعاملات يجب أن نعمل بجد وأنه لأجل أن نجد الحلول المناسبة لكل ما يستجد في زماننا ، كما عمل أسلافنا رضوان الله عليهم . مما سنبين أمثلاً له في هذا المبدأ .

فالأحكام التي تتعلق بالمصالح يراعى فيها معايرة الزمن لتحقيق المطلب التي تتجدد وتتنوع حسب تطورات الأمم والأحوال والأفراد ، وهذه الأحكام هي مدار البحث الأصولي : تغيير الأحكام بتغيير الأزمان .

سؤال يعرض نفسه : من الذي سيجتهد ويغير ؟

الجواب بسيط : عالم ، إن لم يكن مثل سيدنا عمر الذي اجتهد وغيره ، فهو بقدر الإمكان على شاكلته في الورع والتقوى ، ويتشبه به من حيث طرح حظ النفس ، وجعل مصلحة المسلمين هي الهدف والمرام .



مَبْدأ النَّظَرِ فِي مَالَاتِ الْأَفْعَالِ

أدلة من الميزان « الكتاب ، والسنة النبوية »

□ النظر في مالات الأفعال معتبر من قبل الشارع ، وينبغي أن يكون معتبراً من قبل المجتهد ، أي أن مقصود الشارع أن تنظر في المالات بشكل واجب ، ومعنى النظر في المالات هو أن الأحكام التي تشرع لفعل من الأفعال يجب إدراك ما يفضي الفعل من نتيجة ، ويجب على المجتهد اعتبار هذا المال ، لأن الشارع أوجب هذا الاعتبار ، فإذا كانت هذه النتائج مصلحة راجحة ، فإن الفعل بقى على المشروعية ، لأننا لا نتصور أن يُهدر خير كثير إذا تسبب عنه ضرر قليل ، وأما إذا كانت هذه النتائج ترجح فيها المفسدة على المصلحة أو تساويها ، فقد اتفق الأصوليون على عدم الحكم ، لأن الفعل أصبح غير مناسب بالنظر لما آلت إليه من مفسدة راجحة أو مساوية ، ومن هذا الأصل يمكن أن نفصل البحث كما يلي :

□ إن الأفعال الصادرة عن المكلفين لا يمكن إعطاؤها حكم المشروعية ، أو عدم المشروعية إلا بعد النظر في النتائج التي تترتب على هذا الفعل ، فإذا كان ذلك الفعل مثروعاً في الأصل لأن القيام به مصلحة ، كالبيع والشراء ، ولكن ما يلزم عن هذا الفعل المشروع في الأصل من ثرة أو نتيجة غير مشروعة تمنع إطلاق القول بالمشروعية لسبب تغير الحال . وإذا كان الفعل غير مشروع في الأصل ، ولزم عنه مصلحة راجحة ، فإن هذا اللازم يمنع إطلاق القول بعدم المشروعية . فهذه الأفعال المشروعة أو غير المشروعة ، إذا أدت إلى ما يناقض قصد الشارع من تشريع الحكم ، فلا بد من اعتبار هذه اللوازم الخارجية في ذاتها ، لأننا إذا أطلقنا القول بالمشروعية في حال جلب المصلحة التي تؤدي إلى

مفيدة ، مساوية أو راجحة ، كان هذا المال مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية ، لأن الشارع لا يقصد من تشريع الأحكام أن تترتب عليها مفاسد راجحة أو مساوية ، وإلا كانت أحكام الشريعة قد أنزلت لجلب المفاسد ، وهو خلاف الأصل العام الذي قامت عليه الشريعة . وبهذا يكون النظر في الملاط بالنسبة للأفعال معتبراً مقصوداً شرعاً ، فتجب مراعاته من قبل المجتهد ، لأنه جار على مقاصد الشريعة .

وقد جاء في نظرية التعسف في استعمال الحق^(١) :

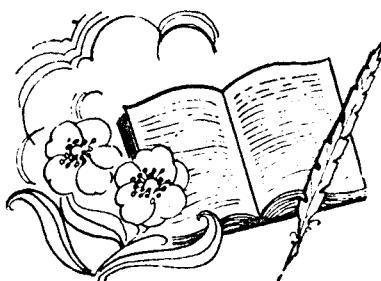
المصالح معتبرة في الأحكام ، وإنها شرعت لتحقيق غايات أساسية قد قصد الشارع تحقيقها ، ومن هنا كان الحكم منظوراً إليه في الشرع على أنه وسيلة غايتها المصلحة ، فكل فعل هو مقدمة لنتيجة أو وسيلة إلى غاية يفضي - قطعاً أو ظناً أو كثيراً أو غالباً - إلى غير غايتها التي رسماها الشارع ، أو إلى مال هو مفسدة مساوية أو راجحة على المصلحة التي شرع الحق من أجلها ، لم يبق مشروععاً ، لأن العبرة بهذه النتيجة في تكيف « اعطاء وصف » الفعل ، وهي كما رأينا مناقضة لمقصد الشارع ، وتؤدياً لهذه المناقضة ، يلزم المجتهد في التشريع الاجتهادي أن ينظر في هذه الملاط جرياً على اعتبار المصالح في الأحكام دون النظر إلى الباعث ، أو القصد في آحاد الصور .

وفكرة عدم النظر إلى الباعث ، تتوضّح بحديث السفينة ، حيث أن الذين أرادوا خرقها ، لم يكن الباعث قصد الضرر ، وإنما عدم إيتاء الذين فوق بالمرور من حصتهم ، وقد تبيّن ذلك من قولهم : لو أنا خرقنا في نصيبينا

(١) للدكتور فتحي الدربي.

خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . ومع هذا يجب أن يؤخذ على يدهم دون النظر إلى هذا الباعث الحسن . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز التذرع بأمر ظاهر الجواز لتحقيق أغراض غير مشروعة لما في ذلك من مناقضة الشرع عيناً بهدم قواعد الشريعة ، فالتصرفات المأذون فيها قولية كانت أم فعلية ، إذا أفضت بذاتها إلى مال من نوع ، مُنعت ، ولم تشرع ، لأن هذه التصرفات وسائل لتحقيق صالح لا مفاسد .

وصلة هذا المبدأ بتغيير الأحكام بتغير الأزمان : أن المال تغير بسبب ظرف طارئ ، فهذا الظرف ، أو الحالة الطارئة ، يؤثر في مال الفعل ، فيتغير الحكم تبعاً لطروء هذه الحال التي أتاحت مالاً مختلفاً عن المال الأصلي للفعل .



الأدلة

١- كتاب الله

قال تعالى : ﴿ ولا تسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيُسْبِّوُ اللَّهَ عَدُواً

بغير علم^(١) .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال في هذه الآية : إن المشركين قالوا يا محمد : لتهين عن سب آلهتنا أو لننهجون ربك ، فنهى النبي عليه أصلحه أصحابه عن سب الأوثان والأصنام دفعاً لما يؤول إليه من مفسدة ، وهي أن يسب المشركون الله بغير علم^(٢) .

وروى قتادة أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار ، فيردون ذلك عليهم ، ففهم الله أن يستسبوا لربهم ، أن يعرضوا ربهم للسب من قبل المشركين بذلك الفعل ، لأن المشركين قوم جهلة لا علم لهم بالله .

وعن قتادة أيضاً كان المسلمون يسبون أوثان الكفار ، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم .

تبين مما مر أن الآية الكريمة أنزلت تنهى المسلمين عن سب الأصنام والأوثان على الرغم من أن هذا الفعل مشروع ، بل واجب ومقصود شرعاً ، لما فيه من توهين الشرك وأهله ، وهدم حصنون الكفر واللحاد ، وهو في ذاته قربة إلى الله تعالى ، ولكن ترتيب على هذا الفعل أن يقوم الكفار والمشركون

(١) سورة الأنعام ، الآية الكريمة : ١٠٨

(٢) جامع البيان للطبراني .

بالرد على المسلمين بالمثل فيسبوا الله عدواً بغير علم ، وبذلك كانت المصلحة الناتجة عن سب الأنصام ، لا تتكافأ أبداً مع المفسدة التي أدى إليها ذلك الفعل المشروع ، وأصبح اطلاق القول بالشرعية ، منافيًّا ومناقضاً لقصد الشارع ، فوجب عدم اطلاق القول بشرعنته ، وترك العمل به والأخذ بحكم آخر يحقق مقصود الشارع ، أو يكون أقرب إلى تحقيقه ما دام ذلك الفعل يؤدي إلى عكس مقصوده ، فإذا لم يؤدي إلى عكس مقصوده ، شرع الحكم عنده . وبذلك يتبيّن أن الفعل في الشريعة يتکيف بحسب هذا الأصل بالشرعية أو عدمها ، في ضوء الثرة التي تترتب على تطبيق هذا الفعل ، لئلا يؤدي تطبيق الأحكام إلى عكس مقصود الشارع ، وهذا أصل النظر في مآلات الأفعال .

☆ ☆ ☆

٩- الشّيّة الشّرِيفَة

آ - قول النبي ﷺ فيما روتته عائشة رضي الله عنها :

« لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لبنيتُ الكعبة على قواعد إبراهيم ». .

يدل الحديث على أن اقامة الكعبة على قواعد ابراهيم أجرد بالعمل ، ولكن منع من ذلك قرب قريش من عهد الكفر ، وعدم تمكن اليمان من نفوسهم ، وهذا هو الظرف المانع ، لأن مفسدة ارتداهم إلى الشرك مفسدة تربو على مصلحة بناء الكعبة على قواعد ابراهيم ، وهذا نظر في مآل الفعل المشروع الذي يتربّ على القيام به مفسدة ترجح على المصلحة .

ب - قول النبي ﷺ : لولا أن أشقر على أمتي ، لأخرت العشاء إلى ثلث الليل ، ولأمرتكم بالسواك عند كل صلاة . وهذا واضح في عدم أمره الأمة

بذلك لما يترتب على هذا الأمر من المخرج والمشقة ، وهو أصل النظر في مآل الأفعال ، وكلمة لولا في الحديث ، تدل على أن وجود المال هو المانع الذي جعل النبي ﷺ لا يأمر الأمة بذلك ، والسبب هو ظرف المشقة .

ج - قوله ﷺ وحين أشير عليه بقتل من ظهر نفاقه : أخاف أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه . فهذه أيضًا مراعاة لمال فعل قتل المنافق الذي أصله على المشروعية بالنظر لما يفضي ذلك من مفسدة الادعاء ، بأن النبي ﷺ يقتل أصحابه ، وما يترتب على ذلك من إjection الناس عن الدخول في الدين الحق ، دين الله عز وجل ، في ظرف يتضمن ضعف المسلمين ، ورواج الدعاية ضد النبي ﷺ .

فهذه الأحاديث وما شابها ، تقوم دليلاً على وجوب النظر في مآلات الأفعال قبل وقوع الفعل ، ويلزم من ذلك النظر في المال بعد وقوع الفعل من باب أولى .

□ وهذه أدلة تنهض بمشروعية تغير الحكم بتغير الزمن ، وقد يقال إن الحديث الأحادي لا يصلح سندًا لأصل شرعي ، ولكننا نقول ان كثرة الأحاديث التي يعض بعضها بعضاً ، تصلاح دليلاً على تأصيل هذا المبدأ ، فضلاً عن أنا استقينا سند هذا المبدأ من القرآن الكريم .



النخراش المناسبة :

- المناسبة : هي أن يكون ترتيب الحكم على العلة من شأنه أن يؤدي إلى المصلحة ، وقد جاء في مسلم الثبوت : « هل تنخرم مناسبة الوصف للحكم

بفسدة تلزم ذلك الوصف راجحة أو مساوية إياها ، قيل لا تنخرم ، واختاره الرازي صاحب المحصول من الشافعية وهو المختار ، وقيل نعم تنخرم ، واختاره ابن الحاجب^(١) .

- إنحرام مناسبة الوصف للحكم يتعلق بالفعل الواحد الذي يكون له مآلان متعارضان :

الأول المصلحة التي شرع الحكم من أجل تحقيقها .

الثاني المفسدة التي تلزم عن ذلك الفعل ، وهي مساوية للمصلحة أو راجحة عليها .

- فالوصف المناسب للحكم « أي العلة » ، اذا كان شرع الحكم عنده يوجب مفسدة نادرة ، أو مرجوحة ، لا تبطل مناسبة الوصف بلزوم هذه المفسدة ، ويصح التعليل بها لأنه لا يهدى خير كثير من أجل شر قليل .

أما الوصف المناسب للحكم ، اذا كان شر الحكم عنده يوجب مفسدة راجحة ، فان الحكم لا يشرع ، لأن المقرر عقلا وشرعا ، أنه لا عبرة بالمرجوح مع وجود الراجح ، وكذلك اذا كانت المفسدة مساوية للمصلحة ، فلا يشرع الحكم أيضاً ، لأنه ترجيح بغير مرجع ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأيضاً اهتم الشارع بالنهيات أكثر من اهتمامه باللأمورات ، لقوله عليه السلام : « اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . فعلم امثال الامر بالاستطاعة وسد باب النهي فلم يجزه الا عند الضرورة .

ومؤدى هذه المسألة ، أن تشريع الحكم بالاذن أو المنع منوط بغلبة المصلحة

(١) مسلم الثبوت ، ج ٢ ، ص : ٢٦٤ .

على المفسدة أو العكس ، لأنه ثبت بالاستقراء ، أنه لا توجد مصلحة لا تشمل على مفسدة ، كما لا توجد مفسدة إلا تنطوي على مصلحة . يقول الإمام الشاطبي^(١) : ليس في الدنيا محض مصلحة ، ولا محض مفسدة ، والمقصود للشارع ما غالب منها .

□ فالضابط في المشروعات ، أو الممنوعات ، هي الموازنة والعبارة بما غالب حسب الأحوال ، وهذا ما اتفق عليه الأصوليون والفقهاء .

□ وأما مدار الخلاف :

على بطلان مناسبة الوصف للحكم ، فإن رأي ابن الحاجب أن اعتبار المصلحة المرجوة لا قيمة لها وكأنها غير موجودة يعدّها في ذاتها . وتبطل مناسبة الوصف للحكم لعدم اشتاله على مصلحة ، وكذلك إذا كانت المفسدة مساوية ، فلا يصح ترجيح أحد المتساوين على الآخر بدون مرجع ، ولا يصح أن يكون الوصف مناسباً .

وإمام الرازي يرى أن عدم اعتبار المصلحة لمرجوحتها لا ي عدم حقيقتها ، وبالتالي لا يبطل مناسبتها للحكم والوصف يسمى مناسباً سواء كانت المفسدة مساوية أو راجحة ، ولكن الحكم لا يشرع عند الوصف المذكور ، لأن النفع وإن كان قليلاً يسمى نفعاً لوجود الحقيقة فيه ، والمفسدة وإن كانت راجحة لا تجعل النفع ضرراً ، وقلب الحقائق لا يكون بالاعتبار ، وإنما يكون بذهاب الحقيقة بذهاب أجزائها كلها ، وما دام النفع باقياً ولو

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي : أصولي حافظ ، من أهل غرناطة . كان من أئمة المالكية ، توفي في عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م . من كتبه : المواقفات في أصول الفقه ، الجالس « شرح به كتاب البيوع من صحيح البخاري » والآفادات والانشاءات ، والاتفاق في علم الاشتغال ، وأصول النحو ، والاعتصام « في أصول الفقه » ، وشرح الالفية . (الاعلام : ج ١ ، ص ٧١) .

مرجواً ، فالحقيقة لا تزال موجودة وعدم شرعية الحكم بسبب مرجوحة هذه المصلحة ، وأمامنا مناسبة الوصف للحكم ، فالارجح أنها باقية بدليل أن المفسدة اذا أصبحت مرجوحة واصبحت المصلحة راجحة بتغير الظروف والاحوال ، عادت شرعية الحكم ، وغاية ما في الامر أن المصلحة المرجوحة بسبب الظروف تصبح غير معترضة ما دامت هذه الظروف قائمة حتى اذا ما تغيرت عاد اعتبار المصلحة ، لأن عدم الاعتبار لم يبدل الحقيقة ، والنتيجة أن المسألة تخضع للتغيير الظروف حيث يتغير معها الحكم ، وهو ما يتصل ببدأ تغير الاحكام بتغيير الأزمان . وتوضحه الامثلة التالية :

١ - تلقي السلع :

تلقي السلع فعل له مآلان : الاول : مصلحة مشروعة للفرد في جلب الرزق لنفسه وعياله .

والثاني : مفسدة تلزم عن الفعل بسبب الضرر الذي يلحق بأهل البلد .

□ فهذه مفسدة بلا شك ، راجحة على مصلحة الفرد ، ولذلك يمنع المتلقي ، وتهدر الفردية لأجل المصلحة العامة ، وهذه المصلحة المهدمة تبقى في ذاتها مصلحة ، ويشرع الحكم عندها ، اذا تغير الظرف وأضحى تلقي السلع لا يضر بأهل البلد لكثرتها ، أو لعدم اشتداد حاجة الناس اليها ، حيث ينتفي الضرر عنهم ، وعندئذ لا يمنع المتلقي ، ويأرس مصلحته التي أهدرت في الظرف السابق ، ويتصح ذلك بالمثال التالي :

يخرج التجار الى القرى لجمع البيض ، والعودة به الى المدينة ، مما يبيح لهم التحكم بالسعر ، وينتج عنه ضرر بال العامة ، ولذا يمنع هذا التلقي . بيد أنه في ايامنا الحاضرة وقد وجدت المداجن الفنية في المدينة ، وهي تنتج كميات كبيرة

من البيض ، انتفي الضرر الناتج عن التلقي ، لعدم امكان التحكم بالسعر ، فيتغير الحكم ، ولا يمنع المتلقي ، ويكون المؤثر في تغير الحكم ، توفر السلعة وعدمه ، بحسب تغير الظروف ، وهو ما يطلق عليه : تغير الظرف المادي .

٢ - الاحتياط :

إن تصرف المالك بملكه على الوجه الذي يريد منطلقاً من مصلحته ، أمر مشروع ومؤمور به . بيد أن استعماله على وجه يضر بال العامة ، كأن يحتكر السلع التي تشتد حاجة الناس إليها تربصاً بهم الغلاء ، فيمنع . لأن هناك مالين : الأول : مصلحة المالك في التصرف بحق الملكية ، وهو مأذون به .

الثاني : مفسدة الضرر بال العامة ، وهي راجحة على المصلحة . ولذلك تُهدى تلك المصلحة المرجوحة ، بالقدر الذي يدفع الضرر بال العامة . فيمنع من الاحتياط ، ويجبر على البيع بثمن المثل ، تحقيقاً للعدل ، ورعاية للحقين ما أمكن ، أما اذا تغيرت الظروف وزال ما كان بالناس من حاجة الى السلع التي يحتكرها لم يجبر على بيعها ، اذ لا ضرر يلزم على الاحتياط ، فتبقي المصلحة الفردية التي لم تنعدم بذاتها ، ويسرع عندها الحكم بعد تغير الظرف ، ومثال ذلك :

مادة الشاي ، فإذا كانت الكييات الموجودة في الاسواق قليلة ، واحتكر التجار هذه المادة ، نتج عن هذا التصرف ضرر بال العامة ، فلا يجوز للمالك احتكار السلعة ، ولو كان تصرفه في ملكه مشروعًا في الأصل ، ولا يقال ان المالك مسلط على ماله ، لأن مصلحة تصرفه في ملكه ، مصلحة فردية نتج عنها الاضرار بال العامة ، وهي مفسدة راجحة ، فيمنع التصرف ، وتُهدى هذه المصلحة الا أنها تبقى مصلحة ، فإذا استوردت الدولة الكييات الكافية من

الشاي وطرحتها في الاسواق ، انتهى الضرر عن العامة ، وعاد حكم تصرف التجار بأموالهم الى أصله من المشروعية ، ولا يمنعون من الاحتقار .

ونلاحظ أن تغير الحكم يتعلق بتغير الظرف المادي ، وهو وجود السلعة ، أو عدم وجودها .



التعریف الأصویل لمبدأ تغیر الأحكام بتغیر الأزمان .

□ تغیر الأحكام بتغیر الأزمان :

هو تغیر الظروف المادية أو المعنوية تغييرًا بحيث يصبح الحكم المشروع سلباً أو إيجاباً مفضياً إلى تحقيق المصلحة ، مع لزوم مفسدة راجحة أو متساوية .

ويتبين من التعریف ، أن المقصود بتغیر الأحكام بتغیر الأزمان ، ليس مجرد تغیر الزمن ، لأن الاوقات والایام متشابهة ، وإنما المقصود : تغیر العامل المؤثر في الحكم ، وهذا العامل قد يكون ظرفاً مادياً ، أو ظرفاً معنواً .

ومثال الظرف المعنوي : حديث رسول الله ﷺ : « لو لا أن أشق على أمي ، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ». فالحديث يفيد أن السواك عند كل صلاة أفضل ، ولكنه عدل عن الأفضل إلى المفضول دفعاً للمشقة ، ومراعاة مصلحة الناس ، فالظرف المغير للحكم هو المشقة ، وهي ظرف معنوي ، والحكم المتغير هو وجوب السواك عند كل صلاة إلى عدم وجوبه . وهذا الظرف المعنوي ، قد يكون متعلقاً بالعقيدة ، أو تغیر الواقع الديني أو ضعف الإيمان في النفوس كقول النبي ﷺ : « لو لا أن قومك حديثو عهد بشرك ، لبنيت البيت على قواعد ابراهيم » .

فعدم إقامة البيت على قواعد ابراهيم سببه هو حداثة قريش بالآيام ، وقربهم من عهد الشرك ، وخشية الارتداد ، لضعف العقيدة ، فترك عليهما الأفضل للمفضول لهذا الظرف المعنوي .

وأما المثال للظروف المادية :

فقد أوجب الاسلام الجهاد ، وجعل من آدابه : لا يقتل إلا المحارب ، أو من يُعين على الحرب . وقد قتل النبي عليهما السلام دريد بن الصمة ، لأنَّه أُعْانَ الشريكين على الحرب برأيه . فلا يجوز هدر دماء العباد والاطفال والنساء . ومن هنا كان استعمال القنبلة الذرية ، وقنابل النابالم الحرقـة ، أو الجرثومـية والكمـياوية . . . لا يتفق مع مبادئ الاسلام ، لأنَّها تفني البشر ، وتدمـر حـياتـهم ، وتحـدـث التـشوـيـه فيـ الخـلـقـةـ الـانـسـانـيـةـ . وتأتـيـ بالـاـمـرـاـضـ الـفـتـاكـةـ ، ولا يقتصرـ أثرـهاـ عـلـىـ الـقـاتـلـيـنـ ، بلـ يـتـعـدـىـ ذـلـكـ إـلـىـ الـآـمـيـنـ مـنـ الـاطـفـالـ وـالـنـسـاءـ . والـشـيوـخـ ، بلـ الـنبـاتـ وـالـحـيـوانـاتـ ، فـهـيـ مـحـرـمـةـ شـرـعاـ .

ولكن . . . لما كان الأعداء - أعداء المسلمين - يتلـكونـ هذاـ النوعـ منـ القـنـابـلـ ، ويـسـتـعـمـلـونـهاـ ضـدهـمـ ، فـيـجـبـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ اـمـتـلـاكـهاـ أوـ اـسـتـعـمـالـهاـ دـفـاعـاـ عنـ النـفـسـ ، إـذـ انـهـمـ لوـ تـرـكـواـ اـسـتـعـمالـهـاـ لأـدـىـ ذـلـكـ إـلـىـ فـنـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ ، وهـدـمـ المـقـاصـدـ الـضـرـورـيـةـ : الـدـيـنـ وـالـعـقـلـ وـالـمـالـ وـالـنـفـسـ وـالـعـرـضـ وـالـنـسـلـ .

فلولا أن القنبلة ، سيترتب عليها دمار المسلمين وببلادهم ، لما تغير حكم تحريرها ، وتغير الحكم إذن كان بسبب هذا الظرف المادي .

والـتـغـيـرـ قدـ يـكـونـ خـاصـاـ أوـ عـامـاـ . أماـ التـغـيـرـ الـخـاصـ ، فـهـوـ ماـ كـانـ لـشـخصـ معـيـنـ أوـ مـثـلـهـ فـيـ مـثـلـ ظـرـفـهـ ، كـالـأـعـرـابـيـ الـذـيـ بـالـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـنـبـوـيـ ، وـهـمـ الصـاحـابةـ بـهـ لـيـمـنـعـوهـ ، لـوـجـبـ طـهـارـةـ أـمـاـكـنـ الـعـبـادـةـ بـاـبـعـادـ الـنـجـاسـاتـ عـنـهاـ ،

ولأن المسجد بيت الله ، فلا يليق به مثل هذه القاذورات . ومع هذا . . . نجد النبي ﷺ يأمرهم بأن يدعوه ، ويقول لهم لا تُرزوه . لأن المنع يؤدي إلى ضرر يقع على النفس ، بأن يصاب هذا الرجل بأذى في صحته والمحافظة على النفس أمر ضروري ، والأول أمر تحسيني ، فيقدم الضروري على التحسيني ، وهذا التغير بسبب الظرف الصحي الطارئ ، وهو ظرف خاص .

أما الظرف العام ، فقد يشمل الأمة كلها ، كعدم قطع اليدى في عام الجماعة . أو يقتصر على طائفة من الناس ، كمنع النساء من الاختلاف إلى المساجد ، أو يختص بحرف أو وظيفة ، كعدم قطع اليدى في الغزو بالنسبة للجيش .

وقد يكون الظرف اجتماعياً أو اقتصادياً أو متعلقاً بالمعيشة أو العادات ، مما يطول الحديث به اذا فصلنا ، ولكن نهي البحث بقولنا . ان الصحابة والتابعين فهموا ، هذه الظروف ، وعلوا عبدها تغير الاحكام بتغير الأزمان .

فقه الصحابة ، ومن أمثلة ذلك :

١ - المؤلفة قلوبهم : أعطاهم النبي ﷺ ، لقوية الاسلام ونصرته . ولما قوي الاسلام أيام الصديق وما بعدها ، تغيرت الاحوال بتغير الزمن ، فسقط الحكم^(١) بتأليف القلوب .

والتعليل الأصولي لاختلاف الحكم باختلاف الزمن في هذه المسألة :

□ الآية : ﴿إِنَّا الصَّدَقَاتِ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ
قلوبهم﴾ .

(١) راجع أحكام القرآن للبحصاص ، ص ١٥٢ / ١٥٣ .

أَسْنَدَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّدَقَاتِ إِلَيِّ الْمُؤْلِفَةِ قَلْوَبِهِمْ ، وَهَذَا الْاسْنَادُ ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا خَبْرِيًّا ، إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودُ هُوَ الْإِشَاءُ ، أَيُّ الْأَمْرِ بِإِيَّاهُ الصَّدَقَاتِ إِلَيِّ مَنْ تَحَقَّقَ فِيهِمْ وَصَفَ التَّأْلِيفِ ، فَيَكُونُ مَؤْدِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَتَوْا الْمُؤْلِفَةَ قَلْوَبِهِمْ حَقْهُمْ مِنَ الزَّكَاةِ عَمَلاً بِالْقَاعِدَةِ الْأَصْوَلِيَّةِ الْقَاضِيَّةِ بِأَنَّ اسْنَادَ الْحُكْمِ ، (الَّذِي هُوَ وَجُوبُ الْإِيَّاهُ) إِلَى الْمُشْتَقِ (وَهُوَ الْمُؤْلِفَةُ) يَؤْذِنُ بِعَلِيَّةِ الْمُصْدَرِ ، وَهُوَ التَّأْلِيفُ ، فَكَانَ التَّأْلِيفُ هُوَ الْعُلَةُ .

هَذَا . . . وَلَا شَكَ أَنَّ التَّأْلِيفَ ، أَمْرٌ مُوكَلٌ لِلْإِمَامِ يَفْعَلُهُ بِعَقْتَضِيَّةِ الْمُصلَحَةِ الْعَامَةِ ، عَمَلاً بِالْقَاعِدَةِ الْفَقِيرَةِ الْقَائِلَةِ : أَنْ تَصْرُفَ الْإِمَامَ عَلَى الرُّعْيَةِ مُنْوَطَ بِالْمُصلَحَةِ الْعَامَةِ .

فَصَلَحَةُ التَّأْلِيفِ كَانَتْ زَمْنِيَّةً ، تَبَدَّلَتْ بِتَبَدُّلِ الزَّمْنِ . وَتَصْرُفُ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، دَلِيلٌ عَلَى تَغْيِيرِ الْاِحْکَامِ بِتَغْيِيرِ الْأَزْمَانِ .

٢ - قَسْمَةُ الْغَنَائِمِ : بَعْدَ فَتْحِ الْعَرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ ، غَيْرُ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُكْمُ رُفعِ الْخَمْسِ لِيُصْرَفَ فِي مَصَارِفِهِ وَتَقْسِيمِ الْبَاقِي عَلَى الْجَنَدِ ، فَأَبْقَاهُ يَبْدِلُ أَهْلَهَا وَوَضْعَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ لِيَنْفَقَ مِنْهُ عَلَى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ عَامَةً فِي كُلِّ جَيلٍ وَزَمْنٍ ، لَأَنَّ فِي قَسْمَةِ الْأَرْضِ مُفْسَدَةً عَامَةً تَلْحُقُ بِالْمُسْلِمِينَ جَيْعاً .

وَرَأَيَ عَمْرٌ هَذَا أَيْدِهِ كُبَارُ الصَّحَابَةِ ، قَالَ عَلَيْهِ كَرَمُ اللَّهِ وَجْهُهُ : أَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ وَقَلْبِهِ . وَلَا يَقَالُ أَنَّ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَطَلَ حُكْمَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَخَالَفَ فِيهِ النَّبِيَّ لَهَا ، وَهِيَ :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ وَالرَّسُولُ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ^(١) ... ﴾ .

(١) سورة الانفال . الآية الكريمة : ٤١ .

إنما طبق الآية الكريمة في ظرف لم تكن هناك فيه مصلحة في التقسيم ، فالظرف الطارئ الجديد هو : اتساع رقعة الدولة الإسلامية الذي ترتب عليه مصلحة عامة في رعاية مرافقيهم من تجهيز الجيش وسد الثغور ، وهذه المصلحة العامة وقفت متعارضة مع المصلحة الخاصة وروح التشريع الإسلامي القاضية بأنه يجب ترجيح ما هو أكثر نفعاً ، وهو مشتق من قوله عز وجل : ﴿وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ففي الآية إشارة إلى مبدأ ، وهو أن ما كثُرَ شَرُّهُ حَرَّم ، وما كثُرَ خَيْرُهُ شُرُّع . ولا شك أن اعطاء الغائبين الفاتحين نصيبيهم يترتب عليه فساد كبير وهو إهدار المصلحة العامة ، وتوقف الفتوح ونشر الدين ، فيكون محظيا . وهذا كل ما فعله عمر رضي الله عنه بفهمه السليم لروح الشريعة ومراميها ، حيث منع تقسيم الأراضي لمصلحة الأمة الطارئة ، فهذا تطبيق عملي لمبدأ تغير الحكم بتغير الزمن .

وهناك أمور عديدة أخرى مثل :

٣ - منع إقامة الحدود في الغزو^(١)

٤ - إسقاط الحد عن السارق^(٢) .

٥ - التزوج بالكتابيات : منعه سيدنا عمر خوفاً من نساء الأعاجم ، لوجود خلابة وخداع بهن « وإنى لأخشع عليكم منه » ، والخداع هو الاطلاع على أسرار الدولة وإعلام العدو بها . فإنما التزوج بالكتابية حكم شرعه الله . ولكن عمر نهى عنه في بعض الظروف دفعاً لفسدة عظمى تترتب عليها حماية

(١) راجع للتوسيع « الخراج » لأبي يوسف قاضي قضاة بغداد ، ص ١٧٨ .

(٢) راجع في المراجع العديدة . ما حديث عام الرمادة أيام سيدنا عمر ، حيث منع قطع اليد . لأن السارق ما قام بداع الإجرام ونفسية الجرم ، وإنما يقصد درء الملاك عن النفس . في ظروف الجماعة الطارئة .

الصالح العام . وهذا ما تفعله جيوش العالم اليوم ، فإنها تشرط على عناصرها عدم الزواج من أجنبية .

٦ - ضالة الإبل : كانت الإبل الضالة ترك ، وفي عهد عثمان كثرت جداً ، فأمر بتعريفها ثم بيعها إذا لم يجد لها صاحباً ، وإن جاء صاحبها فيما بعد يعطي ثمنها^(١) . وتعاونت على ضالة الإبل ونحوها أحكام ثلاثة :

أ - المنع من التقاطها في زمن رسول الله ﷺ .

ب - التقاطها وبيعها بعد تعريفها وحفظ ثمنها أيام عثمان رضي الله عنه .

ج - التقاطها وحفظها وعلفها من بيت المال حتى يعرف صاحبها في زمن علي رضي الله عنه وكل ذلك لتحقيق المصلحة بحسب الظرف الطارئ في كل عهد .

٧ - خروج النساء إلى المساجد : كان مباحاً أيام رسول الله ، ثم منع لما ظهر التبرج والتزين لدرء مفسدة قد نتجت عن تغير الحال بسبب الظرف الطارئ الجديد .

٨ - تضمين الصناع : في الأصل قول رسول الله : « لا ضمان على مؤمن » (نيل الأوطار : ٥ / ٢٩٦) . عندما كانت الضمائر حية لاتفترط بشيء . ولما رقت ضمائر الناس بمرور الزمن ، وتغير الحال ، وضعف الإيمان ، أصبح العمل بهذه القاعدة مؤدياً إلى نقىض ما قصده الشارع وهو تيسير الاستصناع محافظة على المصلحة العامة . ثم جاء ظرف ما عمل بالقاعدة لمال العمل بها ، وهو برار بالمصلحة العامة ، وهذا ما تقصدت به هذه الأحكام بتغير الأزمان .

الطلاق الثلاث : روی مسلم في صحيحه ... عن ابن عباس : كان

نيل الأوطار » للشوكاني ج ٥ ، ص ٣٢٨ . والموطأ : ج ٢ ص ١٢٩ .

الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا أمراً كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناهم عليهم ، فأمضاه عليهم .

لقد رأى عمر رضي الله عنه ، أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق ، وكثير منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم يامضائه عليهم ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه امرأته وحرمت عليه رغبة منه بأن يعلموا أن الله شرع الطلاق مرة بعد مرة ، ولم يشرعه كله مرة واحدة ، فمن جمع الثلاث في مرة واحدة ، فقد تعدى حدود الله وظلم نفسه ، فهو حقيق بأن يعاقب ، وأن يلزم بما التزمه . أراد عمر ردع النفوس عن التهاون في الطلاق .

ولو أن التهاون والتتابع في إيقاع الطلاق الثلاث زال من المجتمع ، عاد الحكم إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ، من اعتبار الطلاق الثلاث واحداً . وهكذا يتغير الحكم بتغيير الزمن ، حيث يدور مع عنته ، وهي المصلحة الشرعية المعتبرة .



□ وفي فقه التابعين :

فهم مماثل لمبدأ تغيير الأحكام بتغيير الأزمان ، ويظهر ذلك في أمور منها :

١ - التسعير الجبري^(١)

(١) راجع : كشف النقاب في الفقه الحنبلي ، ج ٢ / ص ١٥٠ . ونيل الأوطار للشوكاني ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ ، وسن أبي داود ، ج ٢ ص ٢٢١ ، والمنتقى : ج ٥ ص ١٨ .

٢ - رد شهادة بعض الأقرباء^(١) .

٣ - ضمان الموعود بلا تعدد^(٢) .

☆ ☆ ☆

وبعد ...

□ ليط علماءنا الأكارم يغوصون في موضوعات هذه الشريعة العظيمة التي يَسْعُدُ بها كل من يريد الخير والنظام والعدل والسلام ... مما تغيّر الزمن إلى يوم الدين . لتتلاءم مع الظروف الطارئة التي حدثت واستجذبت بتغير الزمان ، لكي يجد المسلم نفسه قريباً من أحكام القرآن ، غير لاجيء إلى غيره .
ليعود للمسلم اليوم ارتباطه بأحكام : (ميزان الشريعة) .

ولكن يحتاج الموضوع إلى جرأة ... ولكي لا يتتحمل فرد هجمات المترمتنين جامدي العقل والفكر ، فإإنني أدعو علماء المسلمين إلى اجتماعات دورية أو سنوية ، تضم كبار فقهائهم ، أسوة بالجامعة العالمية ، لتحديد رأي الإسلام في الأمور التي طرأت بالظروف المغيرة . وبشكل ملزم للجميع ...

فهل من مجيب ، والحال كا يعرفه الجميع ... اللهم لأملك إلا هذه
الصفحات لأبلغ ... اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

☆ ☆ ☆

ـ الموقعين ، ج ١ ، ص ٩٧ . وفتح القدير ، ج ٦ ، ص ٢٢ ، والروض النمير ، ج ٢ ،

ـ ى : ج ٥ ، ص ١٥٤ . ومنتقى الأخبار للشوكتاني ، ج ٧ ص ١٥٢ . والسنن الكبرى : ج ٨ ،
ـ سير القرآن : ج ٦ ، ص ١٤٣ .

القرآن المضيءَ بَيْنَ التصوّفِ وَالْفِقْهِ؟

□ «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس» .
محمد رسول الله

□ نحن الآن في صدد الحديث عن التصوف من حيث المبدأ ، لا من حيث واقعة اليوم ، فحقيقة التصوف شيء ، والواقع الآن شيء آخر ، اعتقاد الصوفية شيء ، واعتقاد مؤرخي التصوف شيء آخر ، فالتصوف والشرع كانطباقي الكف على الكف ، وكل ما لا ينطبق على ميزان الشريعة فهو دخيل مدسوس مرفوض قطعاً .

التصوف المؤسس على الشريعة ، المنبع منها ، المستند إليها في كل خطوة من خطواته .. إن كانت له أداته من الكتاب والسنة الواضحة الجلية ، فلكل عاقل متزن موقفان :

- يقبل أهداف التصوف ، ويطالب بمذف الاسم والتسمية ، ويكتفي باسم وكلمة مسلم ، أو مؤمن فقط . فالأسماء والتسميات ما زادت الأمة الإسلامية إلا فرقة .

- والموقف الثاني ، يقول من يعترض على التصوف ، لاتنظر إلى واقعه اليوم ، فواقع المسلمين اليوم كله غير سليم ، معظمهم ليسوا على (ميزان الشريعة) ، فلنناقش المبدأ ، ولا نناقش في رجال تبنوه فأخطئوا وأساؤوا إليه .

□ التصوف معرفة وسلوك إلى المعرفة ، وأسمى أنواع المعرفة معرفة الله تعالى ، والإقبال على الله يحتاج إلى إفراغ القلب من سواه ، فلا تجد في القلب مطلباً إلا الله ، والإخلاص أساس طلب معرفة الله المعرفة الحقة « ألا لله الدين الخالص » .

وقال عليه السلام : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راضٌ » .^(١)

ومع الإخلاص ، خشية الله ، قال عليه السلام : « أما والله إني لأخشاكم الله ، وأتقاكم له » .^(٢)

وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ، وَيَخْشَوْنَهُ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .^(٣)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِأَيَّاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْتَوْنَ مَا آتُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، أَوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .^(٤)

فخشية الله عز وجل من أول صفات السابقين إلى الخيرات والمسارعين إليها وذلك حسب ترتيب الآيات الواردة في سورة « المؤمنون » .

وخشية الله هي خوف من الله مع الرجاء فيه ، وهذا يدفع إلى العبادة بعيدة عن الرياء ، ومن لبّ العبادة ذكر الله عز وجل ، الذي حث عليه عشرات الآيات ، وعشرات الأحاديث ، ومنها :

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٢) رواه أنس رضي الله عنه .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٣٩ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيات الكريمة : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

قوله عز وجل : « فاذكُرُونِي أذْكُرْكُمْ ، واشكُرُوا لي ولا تكُفُّرونَ^(١) » .

□ « الَّذِينَ يذَكُّرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وقَعْدًا ، وعلٰى جُنُوبِهِمْ ، ويَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِاطْلَالًا سَبِّحَانَكَ ، فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ^(٢) » .

□ « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا^(٣) » .

□ « وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَّلِّ إِلَيْهِ تَبَّلِّا^(٤) » .

وطريقة ذكر الله عز وجل واضحة جلية بالآلية الكريمة .

□ « وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ القَوْلِ ، بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ^(٥) » .

وبعد هذا كله^(٦) ، وقبل أن نقرأ أحاديث رسول الله ﷺ في هذا الصدد ، وصف الله المنافقين بقلة ذكرهم له :

□ « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ، يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذَكُّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا^(٧) » .

(١) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ١٥٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٩١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٢١ .

(٤) سورة الزمر ، الآية الكريمة : ٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٢٠٤ .

(٦) والحج إلى بيت الله الحرام كله ذكر الله عز وجل ، في سورة البقرة الآيات : ١٩٨ / ٢٠٠ / ٢٠٣ / ٢٠٤ . « فَإِذَا أَضْنَمْتُ مِنْ عِرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الشَّعْرِ الْحَرَامِ ، وَادْكُرُوهُ كَمْ هَدَاكِ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لِنَصْلَانِ ... فَبِإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْاسِكَكُمْ فَادْكُرُوكُمْ أَيَّاهُمْ أَوْ أَشَدْ ذَكْرًا ... وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ... » .

(٧) سورة النساء ، الآية الكريمة : ١٤٢ .

بينما المسلم المؤمن الحق ، وصفه الله عز وجل في الكتاب الكريم :

□ ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ^(١) ﴾ .

أما أحاديث رسول الله ﷺ ، فنها :

- « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعُهَا فِي درجاتِكُمْ ، وَخَيْرُكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الْذَّهَبِ وَالْوَرْقِ ، وَخَيْرُكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْهُ عَدُوكُمْ ، فَتَضْرِبُوهُ أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوهُ أَعْنَاقَكُمْ ، قَالُوا : بَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : ذَكْرُ اللَّهِ تَعَالَى ^(٢) . »

- وَقَالَ ﷺ : « قَالَ مُوسَى : يَارَبِّ ، وَدَدْتُ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ تَحْبُّبِكَ عَبْدَكَ فَأَحْبَبْهُ ، قَالَ : إِذَا رَأَيْتَ عَبْدِي يَكْثُرُ ذِكْرِي فَأَنَا أَذْنَتُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَأَنَا أَحْبَبْهُ . وَإِذَا رَأَيْتَ عَبْدِي لَا يَذْكُرُنِي فَأَنَا حَبِّبْتُهُ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَا أَبغضُهُ ^(٣) » .

- وَقَالَ ﷺ : (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ أُولَئِيَّةَ مِنْ عَبْدَيِّي وَأَحْبَابِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يَذْكُرُونَ بِذِكْرِي ، وَأَذْكُرُ بِذِكْرِهِمْ ^(٤)) .

- وَقَالَ : « اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا خَامِلاً ، قِيلَ : وَمَا الذَّكْرُ الْخَامِلُ ؟ قَالَ : الذَّكْرُ الْخَفِيُّ ^(٥) » .

وورد : « كان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول قم بنا

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢ .

(٢) رواه الترمذى ، والحاكم ، وابن ماجه عن أبي الدرداء .

(٣) الدارقطنى في الأفراد ، وابن عساكر عن عمر .

(٤) أبو نعيم في الحلية .

(٥) ابن المبارك في الزهد عن صمرة بن حبيب مرسلًا

نردد إيمانا ، فيذكرون الله عز وجل^(١) . وقال عثمان رضي الله عنه : « لو أن قلوبنا طهرت ، لم تقل من ذكر الله ». .

□ ولا يصل أحد إلى معرفة الله ، إلا بدوام الذكر له ، ومع الذكر : ورع وزهد ، ورع عن كل حرام أو شبهة ، وزهد : أي عدم تعلق القلب بالدنيا ، يملأ الذاكِرَ الورعُ الدنيا ، ولكنها لاتملأه ، فالزهد عمل من أعمال القلب ، وليس فقرأً ، وليس مسكنة وخصوصاً وخنواعاً .

ومن التصوف الصبر على الطاعة ، والتوكل : أي الوثوق بالله ، لا التواكل ، فالتوكل عمل قلي يسبقه إتيان الأسباب ، واعداداً بشكل عقلي سليم . ثم الحبة : « يأيها الذين آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذْلَلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعْزِزُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ واسعٌ عَلِيمٌ^(٢) ». .

والمحبة ، محبة الله ، ومحبة بالله ، يحب المؤمن الله ، ويحب ما يحبه الله ، ويبغض الله ، ومع المحبة الرضا ، ولا يعني ذلك عدم السعي لما هو أفضل ، بل القناعة بالحاضر الموجود ، والسعى والجد لحياة أفضل .

□ وهنا يتبدادر سؤال : لماذا نجد التصوف في كل الأديان ؟ والجواب : بسيط :

إن أشواق الروح الإنسانية قسط مشترك بين بني آدم ، لا تنفرد به أمة من

(١) اللاكائي في السنة عن أبي ذر

(٢) سورة المائدة ، الآية الكريمة : ٥٤

الأمم ، ولا تخلو منه أمة من الأمم ، ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب ، دون سائر العقائد الدينية^(١) .

□ أما ما نراه اليوم من حمل رايات ورقص ، باسم التصوف . هذا دخيل عليه ، والأفضل أن نرجع إلى كلمة مسلم ومؤمن مادامت مستددة من الكتاب والسنة ونرفع التسميات جانبا ، فلا تهمنا التسمية بقدر ما يهمنا اللباب .

فكل عمل يرتكب باسم التصوف ولا ينطبق على أحكام « شريعة الميزان » فالتصوف منه براء . ومن أعلام المتصوفة ، الذين يعتز بهم المسلمون ، ويعتز بهم الإسلام :

- **الفضيل بن عياض** : حياته تكذب الذين يريدون أن يقرنوا بين التصوف والجهل في الدين والشرع . فقد كان الفضيل قمة في العلم . وحياته تكذب الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة موء تفاص ، فقد كانت حياة الفضيل سلوكاً ملتزماً بالشريعة . وحياته تكذب الذين يحاولون في تعسّف وزيف ، أن يجعلوا التصوف دخيلاً على الإسلام ، من اليونان : أفلاطونية أفلاطون ، أو أفلاطينية ، أفلاطين ، هذه الآراء اليونانية لم تكن ظهرت في عصر عاش فيه الفضيل ، ألا وهو القرن الثاني المجري^(٢) . ولم يعرف الفضيل هذه الآراء أو تلك ، وهو العربي المسلم الصميم من قبيلة قيم . وحياته تكذب الذين يقولون إن المسيحية مصدر التصوف ، فالفضيل كان غارقاً في التراث الإسلامي ، في ميراث محمد ﷺ ، في الحديث وفي القرآن ، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية ، إلا ما ذكره القرآن منها ، أو ما ذكره الرسول مفسراً للقرآن ، ومبينا له .

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، ص ١٠٩ ، طبع دار المعارف ، ط ٢٤

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، توفي عام ١٨٧ هـ .

وحياته تكذب الذين يقولون : إن نشأة التصوف إنما هي نشأة فارسية ، وإنه لا يتناسب مع الفطرة العربية . لقد كان الفضيل عريباً خالصاً ، وكان من أئمة الصوفية .

وحياته تكذب الذين يقولون إن التصوف زهد وكسل وتواكل وتقوّع ، فقد كان عالماً من كبار علماء المسلمين ، وكان يعيش من كسب يده في السقاية^(١) .

□ قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد ، فيينا أنا نائم ، إذ سمعت قرع الباب ، فقلت من هذا ؟ !

قال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً ، فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك ، فقال : ويحك ، قد حال في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم ، انظر لي رجلاً أسأله .

قلت : هنا سفيان بن عيينة .

قال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟

قلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليَّ أتيتك ، فقال : جَدَّ لنا ما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم ، قال : يا عباس اقض دينه ، ثم انصرفنا .

قال الرشيد لابن الربيع : ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . فقال امض بنا إليه نسألة ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك . فقال : جَدَّ لنا ما

(١) « الفضيل بن عياض » ط دار الشعب ، د . عبد الحامد محمود

جئنا إليه ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين؟ فقال : نعم ، فقال الرشيد : يا عباس اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغني عني صاحبك شيئاً ! فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت لها هنا الفضيل بن عياض . فقال امض بنا إليه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلي في غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين .

قال : ما لي ولأمير المؤمنين .

فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟ !

قال : أليس قد روی عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه ». فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطافاً السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف الرشيد كفي إليه ، فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى ، قال : فقلت في نفسي ليكلمه الليلة بكلام تقي من قلب تقي .

قال الرشيد : جَدَّ لنا ما جئنا له يرحمك الله .

قال : وفيما جئت ؟ حملت على نفسك ، وجميع من معك حملوا عليك ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك جزءاً من ذنب ما فعلوا ، ولكن أشدتهم حباً لك أشدتم هرباً منك ، ثم قال :

- إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حمزة ، فقال لهم : إني ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعدوا الخلافة بلاء ، وعدتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال سالم بن عبد الله :

إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً ، فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فبر أباك ، وارحم أخيك وتخنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إذا أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للMuslimين ماتحب لنفسك ، واكره لهم ماتكره لنفسك ، ثم متى شئت مت ، وإنني لأقول لك هذا ، وإنني لأخاف عليك أشدّ الخوف يوم تَزَلُّ الأقدام . فهل معك رحمة الله من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟ ! .

فبكى الرشيد بكاء شديداً ، حتى غشي عليه ، فقال الفضل بن الريبع : ارفق بأمير المؤمنين . فقال : يا ابن أم الريبع قتلتة أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا . ثم أفاق . فقال : زدني ... فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال : يارسول الله أمرني على إماراة ، فقال له النبي ﷺ : يا عباس ، يا عم النبي ، نفس تحبها خير من إماراة لا تحبها . إن الإماراة حسرة وندامة يوم القيمة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً . ثم قال : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيمة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وقسي وفي قلبك غشن لرعيتك ، فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشياً ، لم يرِحْ رائحة الجنة » .

فبكى الرشيد بكاء شديداً ، ثم قال : عليك دين ؟
قال : نعم ، دين لربِّي لم يحاسبني عليه ، فالويل إن ناقشتني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي .

الرشيد : إنما أعني دين العباد !

الفضيل بن عياض : إن ربي لم يأمرني بهذا ، وأمرني أن أصدق وعده ،
وأطيع أمره ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا
أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازَقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتِينُ ﴾^(١) .

الرشيد : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك ، وتقوا بها على عبادة ربك .

الفضيل بن عياض : سبحان الله ! ! أنا أذلك على النجاة ، وتكافئني بثل هذا ! سَلَّمَكَ اللَّهُ وَوَفَقَكَ ، ثُمَّ صَمَتْ فَلَمْ يَكَلَّمْنَا ، فَخَرَجْنَا مِنْ عَنْهُ .

فقال الرشيد : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم .

- ثم إن امرأة من أهل الفضيل ، دخلت عليه ، فقالت : يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به !

فقال : إنما مثلي ومثلكم ، كمثل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه ، فلما
كبير نحروه ، فأكلوا لحمه ، موتوا يأهلي جوعا ، ولا تذبحوا فضيلا .

فلما سمع الرشيد ذلك ، قال : ادخل فعسى أن يقبل المال . قال :
فدخلنا ، فلما علم بنا الفضيل ، خرج وجلس على التراب على السطح . فجاء
هارون الرشيد ، فجلس إلى جانبه ، فجعل يكلمه فلا يحييه ، فبينما نحن
كذلك ، إذ خرجت طفلة سوداء فقالت : يا هذا ... قد آذيت الشيخ منذ
الليلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا .

(١) سورة النازيات ، الآيات الكريمة : ٥٦ / ٥٧ / ٥٨

فتأمل ... الرشيد ، ملك الدنيا في زمانه ، من قال لنقفور : كلب الروم ، وحقق ذلك عليا ، يسي كالطفل ، مع العالم الحقيقي .

ومع موقف الفضيل بن عياض هذا ، كان يقول : لو كانت لي دعوة مستجابة ، لا أجعلها إلا في إمام صالح ، لأنه إذا صلح الإمام أمنَ العباد^(١) .

☆ ☆ ☆

- **أحمد الفاروقى^(٢)** : يعود نسبه من جهة أبيه إلى سيدنا عمر الفاروق ، ومن جهة أمه إلى الحسين رضي الله عنه ، إلا أن شهرته لا تعود إلى هذا النسب الكريم العريق ، بقدر ما تعود إلى تقواه وتضلعه في العلوم الدينية وإلى أثره الديني والسياسي ، الذي لا يقل عن أثر الشيوخ العظام : أمثال الغزالى ، وهاء الدين النقشبendi ، خلف وراءه عدداً كبيراً من الكتب التي ألفها في مختلف الموضوعات ، أهمها : « رسالة إثبات النبوة » ، كما كتب في السياسة ، وفلسفة القرآن ، وعلوم ما وراء الطبيعة .

- كان همه : إحياء الشريعة الإسلامية ، بعد أن تلمذ على يد شيخه محمد الباقى .

- نشأ بينه وبين الملك (جلال الدين أكبر) ، وبعده مع ابنه جهانكىز ، خلاف شديد ، لأنهما أرادا إجراء قانون مخالف للشريعة ، فقام في وجهيهما ، وأنكر عليهما إنكاراً شديداً علينا ، فلما طلع على العرش ابن جهانكىز ، خاف

(١) قال عليه السلام : « لاتسبوا الأئمة ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلتهم صلاح لكم » (رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة)

(٢) هو مجدد الألف الثاني ، ولد عام ٩٥١ هـ ، وتوفي عام ١٠٤٤ هـ . ولد في سر هند ، أول الهند من جهة البنجاب .

من نفوذ الشيخ وتلاميذه ، فأصدر أمره بحبسه في قلعة « كوالبار » ، وهي قلعة حصينة مبنية على قمة جبل في الهند ، فصبر الشيخ ، واستسلم إلى قضاء الله ، حتى أصدر أمره إلى خلفائه وتلاميذه بعد إثارة أي شيء ضد الملك ، إلى أن يأتي الله بأمره ، وبعد مضي نيف وثلاثين يوماً من حبسه سلط الله تعالى داء عضالاً على الملك أعيما الأطباء ، واستعصى عليهم ، فلم يجدوا علاجاً له . إلى أن تنبهت والدة الملك ، وخطر ببالها أن هذا المرض ربياناً كان من دعاء الشيخ على الملك ، فنصحت لولدها أن يعتذر عند الشيخ ويطلق سراحه ، فاضطر إلى إرسال رسول إلى السجن ليقدم للشيخ عنzer الملك وينحرجه من السجن ، فدعا الشيخ له وسأل من الله أن يشفيه ، فاستجاب الله دعاءه وشفى الملك ، وأمر بتقديم الهدايا إلى الشيخ ، وعمل التسهيلات لسفره إلى سرهدن ، فرد رحمه الله الهدية ، وسافر إلى الزاوية النقشبندية في بلده سرهدن .

ولما ذاع صيته في أقطار الهند والأفغان وما وراء النهر ، هرع إليه كثيرون من المشايخ وجددوا عنده العهد ، فكانت سرهدن في ذلك العهد مجمعاً للعلماء العاملين ، وملجأ المسترشدين الصادقين .

لقب « بجدد الألف الثاني » لبشرى من رسول الله للعلامة الشيخ عبد الحكيم السبالكتوي ، أكبر علماء الهند آنذاك : أن أحمد مجدد لديني في الألف الثاني .

كان صوفياً يعطي العهد على سلوك طريق الشريعة الحقة ، ويلقي الدروس في العلوم الدينية ، ويحضر أتباعه على اتباع السنة الحمدية . فمن كلامه : أعلم أن الشريعة ثلاثة أجزاء : « العلم والعمل والإخلاص » .



- جاء في إجازة الطريق الغنميّة للشيخ محمد الغنمي التفتنازي (١٣١٠هـ) ، ما نصه عن آداب المريد : « وبما يعنـاه على أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وعلى العمل بما بين دفتي الكتاب القويم وسنة النبي الكريم ، وعدم اتباع المبتدعين ، وعدم اتخاذ طريق القوم وسيلة للرزق فإن الرزق من غير العمل شبهات^(١) ... » .

- كـا قـاد الشـيخ السـادـات شـيخ السـادـة الـوقـائـية ثـورـة الـقاـهـرـة الـأـولـى ضـد نـابـليـون فـي عـام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨ ، حـيـث كان رـئـيساً لـجـلـسـ الثـورـة ، وـقادـ السـيد عمر مـكـرم نقـيبـ الأـشـرافـ ثـورـة الـقاـهـرـة الـثـانـيـة فـي عـام ١٢١٤هـ / ١٨٠٠م .

- عمر المختار الصوفي المجاهد ، المرشد الأول لزوايا الطريقة السنوسية .
لقد مثل الصوفية الإيجابية المستنية الراشدة ، الصوفية المجاهدة بالنفس والروح والمـالـ وـالـإـيـانـ وـالـلـسـانـ ، الصـوـفـيـةـ الـفـدائـيـةـ ، فـبـقـيـ يـكـافـحـ معـ مـرـيـديـهـ الـاستـعـمارـ الإـيـطـالـيـ عـشـرـاتـ السـنـينـ ، وـمـاـ فـيـ يـدـ أحـدـهـ إـلاـ بـلـيـحـاتـ مـنـ التـرـ ، وـجـرـعـاتـ مـنـ المـاءـ ، الصـوـفـيـةـ الـتـيـ ظـلـتـ تـرـحـفـ حـتـىـ اـحـتـلـتـ قـلـوبـ الـمـاجـهـدـيـنـ بـالـجـزـائـرـ أـيـضاـ .

- فقد سـجـلـتـ وـاحـةـ الزـعـاطـشـةـ صـفـحةـ مجـيـدـهـ فـيـ تـارـيـخـ الـقاـوـمةـ الـجـزـائـرـيـةـ خـلـالـ هـذـهـ الـحـقـبـةـ ، وـتـقـعـ هـذـهـ الـواـحةـ عـلـىـ بـعـدـ عـشـرـينـ كـيـلـوـ مـتـرـ جـنـوبـ شـرقـ بـسـكـرـةـ ، وـكـانـ يـحـكـمـهـ أـحـدـ رـجـالـ الـطـرـقـ الصـوـفـيـةـ وـيـدـعـىـ «ـ بـوزـيـانـ »^(٢) .

- عبد الكـرـيمـ الـخـطـابـيـ ، الـبـطـلـ الصـوـفـيـ الزـاهـدـ الـمـجـاهـدـ ، جـمـعـ ٢٠٠٠ـ مـ مجـاهـدـ ، وـلـوـ توـفـرـتـ لـهـ أـسـلـعـةـ لـمـاـ بـقـيـ أـجـنـبـيـ فـيـ المـغـرـبـ .

- ويـحـفـظـ النـاسـ فـيـ أـفـغـانـسـتـانـ أـنـ الـذـيـ طـردـ الـأـنـكـلـيزـ مـنـ الـأـفـغانـ بـعـدـ

(١) التـرـاثـ الـرـوـحـيـ ، صـ ٢١٥ـ ، لـمـحـدـ عـبـدـ الـنـعـمـ خـفـاجـيـ .

(٢) المـغـرـبـ الـعـرـبـيـ ، دـ صـلـاحـ عـقـادـ ، صـفـحةـ ١٣٤ـ . (ـ النـاـشـرـ مـكـتبـةـ الـأـجـلـوـ مـصـرـيـةـ) .

الحرب العظمى هو شيخ الطريقة النقشبندية . وحسينا - أخيراً - وقوف الصوفية في وجه التتار ، فإن إسلام التتار كان على يد الدعوة الصوفية أمثال : الشيخ جمال الدين النقشبendi .

- وانتشار الإسلام في الصين وأرخبيل الملايو كان على يد الدعوة الصوفيين .

- أفريقية ، انتشر بها الإسلام على يد الطريقة القادرية والتيجانية^(١) ومع كل ما سبق ...

إن كانت معاني الصوفية من القرآن والسنة ، كما أوضحنا ، فأهلًا بها وسهلا ، لكن دون تسمية صوفي ، صوفية ... بل مسلم مؤمن يسلك سبيل التربية الروحية . أو يسلك طريق مدرسة هدفها تقويم الأخلاق بتهذيب النفس ، وكبح جماحها . مع السعي والعمل .

أما مانراه من تشويه للتتصوف ، فهذا دخيل عليه ، فليس التتصوف فقط قد تشهو ، فكل شيء دخلت عليه دخائل شوته ، فليس بطبيب كل من قال أنا طبيب ، كذلك ، ليس بصوفي كل من قال : إنه صوفي .

الصوفية أخلاق وسلوك ، فمن زاد عليك في الخلق والسلوك ، زاد عليك في التتصوف .

والأخلاق المطلوبة ، التي هي غاية التتصوف والتربية الروحية ، وصف بها الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي ، الإمام عبد القادر الجيلاني فقال : « كان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، دائم الذكر ، كثير الفكر

(١) راجع كتاب « الدعوة إلى الإسلام » لتوomas . و. أرنولد ، لترى فضل الطرق هذه في نشر الإسلام في أفريقية ، وال CCT ، وجنوب شرق آسيا

رقيق القلب ، دائم البشر ، كريم النفس ، سخي اليد ، غزير العلم ، شريف الألْهَلُقَ ، طيب الأعراف ، مع قدم راسخ في العبادة والإجتِهاد^(١)

وقال مفتى العراق محي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي عن الشيخ عبد القادر الجيلاني : « كان أبعد الناس عن الفحش ، أقرب الناس إلى الحق ، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربِّه^(٢) . »

ومن الفهم السليم للصوفية الإيجابية : قول جلال الدين الرومي : « إن السنة المغاربة ، والعادة الغالبة ، هي وجود المسبب من السبب ، حتى يعرف الطالب أهمية السعي والجهاد ، ويأتي البيوت من أبوابها ، ويطلب الأشياء من معدنها^(٣) » ، « إن الله وهب الإنسان الأعضاء والجوارح ، وموهاب وطاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعي والجهاد^(٤) » .

وعرف جلال الدين الرومي رضي الله عنه الدنيا المذمومة بقوله : « إن السعي والكسب سنة الأنبياء والمرسلين ، وإن الدنيا ليست الذهب والفضة والأهل والأولاد ، كما يعتقد بعض غلاة الصوفية ، إن الدنيا المذمومة الغفلة عن الله ، أما قال الرسول ﷺ : « نعم المال الصالح للعبد الصالح »^(٥) . »

وقال : « إن تعطل الصالحين مهد لسيادة الفساق والظالمين ، إن تعطل الصالحين وقعودهم عن jihad وتوكلهم العجمي^(٦) الذي لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفساق والظالمين ، وحكومة السفهاء والحاهelin ،

(١) قلائد الجوائز ، ص ٩:

(٢) قلائد الجوائز ، ص ١٠:

(٣) المثنوي ، ص ٤٢/ .

(٤) المثنوي ، ص ٢٧/ .

(٥) المثنوي ، ص ٢٨/ .

(٦) القدرية : مذهب فكري نشأ يوماً في العالم الإسلامي ، ومن مصادره ، مصدر فارسي .

الذين سفكوا دماء الأبرياء ، وقتلوا العلماء والصلحاء ، وجاروا في الحكم ، وخانوا في أموال الناس ... وسلط في عهدهم الحقى ، وتوارى الحكاء ، والعقلاء ، ووَسَّدَ الأمر إلى غير أهله^(١) .

فأهلاً بتصوفية إيجابية كلها : عمل وسعي وجهاد وأسباب وطاقات وأخلاق ، ومال باليد وزهد بالقلب ، وإيجابيات بكل متطلبات الحياة مع نور في القلب ، ومعرفة الله عز وجل .

ولا أهلاً ، ولا سهلاً ... بتصوفية سلبية كلها تقعق وانزواء ، وزهد بمعنى ترك الدنيا والإعراض عنها للسفهاء والكفرة .

أهلاً بتصوفية إيجابية تنطبق مع الشرع الحكيم انطباق الكف على الكف .

ولا أهلاً ، ولا سهلاً ... بتصوفية الشطحات والبدع والخرافات وعدم مواكبة الحياة .

لقد ضاع القرآن عند المتصوفة السلبيين ، الذين اخازوا عن الشرع .

☆ ☆ ☆

وضاع القرآن عند أهل الفقه الذين أصيروا بتصرف فقيهي . وسعوا الجزئيات ، وتوسعوا ، وتوسعوا ، مهتمين بخمسين آية فقط تبحث في الأحكام ، وأقل من مائتين وخمسين آية تبحث في شؤون التشريع والفقه « وهي بلا شك ضرورية » ، ولكنهم أغفلوا قرابة ٤٠٠ آية تدعوا إلى العمل والسعى والعقل والفكر ، واستنباط الحقائق العلمية .

(١) المشتوى . ص/٢٣٥ .

**أضاعوا القرآن لما صار الشافعي مذهبًا ، لا يصلی وراء الحنفي مذهبًا
مع أن الفقهاء قالوا : إذا صح الحديث فهو مذهبى .**

**أضاعوا القرآن : لما تكلموا عن طهارة الجسد ، وأغفلوا كلياً طهارة
الروح ، وما أهون طهارة الجسد ، فالماء كثير ، وما أصعب طهارة الروح ،
فهي لا تطهر إلا بأنوار إلهية ، تبدد ظلمتها بسلوك طريق التزكية ،
والتربيّة الروحية .**

**أضاعوا القرآن : لما تكلموا عن شرائط وجوب الصلاة
وأركانها ... فتكلموا عن استقبال الجسد للقبلة ، وتغافلوا عن توجيه القلب إلى
الله ، فتوجه الجسد إلى الكعبة المشرفة أمر سهل ، ولكن الروح والقلب :
« وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض .. » ولا تصح صلاة بدونها !**

تكلموا عن أنواع المياه ، وما تكلموا عن الثروة القومية والحفاظ عليها .
أما أمر النبي ﷺ صحابته بالإستفادة من جلد الميّة ، هذا يجب أن نفهمه
للجييل إنه حفاظ على الثروة واقتصاد البلد ، فالإسلام دين حياة ، دين قوة
وعقل وحكمة وزراعة وصناعة ، فالإسلام ليس دين ضمان الغائب وتضييع
الحاضر ، إنه دين السماء وضياع الأرض ، لا ... إنه دين الواقعية ، دين حياة
ودين آخرة معا ! وضياع الوقت ، كضياع جلد الميّة تماما ، فكله ضياع ،
وآيات الحياة ، وأيات التشريع كجناحي طير ، إن لم ينموا معا فلن يستطيع
الطيران .

□ مائة وخمسون آية فقه كرس الفقهاء جهودهم لها قرونًا ، والآلاف
الآيات الأخرى في الزراعة والسدود والفكر والسياسة والحياة والجهاد
والمعاملات ، أين حظها من المؤلفات ؟ !

أنا لا أقول لا ضرورة للفقه ، حاشا لله عز وجل ، هو ضرورة ولكنه مع عشرات الأمور الأخرى يشكلون الإسلام .

□ ضاع القرآن : بيد عالم أو مسلم فهم الإسلام روحانية وقلبا فقط

□ وضاع القرآن : من يد فقيه أو مسلم فهم الإسلام آيات وتناسي آيات .

□ وضاع القرآن : بيد الفئتين ، لما تركوا آيات الحياة والمعاملات والجهاد والتفكير ...

ولن يعود إلينا ، تطبيقاً سليماً ، ميزاناً دقيقاً لحياتنا ، إلا بكل ما سبق مجتمعاً .

وكل من يقلص دائرة الإسلام في بعض الأحكام ويتجاهل عن القسم الأعظم الباقي ، فهو لم يقرأ قوله عز وجل : ﴿ ما فَرَّطْنَا في الكتاب من شيء ﴾^(١)

- وليس أهل الفقه ، هم الذين أخطؤوا فقط .

- وليس أهل التصوف هم الذين اشتبُهوا فقط .

- وأهل التفسير .. الذين فسروا بالإسرائيليات .. أخطؤوا أيضاً .

ارجع إلى : « لباب التأويل في معاني التأويل » للخازن ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٩٣ ، طبعة ١٤٢٨هـ . وإلى : « التفسير الكبير » للإمام الفخر الرازي ، الجزء ٢٩ ، صفحة ٧٧ ، الطبعة الأولى . وإلى : تفسير روح البيان ،

(١) سورة الأنعام ، الآية الكريمة : ٢٨ .

طبعة ١٩٢٨ ، الجزء ١٠ ، صفحة ١٠٠ ، وإلى : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، الجزء ٢٩ ، صفحة ١٤ ، الطبعة ١٣٧٣ - ١٩٥٤) ...

ارجع إلى هذه التفاسير واقرأ - كمثال - تفسير « ن » !! وإليك التفسير برواية الحازن : (« ن » قال ابن عباس هو الحوت الذي على ظهره الأرض ، عنه أن أول ما خلق الله القلم ، فجري بما هو كائن إلى يوم القيمة ، ثم خلق النون ، فبسط الأرض على ظهره ، فتحرك النون ، فادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض ، ثم قرأ « ن » ، والقلم وما يسطرون ». قيل اسم النون « بهموت » ، وقيل « ليوثا » ، وقيل « لوثيا » ، وعن عليٍّ « بلهوب » .

قال أصحاب السير والأخبار : لما خلق الله الأرض وخلقها سبع أرضين ، بعث من تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، وضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدم الملك على سمامه ، فلم تستقر قدمه ، فأخذ الله ياقوته خضراء ، من أعلى درجة الفردوس ، غلظها مسيرة خمسة سنة فوضعها بين سمام الثور إلى أذنه ، فاستقر عليها قدم الملك ، وقرن ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، ومنخاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس ماء البحر ، وإذا ردَّ نفَسَةً جَزَّ البحر ، فلم يكن لقوائم الثور قرار ، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع ساوات ، وسبعين أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه : فلتكن في صخرة ، فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى « نوناً » ، وهو الحوت العظيم ، فوضع الصخرة على ظهره ،

وسائل جسده خال ، والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة .

قيل فكل الدنيا بما عليها حرفان ، قال لها الجبار سبحانه وتعالى وتنزعه وتقديس : كوني فكانت ، قال كعب الأحبار^(١) : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض ، فوسوس إليه ، فقال له : أتدري ما على ظهرك يا «ليوثا» من الأمم والدواب والشجر والجبال ؟ لو نقضتهم لأقيتم عن ظهرك . فَهُمْ «ليوثا» أن يفعل ذلك ، فبعث له دابة ، فدخلت منخره ، فوصلت إلى دماغه فضجَّ الحوت إلى الله منها ، فأذن لها ، فخرجت . قال كعب الأحبار : فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه ، إن هم شيء من ذلك عادت كما كانت . وعن ابن عباس أيضاً : أن النون هو الدواة ...) . إلى آخر التفسير .

□ هذه الروايات الإسرائيليات وأضرابها ، على عاتق منْ يقع تقيقها من التفاسير ، فهذه تضر الجيل ، بل وتبعده عن الدين ، بسبب هذه المخرافات التي بشها كعب الأحبار و وهب بن منبه . خصوصاً بعد إطلاق الأقمار الصناعية ، وتصوير الأرض ، فأين الحوت ؟ وأين الياقوتة ؟ وأين الشور ؟ ... هذه الإسرائيليات جمعت في إحدى الدول ، وتدرس للنشء على أنها إسلام ، والعلم اليقين ينافقها ، والنتيجة الطبيعية التي وصلوا إليها ترك الناشئة الإسلام لأنه ينافي العلم !!!

فإسرائيليات التفاسير ، وأخطاء الفقهاء وترفهم الفقهي ، وسطحات التصوف ... منْ لها ؟ ! منْ لها غيركم يasadتي العلماء العاملين !!

(١) راجع كتاب : (الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير) للدكتور رمزي نعناعة ، نشر دار القلم بدمشق ، ودار الضياء بيروت ، ١٩٧٠/١٣٩٠ . لتعرف على دور كعب الأحبار و وهب بن منبه في دس الإسرائيليات في عقائد المسلمين !.

القرآن المضيء ومشكلاتنا المعاصرة

□ «وابتغ فيها آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كا أحسن الله إليك ». .

(القصص ٧٧)

□ بمناسبة قرار الأمم المتحدة ، المتّخذ في دورتها عام ١٩٦٩ ، على أن يكون عام ١٩٧١ ، عام التضامن مع الشعوب المناضلة ضد العنصرية . صدرت الصحف والمجلات تبحث وتوضح في مقالاتٍ مطولة : العنصرية ، والتّمييز العنصري ، بسبب اللون أو الجنس أو الدين . وكثال : صدر العدد الرابع والسبعين عام ١٩٧١ من مجلة الفكر المعاصر ، عدداً خاصاً عن العنصرية ، ودور الأمم عبر التاريخ في محاربتها ، والقضاء عليها . قرأت العدد المذكور من الغلاف إلى الغلاف ، وصُدمت عندما تفاجل العدد عن دور الإسلام في تحرير العبيد ، ومحاربته للعنصرية في كل أشكالها . وهذا طبعاً من منطلق : « البحث العلمي الموضوعي ! » .

تفاجل العدد ، بل تفاجل كُتابه ، عن صنيع رسالة الإسلام ، ودستورها القرآن الكريم ، وسنة رسول الله في هذا الأمر . تفاجل عن صنيع الإسلام بهذا الشأن ، الذي أوجبه قبل أربعة عشر قرناً ، وهو غاية ما تستطيع دول الحضارة اليوم فعله في انصاف أسرها وأسرى أعدائها . بل تناهى العصر ، حضارة الإسلام ، وصوت القرآن ، الذي ظل يزجر حتى استجاب العالم له بعد

عده قرون من تشريعه الحكيم ، فزوال الرق هو أحد الهدايا التي قدمها
الإسلام للإنسانية لو تعلمنون !

فليتنا نرى في كل بلد إسلامي ، تَصْدِي علائنا الآجحة للمسائل المعاصرة ،
كل مسألة في حينها ، لإظهار دور الإسلام في المجتمع ، ورأيه ، وسبقه أو
صلاحيته إلى حل المسائل والمشكلات المعاصرة ، ورأيه القويم بشأن هذه
المشكلات . لتبقى تعاليه في حياتنا ، ويرى شبابنا فضله . وروعته في تصديه
لمثل هذه الأمور .

من هذه الأمور الواجب التصدي لها ، الأمور والمسائل والمشكلات
التالية^(١) :

- العنصرية ، والتمييز العنصري .
- يوم الصحة العالمي .
- الدعوة إلى الإنسانية أو الأممية ، أو العالمية^(٢) .
- عيد الأم في ٢١ آذار ، والإسلام جعل في المجتمع : « عيد الإسرة
ال دائم » .
- الطفرة الإباحية الجنسية ، وحلول الإسلام السليمة لها .
- يوم الطفل العالمي في ٦/١ من كل عام .
- يوم الشجرة ، وعنابة الإسلام بها ولو قامت القيامة .
- الرفق بالحيوان : « الثروة الحيوانية » .

(١) وضفت مخططاً الكتاب يحمل اسم « الإسلام والمشكلات المعاصرة » منذ الشهر الخامس عام ١٩٧١ ، حال دون صدوره الخدمة الإلزامية ، وضياع ما كتبت عنه في حينها ، أذكر منها المشكلات والمسائل المذكورة أعلاه .

(٢) ورأي الإسلام : عالية مع دين وإيمان ، خير من أممية وعالية بضرير ، لأن الإيمان واحد وعدد لا شطط فيه ، بينما الضمير : لا مقياس له ، وليس عدداً أو متعارفاً على معناه بشكل دقيق .

- الشباب ، عماد الأمة ، ويوم الشباب العربي في الخامس من الشهر السابع كل عام .
- السلم العالمي ، وتنقض المعاهدات .
- الفراغ الروحي وكثرة حوادث الانتهار^(١) .
- محـو الـاـمـيـة ... وـأـنـ أـلـفـ بـاءـ الـاسـلـامـ الـعـلـمـ وـالـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ وـالـتـحـرـرـ مـنـ الجـهـلـ ...

□ هذه أمور استطعت أن أضعها بعد حصرها كثال لأمورٍ تمر علينا في كل عام . و يجب إظهار رأي الاسلام فيها فهل نفعل ؟ ! والثرة بذلك واضحة : عدم ضياع القرآن والاسلام والسنة الشريفة ، عن المشكلات التي تواجه الشباب المسلم في هذا العصر ، فيستطيع أن يقول في هذا العالم المزدحم في الافكار والحلول ، هذا هو رأي ديني وشريعي ، فينافق به ، ويثبت وجوده .

□ سألي طالب مهذب بتعدد ولطف : في هذا العصر ، ومنذ الثورة الصناعية وقيامها في أوروبـة ، أخذ العالم يعطي العامل أهمية خاصة ، وكذلك العـملـ . فـبـرـزـ العـاـمـلـ فـيـ الـجـمـعـ ، وـصـارـ لـهـ عـيـدـ ، فـيـ أـوـلـ آـيـارـ مـنـ كـلـ عـامـ ، يـحـتـفـلـ العـالـمـ بـهـ ، دـلـيـلاـ عـلـىـ تـكـرـيـهـ وـالـعـنـايـةـ بـهـ ، وـشـكـراـ لـجـهـودـهـ وـاتـاجـهـ ... فـهـلـ لـلـإـسـلـامـ رـأـيـ بـهـذـاـ الصـدـدـ ؟ـ هـلـ كـرـمـ الـعـمـلـ وـالـعـمـالـ ؟ـ اـيـنـ مـوـقـعـهـ فـيـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ مـنـ الـعـمـلـ وـالـعـمـالـ ؟ـ

- هذا الشاب وأمثاله كثير ، وكثير جدا ، يحبون الاسلام ، ولكنهم

(١) « في انتظار غودوت » مسرحية لصموئيل بيكيت ، نال مؤلفها جائزة نوبل ، لأنها مثلت الضياع والفراغ الروحي في أوروبـةـ بـعـدـ الحـرـبـ الـعـالـيـةـ الثـانـيـةـ .

يريدون حلوله بوضوح لبروه ممثلاً في معرك حياتهم ، يريدونه حياً بحلوله في كل مشكلة تُعرض .

فقلت لهذا الشاب : أطلق معك من كتاب الله ، ومن الآية الكريمة ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة / ١٠٥) . فالاسلام أمر بالعمل وما أمر بالكسل والبطالة . وفيه تكريم للعمل ، وسمى الولاة الذين في أمصار العالم الاسلامي بلفظة « عامل » ، ورأى بعض المفسرين بأن يتدل لفظ « عامل » ، حتى يشمل الخليفة ذاته ، وهو رأس الدولة الاسلامية .

دخل أبو مسلم الخوارقي على معاوية بن أبي سفيان ، وكان خليفة المسلمين ، فحياه بقوله : السلام عليك أباها الاجير ... فقال بعض الجالسين لابي مسلم الخوارقي : قل : السلام عليك أباها الامير . فقال : السلام عليك أباها الاجير ، فقالوا : قل : أباها الامير ... وهنا تدخل معاوية قائلاً : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يقول . فقال أبو مسلم : إنما أنت أجير ، استأجرك ربك لرعاية الأمة .

لقد شملت دعوة القرآن جميع مرافق الحياة ، فأولت العمل والعمال حقهما . وكانت هذه الدعوة القائمة على أساس الآيان ، تقيم قواعد التوازن بين الحق والواجب ، وقدّم الاسلام أروع الأمثال ، عندما شرف العمل والعمال ، حين وضح أن عدداً من الانبياء والمرسلين ، كانوا من العاملين . فنبي الله داود كان حداداً يصنع الدروع ويأكل من عمل يده . وكان ادريس خياطاً ، وذكر يا نجارة ، وموسى أجيراً يرعى الغنم ، ونبينا عليه السلام ، كان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة . ثم كان تاجراً يعمل بأموال السيدة خديجة .

ولقد فهم الصحابة مراد الله ، من ذكر هؤلاء الانبياء ومهنهم ، وفهموا

مراد رسوله الكريم حينما قال : مَنْ . أَمْسَى كَالاً مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ ، أَمْسَى
مَغْفُورًا لَهُ ... فَعَمِلُوا جَيْعاً :

- الزبير بن العوام - فارس رسول الله - كان خياطا .
- علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، كان يسقي بالدلاع على تمرات .
- سعد بن أبي وقاص - قائد القادسية - كان يبرى النبل .
- عمرو بن العاص - فاتح مصر - كان جزارا .
- قتيبة بن مسلم الباهلي - فاتح ماوراء النهر - كان جمّالا .
- المهلب بن أبي صفرة ، كان فلاحا .
- الصديق رضي الله عنه ، كان تاجر قماش ...

كيف لا يعمل الصحابة ، وقد سمعوا قول حبيبهم الاعظم عليه السلام : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طعاماً قط ، خيراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَ اللَّهِ دَاوِدَ ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ ؟ »

وروى عن النبي الكريم : أنه لما رجع من غزوة تبوك ، استقبله أحد الصحابة ، فقال النبي له : « ماهذا الذي أرى بيديك ؟ ». فقال الصحابي : من أثر المرض والمساحات ، أضرب وأعمل وأنفق على عيالي ... فما أروع تقدير النبي لهذه اليد العاملة عندما قبّلها كا في إحدى الروايات وقال : « هذه يد لاتمسها النار »^(١).

ولقد ركز الاسلام في دستوره العظيم ، مفهوم الاجر ، بأسلوب يسمونه مجرد النظر المادي ، الى ربطه بالعقيدة والايمان ، فجعل الاجر اجررين : أجرا

(١) رواه أنس ، راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

في الآخرة ، عن العمل الصالح ، الذي قام به الانسان بشكل متقن حيث قال ﷺ : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتلقنه » . هذا بالإضافة الى الاجر المادي ، الذي يحدّد بمقتضى العقود والاتفاقات التي تجري بين الناس . حيث ينتفع المستأجر بالعمل ، ويتقاضى العامل اجره دون ماءلة أو غش أو خداع ، وهذا الاجر المادي ، يخضع في الاسلام ، لقواعد عامة ، تضمن حق العامل حيث يقول عز وجل : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »^(١) .

ويقول جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »^(٢) .

ويقول سبحانه أيضاً : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »^(٣) . ويوصي النبي الكريم ، بالمبادرة الى صرف الاجور فور انتهاء العامل من عمله ، فيقول : « أعطوا الاجير أجراه قبل أن يجف عرقه »^(٤) . وهي عن خصم الاجور ، تطبيقاً للأية الكريمة : « ولا تخسسو الناس أشياءهم »^(٥) .

فقال ﷺ : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيمة ، ومن كنت خصمه خصمه ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً ، فاستوفى منه ولم يعطه أجراه »^(٦) .

وكما حض الاسلام على العمل وقدسه ، وطلب من كل مسلم أن يكون عضواً عاملاً ومنتجاً في الجموعة الاسلامية : « وأن ليس للانسان إلا

(١) سورة المائدة ، الآية الكريمة : ١ .

(٢) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٢٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٥٨ .

(٤) رواه ابن ماجه بسناد جيد عن ابن عمر .

(٥) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٨٤ .

(٦) رواه البخاري وابن ماجه ، باب النهي عن أكل مال الاجير .

ماسعى ﴿ ، وطلب منه طلب الرزق الحال : ﴿ إِذَا قُضيَتِ الصَّلَاةُ فَاتَّشَرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لِعِلْمِكُمْ قَلْحُون﴾ . وامر المسلم ألا يقضي ساعات من حياته دون مردود وانتاج : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصِب﴾ . فالعمل والعبادة مفهومان متلازمان في شريعة القرآن والاسلام .

حضر الاسلام على مسابق ، وحارب البطالة بقوله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بجزمة من حطب ، فيبيعها ، فيكشف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . ولقد دخل النبي ﷺ المسجد ، فوجد أبا أمامة جالساً في غير وقت الصلاة ، فسألته فوراً ، عن سبب جلوسه ، فقال أبو أمامة : ديون لزمتي ، وهموم لحقني ، فأفهمه النبي الكريم أن الجلوس في المسجد ، والرکون الى الكسل ، ليسا وسيلة لقضاء الدين ، وتفریج الهم ، وأمره بالعمل والسعى .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : لا يقدر أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تنظر ذهباً ولا فضة .

قلت للشاب الأديب : مما سبق - وقد كتبه كله - يتضح لنا مدى اهتمام الاسلام بالعمل والعامل ، وتقديره للعامل ، فيد العامل يدي يحبها الله ورسوله ، كما تتضح محاربته للبطالة والتبطيل ، حتى قال النبي ﷺ : « من بات كالاً من عمل يده ، بات مغفوراً له » .

وقلت له : و اذا كان العالم اليوم قد وعي وتنبه ، فأظهر اهتمامه بالعامل ، وقام يحتفل به ، فقد سبق الاسلام العالم بذلك : قدره ، أظهر شأنه ، ودفعه الى التقدم باجلال العقيقة لانتاجه ، حيث جعل الدين له أجرأ وثواباً فيما

(١) سورة الجمعة ، الآية الكريمة : ١٠ .

(٢) سورة الشرح ، الآية الكريمة : ٧ .

ينتج ، وما يقدم ، فقال عليه : « ما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يغرس غرساً ،
فيأكل منه انسان ، أو بهيمة أو طير إلا كان له به صدقة^(١) ». .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء ، أو
غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء ، كان له أجر جار ، ما انتفع به خلق
الله^(٢) ». .

وبهذا كان الاسلام دين الحياة ، ولم يزل ، وأوجد الانسان المتوازي الابعاد
بين المادة والروح :

﴿ وابتُعْ فِيَا أَتَاكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ، وَلَا تُنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ،
وَأَحْسَنَ كَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾^(٣) .

☆ ☆ ☆

سُرَّ الطالب النجيب بما أوضحت ، ثم شكرني وتساءل :

- لماذا لا تطبع كراسات توضح رأي الاسلام بما يجول في المجتمع والفكر
البشري المعاصر ؟ تبيّن حلوله وخطته في كل أمر يطرح ، لنجد الاسلام
والقرآن في حياتنا ملجاً ، يلازم أفكارنا ، ان سئلنا أجبنا عن علم ؟ !! بل نحن
الذين نعرض رأيه بمشكلات العالم المعاصرة ، لثبتت جدارته بطريقه حلها !!

- قلت : هذا أمر مفروض علينا . وإنه لجهاد ...

فما أوجبه من عمل جهادي ، يحمل به كل عالم جانباً ، فيحفظ بذلك
ديننا من الضياع من النفوس !!

(١) رواه الشيخان والترمذى .

(٢) رواه الإمام أحمد ، ج: ٣ ، ص: ٤٢٨ .

(٣) سورة القصص ، الآية الكريمة : ٧٧ .

وَبِالْتَّجَدِيدِ نَصُونُ الْقُرْآنَ مِنَ الصَّبَاعِ

قال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَيْ رَأْسِ كُلِّ مَائِةٍ
سَنَةٍ، مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» ^(١).

□ اجتاج التتار ديار الاسلام كلها ، في القرن السابع الهجري ، وانخرنوه جراحًا وقتلا ، ولم يتركوا فيه إلا روحًا ضعيفة ، ونفسًا خافتًا ، وفلً سيف الجماد والمقاومة ، فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً ، وأمن الناس بأن التتار لا يكن أخضاعهم ، وأن العالم الاسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الممج ، وإن الاسلام لا مستقبل له ، حينذاك قام الدعاة المخلصون ، بجددون للدين هيبيته في النفوس ، وللإسلام عزته على الارض ، هؤلاء الذين لا يزال تاريخ الدعوة والتجدد والاصلاح - على احصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثيرين منهم ، يتربون في هؤلاء الغلاظ الجفاة الشداد ، يفتحون قلوبهم للإسلام ، حتى افتتحت له وأحبته ، وصاروا يدخلون في دين الله أزواجاً ، ولم يمض على زحفهم على العالم الاسلامي واذلامهم

(١) اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج به . قال السيوطي في - مرقة الصعود - اتفق الحفاظ على تصحيحه ، منهم الحاكم في «المستدرك» ، والبيهقي في - المدخل - . ومن نص على صحته من المؤاخرين الحافظ ابن حجر ، وقال العلقمي في شرح الجامع : قال شيخنا : اتفق الحفاظ على انه حديث صحيح ، وقال المناوي في فتح القدير : أخرجه أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن ، والبيهقي في كتاب المعرفة عن أبي هريرة ، قال الزين العراقي وغيره : سنه صحيح ...

له كثير زمان ، حتى اسلم جُلُّهم أو كُلُّهم . وصاروا من حماة الاسلام ، وحملة رايته ، وكان منهم فقهاء ، وشهداء ، ومجاهدون .

وهكذا ، أخضع هؤلاء العلماء العاملون للإسلام ، من أخضع العالم الاسلامي بالامس ، من شرقه الى غربه ، وأدخلوا أممًا قهرت الأمم كلها في عصرها ، في دين لا يحميه سيف ، ولا يدافع عنه جيش . فأثبتت الاسلام بذلك وفي وقت دامت فيه سبايك خيل التتار أطراف العالم ، انه دين لا يزال يملأ أكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة في جذب الفوس اليه ، وكسب الانصار والاصدقاء . لقد أوجد من أعدائه من يحميه في ظروف دقيقة ، ولحظات عصيبة في تاريخه^(١) .

ويرجع الفضل الى العلماء الدعاة ، الذين ما فتئوا يحملون راية القرآن ، حتى في أحلك الايام . ونرى المثال البارز لهذه الحقيقة الشيخ نصير الدين الطوسي رحمة الله ، فإنه لما علم أن المغول يريدون القضاء على الاسلام^(٢) ، رأى من الواجب الاسلامي عليه ، أن ينخرط في سلك الحكومة ، ويساهم في الظاهر السلطة المغولية ، بغية الاحتفاظ بما يقدر منه على الاسلام ، وقد وضع خطة من أدهش الخطط لهذه الغاية النبيلة ، فقد قال للملك الغازي ، إن معرفة مستقبل الامور منوطه بالنجوم ، وعرفانها ، فإذا كان الملك يرغب في معرفة المستقبل ، ليضمن لنفسه النصر ولأعدائه الهزيمة ، فمن اللازم عليه أن يسمح لنا في اعداد العدة لذلك ، وقبل الملك الاقتراح بكل لففة ، واستفسر الشيخ عن العدة التي يحتاج اليها علم النجوم ؟ .

(١) بتصرف عن رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، ص ٢٨٣ .

(٢) فهنالك تحالف صليبي مغولي ، للاطياق على ديار الاسلام من الغرب ومن الشرق ، مفاوضات وارساليات وبعثات بين البابا وهولاكو وخلفاؤه ، يمكن الرجوع اليها في كتاب « المدخل الى تاريخ الحضارة » للدكتور جورج حداد ص ٢١٣ وما بعدها ، الكتاب طباعة الجامعة السورية عام ١٩٥٨ م .

فقال الشيخ نصير الدين الطوسي : ان العدة هي « المال » و « العلماء » و « الكتب » . فمن اللازم أن يجعلوا اختيار الاوقاف في يدي ، لكي أوفر المال اللازم ، وكذلك تهبوني « العلماء » ، حتى أستعين بهم في هذه المهمة ، أما « الكتب » فهي متوفرة في البلاد ، وجندود جيشكم بحرقونها ويفنونها ، فمن اللازم الاعياز اليهم يجعل الاختيار في أيدينا ، لانتقاء ما نريد منها لهذه المهمة .

ونفذ الملك أمر الشيخ ، وبذلك تكون من الحفاظ على « علماء المسلمين » ، الذين كادوا أن يكونوا لولا تدبير الشيخ ، طعمة لسيوف المغول . وعلى « الكتب » التي كانت لولا تدبيره طعمة للحرائق والفناء ، وعلى « الأوقاف » التي لولا تدبيره ، وكانت لقمة سائفة في أفواه الملك وحاشيته .

ولكن مع كل أسف ، شق على المتعصبين ، غير الحكماء ، ذلك ، فشنوا عليه هجوماً لا هوادة فيه ، لماذا ؟ .. إنه تعاون مع المغول ، وأنه طائفى ، فهو لم يفرق بين السنة والشيعة^(١) . وهؤلاء من عجز عن البناء . فانشغل بالهدم ...

□ وما أشبه اليوم بالبارحة !

اليوم انبرت سنابك الخيل ، انبرت . وهوت السيف الرعف ، وما عادت المواجهة علنية في معظم الظروف ، فالاستعمار الحديث يضغط على الثقافة الاسلامية ، وعلى المظاهر الاسلامية بين الشعوب الاسلامية ، بدعوى أن التشدد فيها نكسة ورجعية ، وأن التزام مجارتها يبعد الانسان الحديث عن أن يعيش في الحياة الحديثة ، وقد ربط الاستعمار في التدليل على ذلك : بين حال

(١) كيف انتشر الاسلام ؟ لحمد المهدى الحسيني الشيرازي . طبع هيئة شباب التبلیغ . کربلا - العراق .

ال المسلمين اذ ذاك ، وهي حال متأخرة هزيلة ، وبين ما سماه التمسك بالاسلام .
أي أن الحال المتأخرة التي يحياها المسلمين ، هي نتيجة التمسك بالاسلام^(١) .

ترى أي إسلام يتمسك به المسلمين أصحاب هذه الحال ؟ !

- أهو إسلام القرآن ... أم اسلام البدع ، أم إسلام التعصب والتذهب ؟ !

□ فها هو العالم الحاضر ، مملوء بالأراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة ، ولن يستطيع الاسلام أن يظل شكلًا أجوف ، وأن له أن ينقضي نومه السحري الذي دام أجيالا ، فيجب أن ينهض أو ... ؟ ولا سبيل للإسلام اليوم إلى التجديد مع مراعاة جانب الشريعة . لا سبيل للإسلام إلا حقيقته ، كا هي في الكتاب والسنة . ان العمل بسنة رسول الله يعني العمل على حفظ كيان الاسلام وتقديمه ، لقد كانت السنة المهيكل الحديدي الذي عليه صرح الاسلام ، أفيدهشنا اليوم تقوض البناء بعد ازالة هيكله ؟ !

ليس الاسلام سبيلا بين السبيل ، ولكنه السبيل .

وليس محمد هادياً من المدعاة ، ولكنه المادي^(٢) . ولكن أين المجدّد ؟ فما زالت في الاسلام قوته ، وفي السنة ما يناسب زماننا .

إننا بحاجة الى رجال حكماء بمستوى أرقى بكثير مما يُتخيل لنا ، ينفحون في الأمة روحًا جديدة ، ويخلقون في أتباع دينهم ايماناً جديداً ، وثقة جديدة ، ويلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة . ويحفظون على الاسلام جدته وشبابه ، ويقضون على الفتن والبدع والتحريفات وغلو الغالين ...

إننا بحاجة الى مجدهم تمكنوا تعاليم الاسلام في نفوسهم ، فعرفوا الله حق

(١) الفكر الاسلامي الحديث . د . محمد البهبي . الناشر : مكتبة وهبة . ط : صفحة ٩٧ . يتمعرف .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق . صنفة ١٠٨

معرفته ، وقرؤوا الكتاب فهـاً وتطبيقاً ودعوة ، والسنة فهـاً وتطبيقاً « واجتهاـداً ». درسوا مسائل القياس وما يناسب العصر ، مع نور مشرق في القلب النقـي ، يهدـي الى الحقـ منها تكاثـتـ الظلمـات .

ومـجـدد لا يـبتـدعـ جـديـداـ ، ولا يـبتـكرـ تـكـملـةـ ، أو يـأـئـيـ بـوـحـيـ منـ عـنـدـ ، اـنـماـ تـجـديـدـ الدـيـنـ يـرـادـ بـهـ تـجـديـدـ النـفـوسـ الـاسـلامـيـةـ ، وـتـبـدـيـدـ التـزـهـاتـ وـالـجـهـالـاتـ الـتـيـ تـكـونـ قـدـ تـراـكـتـ فـيـ الـقـلـوبـ وـالـعـقـولـ ، فـهـوـ يـجـددـ الـاـيمـانـ فـيـ الـقـلـوبـ ، ذـلـكـ الـايـانـ الصـافـيـ المـتـجـهـ إـلـىـ اللهـ ، الـذـيـ يـعـرـفـ الـمـخـلـمـونـ .

إـنـهـ يـعـيـدـ إـلـىـ الـاسـلامـ شـبـابـهـ فـيـ الـقـلـوبـ ، وـمحـبـتـهـ فـيـ الـعـقـولـ ، وـمـكـاتـهـ فـيـ الـأـرـوـاحـ ، عـنـدـماـ يـعـرـضـهـ بـأـسـلـوبـ جـديـدـ ، وـطـرـيـقـةـ جـديـدـةـ ، يـرـاهـاـ اـنـهـ تـلـامـ عـصـرـهـ ، وـتـنـاسـبـ عـقـولـ الـجـيلـ .

فالـتجـديـدـ ، تـجـديـدـ فـيـ مـجـالـ الـاسـلامـ وـنـطـاقـهـ ، فـهـوـ مـحاـوـلـةـ لـرـدـ اـعـتـارـ لـلـقـيمـ الـدـينـيـةـ ، وـرـفـعـ ماـ أـثـيرـ حـوـلـهـ مـنـ شـبـهـ وـشـكـوكـ ، قـُصـدـ مـنـهـ اـسـتـخـافـ هـذـهـ الـقـيمـ فـيـ نـفـوسـ الـمـسـلـمـينـ . إـنـهـ عـودـةـ إـلـىـ السـيـرـ عـلـىـ مـبـادـئـ الشـرـيـعـةـ ، فـيـعـيـدـ الـقـرـآنـ إـلـىـ وـاقـعـ عـمـليـ بـعـدـ ضـيـاعـ عـنـ سـاحـةـ الـوـاقـعـ وـالـمـعـاـمـلـاتـ ، فـيـقـفـ الـمـسـلـمـ دـوـنـ تـرـددـ عـنـدـ تـعـالـيـهـ مـطـبـقاـ مـتـبعـاـ .

الـتجـديـدـ : تـفـكـيرـ وـمـنهـجـ ، يـقـومـ عـلـىـ النـقـدـ وـالـبـنـاءـ ، وـلـكـ بـلـبـنـاتـ إـسـلـامـيـةـ الـحـقـيقـةـ وـالـصـيـغـةـ .

□ وـكـثـالـ نـكـتـفـيـ بـاثـنـينـ : الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ ، وـالـدـكـتـورـ الـفـيـلـيـسـوـفـ مـحـمـدـ

اقـبـالـ⁽¹⁾ .

(1) الفـكـرـ الـاسـلـامـيـ الـحـدـيـثـ . صـفـحةـ ٣٩٥ـ وـمـاـ بـعـدـهـ بـتـصـرـفـ .

لقد اضطر كلاهما الى أن يكشف عن قيمة الاسلام ليدفع المؤمنين به ، الى الحياة والعمل فيها وقيمة في نظرته وتصوره للحياة الانسانية ، في مواجهة الصليبية الغربية وأهدافها تارة ، أو في مواجهة الفكرة المادية الاحادية تارة أخرى .

محمد عبده ، ومحمد اقبال : كلاهما قام بمحاولة تجديد واصلاح في المفاهيم الاسلامية الموجودة في أذهان المسلمين ، وقد كل منها ، بيان القيمة الايجابية البناءة في الاسلام .

وان كنت قد تحدثت عن الشيخ محمد عبده عند الحديث عن استاذه الافغاني ، فسأله ، الحديث الان عن محمد اقبال^(١) وصور تجديده ، قال عن واقع المسلمين :

« إن المسلم القوي الذي نشأته الصحراء ، وأحكمته رياحها الهرباء ، أضعفته رياح « العجم » ، فصار فيها كالناري نحوانا ونواحاً ! والذي كان تكبيره يذيب الأحجار ، انقلب وجلا من صفير الأطياف ، والذي هزا عزمه بشم الجبال ، غل يديه ورجليه بأوهام الاتکال ، والذي كان ضربه في رقاب الأعداء ، صار يضرب صدره في الأواد ! والذي نقشت قدمه على الأرض

(١) ولد محمد اقبال في سيلكوت بالبنجاب عام ١٨٧٣ ، وزاحت أسرته بعدها الى كشمير ، فدخل مكتبا لি�تعلم القرآن ، حصل على شهادة الكلية الاسكتلندية بدرجة ممتازة ، فالتحق بكلية الحكومة بlahor حيث أتم دراسته ، ومن هذه الكلية حصل على درجتين علميتين كبيرتين ، درس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بlahor ، ثم درس الفلسفة واللغة الانجليزية بكلية الحكومة التي تخرج منها . وفي عام ١٩٠٥ التحق بجامعة كيردو في انكلترا ، ثم بهيلبرج في ألمانيا ، ثم بيونيغ حيث حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٠٨ ، وعاد الى وطنه بعد أن حصل على درجة في القانون أيضا .

كان رئيسا لحزب مسلمي الهند ، ورئيسا لمجعية حماية السلام ، توفي في ٢١ نيسان ١٩٢٨ ، ودفن في لاهور . هو أول من نادى بضرورة انتقال المسلمين عن المندوس ، وبوجوب تكوين دولة خاصة بهم يستطيعون فيها أن يظهروا روعة الاسلام ، وتم ذلك لسلبي الهند في آب عام ١٩٤٧ .

ثورة ، كُسرت رجلاه عكوفاً في الخلوة ! والذى كان يضي على الدهر حكمه ، ويقف الملوك على بابه ، رضي من السعي والقنوع ، ولذلة الاستجداء والخشووع^(١) .

فهو يريد ... أن يحرص الإنسان المسلم على القوة والعمل ، ي يريد أن يدفعه دفعاً ، ولكن من ذاته لا من خارج ذاته ، إنه يعشق القوة ، ويعشق العمل ، إنه يتوق إلى أن يرى المسلم قوياً عاملاً غير مستذل وغير متواكل ، مع أنه صوفي ، لكنه ما فهم من الصوفية إلا تنوير القلب بالله ، والسعى في الدنيا لنيل العزة والكرامة ، نيل الدنيا بقوه وعزية ، والسعى بالحياة بكل مجالاتها ، ي يريد المؤمن قوياً عزيزاً ، تنبع عزيمته من ذاته ، فالقطرة حين تقوى ذاتها تصير دُرّة ، والجبل إذا غفل عن ذاته ، انقلب سهلاً ، وطغى عليه البحر .

محمد إقبال صوفي يقول : « لا تتبع رزقك من نعمة غيرك ، ولا تستجد ماء ولو من عين الشمس ، واستعن بالله ، وجاهد الأيام ، ولا ترق ماء وجه الملة البيضاء . طوبى لمن يحتمل الضر من الحرور والظاء ، ولا يسأل الخضر كأساً من ماء الحياة^(٢) . »



□ المجدد والمجتهد : يعرف المجتمع الذي يعيش فيه ، كما يعرف المجتمع المعاصر ، وما يسيطر عليه من اتجاهات مذهبية انسانية عديدة ، كما يشعر في نفسه بحرارة الإيمان بر رسالة الإسلام ، بعد أن وضحت له جوانبها وقيتها ، إثر

(١) محمد اقبال لعبد الوهاب عزام ، ص ١٠٠ من منظومة أسرار خوداي ، مطبوعات الباكستان سنة ١٩٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

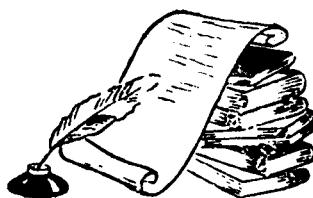
الموازنة التي تتكون حتاً في النفس بعد وقوفه على ما للإنسان من معرفة متغيرة ، وما لله من رسالة خالدة .

إيمانه بالله وبكتاب الله ، هدفه الأعلى في الحياة ، يسعى إليه دون أن تشوّبه شائبة أخرى ، تضعف من شأنه .

فيما سيدى العالم ، إن لم تكن مجدداً ، فلن داعية تجديد ، منقباً عن مجدد ، فلعل المجد بين ظهرانينا في أفكاره وهتئه وإيمانه وفي منه لعصره ، ولكنه بحاجة إلى ركائز يعتمد عليها .

سيدى العالم ... ها هو القرن الهاجري الرابع عشر قد انتهى ، ودخلنا في قرن هجري جديد ، وحديث رسول الله ﷺ في التجديد والمجد ، لا بد محقق ، ففتح عن المجد ، واتبعه ، أو لا تكون جاماً متزماً ، كا كان بعض العلماء مع الشيخ نصير الدين الطوسي ، ولا تشن حملة لا هواة فيها عليهـ من على منبر المسجد ، فليس المنبر لهذا وجد !

فما أحوج الدعوة اليوم إلى الحكمة ، فهي لا تحتمل خطأ .



خاتمة

□ روى الإمام مالك ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكت بهما : كتاب الله وسنة رسول الله » ^(١) .

□ أخي المسلم :

أرجو الله أن أكون قد وفقت ، في عرض هذا الكتاب بين يديك ،
فلست من الذي ضيَّع القرآن ! ؟

فالعالم العامل ، سلطان على القلوب ، وبخاصة إذا جمع الفكر النير ،
والقلب النير . فن وجد عالماً عاماً ، وارثاً محمدياً ، داعياً إلى الله بحكمة
وموعظة حسنة ، فقد نال سعادة الدنيا ، قبل سعادة الآخرة ، فثل هذا العالم
سيبعث في نفس المسلم : أخلاق القرآن تعالىه ، نقية من كل شائبة ، وبيث
فيه الشعور بالله ، و يجعله يسعى في الحياة ليقطف ثمار السعادة والتوفيق ،
والقوة والمعارف ، والمجد والغنى .

مثل هذا العالم الجليل : لن يزهد في الدنيا بل سيحض الناس على
امتلاكه لتكون قوة للمسلمين ، يشجع العلوم كلها ، الصناعة كلها ... مع
معاملات صادقة سليمة مع الناس . يجتمع الناس ، ويؤلف بين قلوبهم ،
لا ينفرهم من الله ، بل يحببهم به ، ففهم كتاب الله ، الفهم الصحيح ، يؤدي

(١) رواه مالك في موطئه ، والحاكم .

إلى نهضة الأمة ، باتباعها لتعاليمه ، وما يدعونا إليه من الحياة الدنيا السعيدة المؤهلة لرضا الله ، ولحياة أبدية أخرى سعيدة .

أما العالم الخاطئ ، الداعي إلى الزهد والتواكل ، أو الداعي لعدم التزكية للنفس والروح ، أو عدم الدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة ، مما يؤدي إلى النفور بين الدين والحاكم ، والجفوة وبعد الشقة ، كل ذلك يؤدي إلى ضياع الفكر القرآني الإسلامي ، وضياع الأمة ، والجرأة على دينها ، وهذا الصنف يظن نفسه أنه يحسن صنعا .

فشعار رسول الله ﷺ ، مقدس ، له حرمته وشرفه ، فما أجرد المخلق ،
ألا يضعه أحد منهم إلا بعد اجتياز امتحان في علوم الشريعة ، وفهم القرآن
فهـًا جيداً عميقاً ، نصاً وروحاً ، مع امتحان تزكية وحكمة ...

والدعوة اليوم بحاجة إلى عقل فيلسوف ، وقلب ناسك ، يسيّران بمحنة
وحنكة . وكل من فقد العقل المليء بالمعرفة الدنيوية والأخروية ، أو القلب
المور بالله فقد فقد أحد جناحي الخير .

□ دخلت مرة لصلاة العصر بمسجد من مساجد دمشق ، كانت الصلاة في الركعة الثالثة ، بدأت الصلاة وأتمتها بعد تسلیم الإمام ، فقال لي أحدهم أمام جميع المصلين ، وبصوت عال : « ما يجوز ، ركبتك عند القعود متقدمة أكثر من عرض كف عن جارك » ، قالها بغضب وعنف ، مما حز في نفسي ، فقلت له وبهدوء : أولاً : جئت متأخراً ، ونبيت بسرعة لأن الحق الركعة الثالثة ، وأنا أطول من بجانبي فكان هذا الفرق ، وليس تسوية الصفوف بالركب ، بل تسويتها بالأكتاف . ثم قلت : لو دخل شاب قد بدأ الصلاة حديثاً ، وسمع منك هذا النصيحة الذي خالفت به الحكمة ، لما عاد إلى صلاته ثانية . ثم قلت

له : أما تعرف حديث رسول الله ﷺ : « من أمر معروف ، فليكن أمره معروف^(١) » ؟ . وقلت إن قناعتي بالإسلام ومعرفتي لأحكامه ، تجعلني أحسب عليك هذا التصرف الخاص ، ولو دخل شاب جديد عهد بالإسلام ، لوصم الإسلام بعدم الحكمة والفظاظة ، وما وصك . فلامة الجميع على طريقة نصحه ، فما يمكن أن نحصل عليه باللين والمحبة ، خطئ إن ننناه بالعنف والبغض ، والأرجح لا ينال بالعنف والبغض !

ودخلنا مرة لصلاة المغرب ، فأقمنا الصلاة ، وأم بنا صديق مجاز بالشريعة ، ووقفنا ومعنا شباب يافع مؤمن ، ترك حياة اللامبالاة والميوعة ، إلى حياة المواطن الصالح ، المؤمن الظاهر الم قبل على الله بصدق وإخلاص . ولما انتهت الصلاة ، وقبل السنة ، جاءنا شخص في هيئة عالم ، ما عرف الحكمة ، ومسك أحد هؤلاء الشباب المؤمن يعنفه ، ويخبره بعدم صحة صلاته . وكسر : « ما يجوز » ، عشرات المرات ، فقلت بنفسي : ماذا عمل هذا الشاب ، وقد كان يصلني إلى جنبي ، تلتفت ؟ تكلم ؟ ضحك في صلاته ... ؟ أريد أن أنهي هذا التعنيف بعيد عن الحكمة ، فقلت له ماذا عمل ؟ قال : أصبع الأرجل كانت عند السجدة غير قائمة . فصرفت الشاب ليصلِّي السنة ، وقلت لهذا الأمر بالمعروف : كانت وظيفتنا إيصال هذا الشاب بعد أشهر من النقاش والمحاولة إلى الإسلام وإلى المسجد للصلوة . ووظيفتك الآن اخراجه من المسجد غضباً قد وضع سداً بين قلبه وبين كل نصح عالم له . لو لفت نظر الإمام الذي صلى بنا ، وقد رأيتنا دخلنا معاً ، فهو ينبهه بلطف وبطريقة غير مباشرة ، كان النبي ﷺ ، ينصح ويعلم بطريقة « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ثم قلت مستذكرة : « من أوتى الحكمة ، فقد أوتى خيراً كثيراً » .

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

□ وهذه المجتمعات الإسلامية ، كي تتم نهضتها ، وكي يتم إيقاظها ، بحاجة إلى مجدد فيه كل الحكمة ، يستمد قوته من الله ، ومن فهمه الصحيح للشريعة ، وميزانها الدقيق ، فإن رأى الأمة بحاجة إلى علم وصناعة ، وطب وتسلیح ، لتأخذ مكانتها سليمة ، منطلقة من مبدأ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، جعل العلوم كلها ، والصناعة ، والطب ، والتسلیح ، فرضاً كفرض الصلاة والصيام والحج ، مع رفعه لمستوى الأخلاق والإيمان في نفوس الناس ، ليحملوا معاني القرآن ، فلا تضيع معانيه وأهدافه .

□ مجدد ... لا يكتفي بالدعاء ، فالدعاء لا يكفي ، والدعاء وحده تأله على الله فالآية واضحة : « إِنْ تَنْصُرُوهُ اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ » فأدّ جانب الله بحق ، يأتِ نصر الله وتوفيقه ، فألوف المنابر يدعى عليها منذ مئات السنين ، بعد كل خطبة جمعة ، والملائين يقول أمين ، فأين استجابة الله ؟ للاستجابة شروط : « وَمَنْ يَتَقَبَّلْهُ يَجْعَلْ لَهُ مُخْرِجًا » ، التقوى أولاً ، ثم فرج الله .

في رمضان الماضي وبنسبة غزوة بدر الكبرى ، قال خطيب الجمعة في دعائه : اللهم اجعل لنا ثواب أهل بدر واحشرنا معهم . فاستحييت من الله أن أقول : أمين ، كيف نستوي معهم بالثواب والمنزلة ؟ ماذا عملوا ، وماذا عملنا ؟ صنعوا وأوجدوا إسلاماً ، ونحن أضعناه وحرضناه بعبادات ودعوات ، ثم نحصل على ثواب كثواهم ومنزلة كمنزلتهم ؟ هذا أمر بعيد ! !

□ مجدد ... يرجع إلى كتاب الله فهـا وتطبيقاً . رجعة إلى فقه القرآن والسنة الشريفة . ولا يجعل هـهـ جوانب فقهية معينة ، ويطيل الحديث عن الوضوء والتيم ، وأركان الصلاة ، وشروطها ، والاغتسال ، وأنواع المياه ... فأحكام هذه الأمور ثابتة ، لا تتغير بتغيير الأزمان ، وهي من البساطة بشكل يفهمها الإنسان من كتب مبسط ، أو مراقبة عالم يطبقها ، أما قال رسول الله

« خذوا عني مناسكم » ، « صلوا كا رأيتوني أصلي » ... مجدد يخوض غمار مؤلفات جديدة ، ومجددات حديثة عن :

- ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .
- ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .
- ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ .
- ﴿ الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدي ﴾ .
- العالم يتاجر بمكانة المرأة اليوم وحقوقها ، وفي القرآن « سورة النساء » ، سورة للنساء تكريياً ، وصيانة لحقوقها . فأين المجلدات : عن سبق الإسلام لإعطاء المرأة حقها كاملاً ، مع بيان الفهم الخاطئ لل المسلمين لأحوال حقوق وواجبات المرأة المسلمة .

حَدَّرَ النَّاسُ مِنَ النِّحَاةِ ، وَمَا حَذَرُوا مِنَ الْفَقْرِ . حَدَّرُوا مِنَ الْمَيَاهِ
الْمُشَمَّسَةِ ، وَمَا حَذَرُوا مِنْ تَرْكِ الْعِلُومِ وَسُطْرَةِ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ لِقَبْضِهِمْ عَلَى زِمَانِ
الْعِلُومِ كُلِّهَا .

□ مجدد ... يرى المسائل والمشكلات المعاصرة ، فكلما طرقت مسألة ، وعرضت الحلول من أصحاب المذاهب ، نرى الإسلام حاضراً يعرض حلوله ، نراه يبتنا موجوداً ، لا ضائعاً ساكتاً لا صوت له .

وبمثل هذه الأمور تحيا الأمة الإسلامية ، ومن أول خطوات حياتها ألفة علمائها ، ورابطتهم القوية فيما بينهم ، محبتهم لبعضهم . القرآن يخاطب الكفرا المشركين بقوله : « يا أهل الكتاب » ، هذا خطاب القرآن لغير المسلم ، تكريياً له وتألفاً . فكيف يجب أن يكون خطاب المسلم للمسلم ، العالم للعالم . أما سمعنا تكفير بعضهم بعضاً !

ما قال الله لموسى وهارون قوله لفرعون قوله مكفراً . قال عز وجل ﴿ قوله ليناً ﴾ مع من ؟ مع فرعون ، وما أظن أنه قد وصل إنسان إلى درجة فرعون . الذين ، الذين يا سادة ، البشر ، الحبة .. رجوعاً إلى ميزان الشريعة : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تتبعونَ عرضَ الحياة الدنيا^(١) . فكيف بن يكفر ويفسق وينحاصم ، ولا يرد السلام ، ولا يقبل بصلاح أفاضل القوم ؟ هل قرأ القرآن ؟ الجواب نعم طبعاً ، أين العمل بما قرأ ؟ : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حَقّ تلاوته ، أولئك يؤمنون به^(٢) . فأين حق التلاوة ؟ وأين العمل بعد حق التلاوة ؟

الآية الكريمة في سورة التوبة : ﴿ والمُؤمِنُونَ وَالْمُؤْمَنَاتُ بَعْضُهُمُ أُولَئِءُ بَعْضٌ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيَطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيِّدُهُمْ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . لقد قدم الله التضامن والناصحة عن العبادات ... ذكر الله عز وجل « بعضهم أولياء بعض » ثم ذكر : « يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة » .

☆ ☆ ☆

□ والمسلم ... يظن نفسه مسلماً إذا كان أبوه مسلماً ، فهو مسلم بالوراثة دون تعلم . الإنسان قبل أن تصل إليه يد العالم المزي المهذب . هو كالفلز غير المصنع . فجبل من الحديد الفلز ، لا يفيد كطن من الحديد المصنع على شكل طائرة أو سيارة . وكذلك الإنسان الخام ، لافائدة حقيقة منه ، إنما الإنسان

(١) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ١٢١ .

المذهب المربى ، عنصر فعال في الأمة ، ونقل الإنسان الخام إلى الإنسان المركب المربى ، وظيفة العالم الوارث الحمدي .

فالعملية دين وقرآن وإسلام ، والشرف عليها الأنبياء سابقاً ، ووراثتهم الأولياء حالياً ، ومن لا ينتج ، ولا يحسن أداة الدعوة ، ماذا نقول عنه ؟ ! ولن ينجح داع ، إلا بالإحسان وبالإيثار ، وبالمحبة والرحمة والرأفة والتعاون ... وهذه الصفات لا يقوم بها قلب رجل ، إلا إذا خاض معركة مع نفسه ففهراها بعد صبر ، فيملك نفسه ، بعد أن كانت تملكه نفسه ولكن : ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ .

الأرض كالنفس البشرية ، فالأرض إن لم تنتج إلا الشوك والأعشاب الضارة ، وتجمعت فيها الحشرات ، ولم تنتاج الزهور والورود والأطابيب ، فمعنى ذلك فقدان المزارع الماهر العامل النشيط !

عدم وصول ركاب الطائرة النفاثة السليمة ، سببه فقدان الطيار . فترك الركاب الطائرة لأنها لم تتحرك من مدرجها ، وقد سمعوا أنها تطير بسرعة ألف كيلو متر في الساعة وجلسوا بها ساعات ، وما برح مكانتها . فكذبوا خبرها ، وركبوا وسيلة أخرى أبطأ منها ، أو ساروا على أقدامهم رغم بعد الطريق ومشقته ، فالحركة خير من السكون في مثل هذه الحالة ، ويا ليتهم جربوها وربانها قائم عليها .

الطائرة هي الإسلام ، والطيار هو الجدد ، العالم الوارث ، فأين هو ؟ قد يكون بين ظهرينا ، فيا سعادة من يضع يده بيده ، ويما تعasse من يقف حجر عثرة في طريقه ، أو يروج الإشاعات حوله !

(١) سورة فصلت ، الآية الكريمة : ٣٥ .

□ يحيى جلال الدين الرومي حكاية لطيفة في موضوع الدعاة المخلصين ،
والرجال الحقيقين العاملين ، أعرضها بمعناها :

رأى رجلاً يدور حول المدينة ليلاً ، وقد حمل مشعلاً كأنه يبحث عن شيء ، فسأله : يا سيدِي ! تبحث عن شيء ، قال : نعم ... ضقت ذرعاً بمعاشرة الناس العاديين على اختلاف مظاهرهم ، وخرجت أبحث عن إنسان علّاق مغوار . لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي . فقلت له : إن الذي تبحث عنه ، ليس يسير المنال ، وقد بحثت عنه طويلاً فلم أجده ، فقال : إبني مغرم بالبحث عن لا يوجد بسهولة ، ولا يعثر عليه في الطرقات !

□ المسلمين اليوم - بل من بقي منهم على الإسلام - يغالي في العبادات ، والعالم في المسجد - إن علّم - لا يعلم إلا العبادات ، وكان الإسلام دين رهبانية : قيام وصيام وذكر الله كثير ، وإذا حان موسم الحج هرعوا إليه كل سنة ، وهذا هو كل الدين عندهم ، أين الدنيا ، ولمن تركوها ؟

العبادات فريضة لا شك فيها ، ولكنها جزء من الإسلام ، فـأين ما ينهض بال المسلمين من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ؟ وما إلى هذا مما يحفظ عليهم ، دنياهم كريمة ، ولا يجعلهم فيها أقل نجاحاً من غيرهم ، كيلا يطعم فيهم طامع ، ولا يستبيح حمام عدو ، فيلوك عليهم أمرهم ، ويضيع عليهم دينهم ودنياهم !

ولضياع هذه المعاني ، وللفهم الخاطئ المبتور ، نحن بحاجة إلى التجديد ، لأن أمور العبادة في الإسلام لا تقبل التغيير ، فالصلوة هي الصلاة ، والصوم هو الصوم ، والزكاة هي الزكاة ...

الإسلام دين جامع لصلاح الدنيا والآخرة : ﴿ فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا ، وَحَسِنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ﴾ . الاسلام نهضة دينية وحضارية معاً ، اتسع للدين والدنيا ، وما رجح واحدة عن أخرى ، غايتها نهوض عام بالبشرية جماء ، ووسائل النهوض تسير في طريق الارتقاء ، ولا تقف عند حد محدود ولا تتعدها ، فأمرها مختلف عن العبادات ، ومن هنا فإن الإسلام يتسع للتجديد في كل زمان ، والتجدد نهوض بال المسلمين في أمور دنياهم ، قبل أن يكون نهوضاً في أمور أخراهم .

□ في مؤتمر باندونغ الإسلامي ، الذي عقد في آذار ١٩٦٥ ، مثل سورية ساحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية . فاستشار الأعجاب ، عند إلقائه كلمة سورية ، إذ كانت كلمته رائدة في مجال تفهم الإسلام الحق المصفى ، التفهم الواقعي العملي ، ذلك الدين الذي ضمن للبشرية كافة ، السعادة في الدنيا والآخرة . فقرأ سماحته الآية الشريفة : ﴿ رَبُّنَا آتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ وتعهد أن يقرأها خطأً بوضع كلمة « الآخرة » قبل كلمة « الدنيا » . فصرخ الحاضرون من كل مكان يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ... » فأعاد تلاوتها ، وتعهد بثالثة أن يخطئ في تلاوتها ، فشارت ثائرة الوفود يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ... » فالتفت إليهم ، وعلى شفتيه ابتسامة ذات مدلول كبير وقال :

- أَيُّهَا الْإِخْرَوَةُ رُؤْسَاءُ وَأَعْضَاءُ وَفُوْدِ الْمُؤْتَمِرِ ، أَظُنُّ أَنَّكُمْ تَعْقِدُونَ أَنَّهُ لَا يَوْجُدُ مُسْلِمٌ يَخْطُئُ فِي تِلَاقِهِ هَذِهِ الْآيَةَ ... وَلَكِنِّي قَرَأْتُهَا عَلَى هَذَا الشَّكْلِ بِلِسَانِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ حَذَفُوا الدُّنْيَا مِنْ حِسَابِهِمْ ، إِنَّكُمْ لَا تَرْضُونَ أَبْدًا أَنْ نَبْدِلَ لِفَظَ كَلْمَةً بِكَلْمَةٍ أُخْرَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . فَكَيْفَ نَرْضُ أَنْ يَمْتَهِنَ هَذَا التَّحْرِيفُ لِلْقُرْآنِ فِي حِيزِ الْأَعْمَالِ ، وَفِي نَطَاقِ الْأَفْعَالِ ، فِي مُخْتَلِفِ مِيَادِينِ الْحَيَاةِ ؟ !

هل المسلمون اليوم ، على حالة حسنة ترضي الله رب العالمين ؟ أين التقدم العلمي والتكنولوجي لدى المسلمين ؟ أين الرقي والتطور الحضاري في بلاد المسلمين ؟ أين العزة والرفعة التي اختص الله بها نفسه والمسلمين ؟ إن واقع المسلمين إن دل على شيء ، فإنما يدل على أنهم اتجهوا في الأعصر الأخيرة ، إلى طلب الحالة الحسنة في الآخرة ، وترك الحسنة في الدنيا ، وهذا تحويل معاني القرآن الكريم ، أخطر من تحويل الألفاظ والكلمات .

وانفجر الحاضرون بتصفيق حاد طويلاً ، يعبر عن مدى ما حملت هذه النفوس ، من إعجاب كبير حيث وضع المؤتمر أمام مسؤولياته ، وفي وجوب العمل على السير بال المسلمين إلى سبيل تحقيق الإسلام بعناء الكامل ، الذي لا يضيع الدنيا ، ويقتصر على الجانب الآخر من هذا الدين الحنيف . وانصرف المؤمنون عن طرح ومناقشة القضايا ذات النتائج العقية ، ليلتقطوا إلى النظر فيما يكن أن يعود على المسلمين بالخير ، وتم اتخاذ عدد من المقررات ، كان من أهم النجزات التي تمت خلال المؤتمر : إنشاء جامعة للدعوة الإسلامية .

☆ ☆ ☆

وقف غلادستون ، رئيس وزراء بريطانيا (١٨٦٨ - ١٨٧٤) ، الذي نشأ قسيساً ، وكان معروفاً بعدائيه للعالم الإسلامي ، في مجلس العموم البريطاني وقد حمل قرآناً بيده وقال : لن تسطروا على بلاد المسلمين ، إلا عندما تنزعوا هذا الكتاب من بين أيديهم ، وتشككوه به .

لقد نجحت خطة التبشير ، وضاع القرآن من بين أيدي المسلمين ، ضاع فهمه وضاعت أحکامه في معاملاتهم ...

والعالم الإسلامي ينتظر المجد وقد أصبحنا في القرن الخامس عشر

للهجرة ... ليعيد إلى القرآن نضارته في النفوس ، وتطبيقه في الأفعال ، ويكون طريق رفتنا وعزتنا كـأ أيام الراشدين : فالملمون يعانون اليوم من التخلف العلمي .. وقد رأينا القرآن يدعو إلى العلم بصرىح آياته ب مختلف صوره ، بما ينهض بالأمة في كل المجالات .

والملمون اليوم يعانون من التخلف الخلقي ، والقرآن قد دعا إلى تربية خلقية مثالية ، ضفت سابقاً ، وتضمن اليوم الأمان والطمأنينة للفرد والمجتمع .

والملمون يعانون اقسامات وفرقة ، والقرآن دعا إلى الوحدة ، فأيام النبي الكريم حين كان القرآن ينزل ، لم يكن هناك اسم للمؤمنين سوى كلمة « مؤمن » أو لم يكن هناك اسم للملمين سوى كلمة « مسلم » .. ولم يكن هناك كلمة : سني أو شيعي أو سلفي أو صوفي ...

فتشتتت نعود إلى هذا اللفظ : « مؤمن مسلم » ؟ الذي يجمع الأمة على قلب رجل واحد ، يتغذى بعائدة القرآن ، ودعوته الصريحة إلى الوحدة ، ونبذ الفرقـة والتنافر والتطاحن ...

خصوصا ... وأن أعداء الإسلام ، حين عجزوا عن تحوير وتحريف نصوص القرآن ، دخلوا من باب تحوير وتحريف المعاني والتفسير والفهم ، فجعلونـا مذاهب وشيعـا . ولن ينقذنا .. إلا الرجوع إلى فهم القرآن الكريم ، كما فـهمـ النبي ﷺ ، وإلى عصر النبوة فيها سليماً ..

هـذا ما نـدعـوـ إـلـيـهـ ... فـتـقـتـجـابـ الدـعـوـةـ ... وـالـوـاقـعـ يـدـعـونـاـ جـمـيـعاـ لـلـاسـتـجـابـةـ ، فـالـعـدـوـ الصـهـيـوـنـيـ - وـمـنـ وـرـائـهـ الـاستـعـمـارـ الـحـدـيـثـ - يـهدـدـ مـقـدـسـاتـنـاـ ، وـيـطـعـنـنـاـ فـيـ قـلـبـ الـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ .. بـلـ إـنـهـ يـهدـدـ وـجـودـنـاـ الـحـضـارـيـ كـلـهـ ! ! .

﴿... وَيَوْمَئِذٍ يُقْرَأُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يُنْصَرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الرـحـيمـ (الرـومـ / ٤) .

مَصَادِرُ الْبَحْث

- | | | |
|---|---|--|
| دار الكتب الحديثة
دار العلم للملائين ط٤
المكتبة المصرية
الطبعة الثالثة
دار مكتبة الحياة
دار الرائد العربي
دار المعرفة « بيروت »
مكتبة الكليات الأزهرية ط٢
دار المعارف ط٢
« القاهرة ». .
دار الشرق
إدارة الطباعة المنيرية
دار الشعب
مكتبة وهبة ط٢
سلسلة الثقافة الإسلامية
سلسلة الثقافة الإسلامية
دار الشعب
دار النهضة العربية ط٢
دار العهد الجديد
دار الكاتب العربي
مكتبة الأداب ومطبعتها
مكتبة وهبة
طبعه البابي الحلبي
سلسلة أقرأ | عباس محمود العقاد
محمد أسد
الشيخ مصطفى الغلاياني
خير الدين الزركلي
د . جيب
د . أحمد الشريachi
أبو حامد الغزالى
د . عبد العظيم شرف الدين
العقاد
مجلة العشيرة الحمدية
د . مصطفى محمود
ابن الأثير الجزري
د . عبد الحليم محمود
سيد قطب
محمد أبو زهرة
د . سليمان دنيا
ابن الأثير الجزري
توماس و . أرنولد
محمد عبد المنعم خفاجي
عارف تامر
عبد المتعال الصعيدي
د . محمد البهـي
طنطاوي جوهرـي
طـه عبد الباقي سـورـ | ١ - الإسلام في القرن العشرين
٢ - الإسلام على مفترق الطرق
٣ - الإسلام روح المدينة
٤ - الأعلام
٥ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام
٦ - أخلاق القرآن
٧ - إحياء علوم الدين
٨ - ابن قيم الجوزية
٩ - إثر العرب في الحضارة الأوروبية
١٠ - المسلم
١١ - القرآن محاولة لفهم عصري
١٢ - الكامل في التاريخ
١٣ - الفضيل بن عياض
١٤ - المستقبل لهذا الدين
١٥ - الوحدة الإسلامية
١٦ - الدين والعقل
١٧ - أسد العافية
١٨ - الدعوة إلى الإسلام
١٩ - التراث الروحي
٢٠ - القراءطة
٢١ - المجدون في الإسلام
٢٢ - الفكر الإسلامي الحديث
٢٣ - الجوهرـي
٢٤ - الغـزالـي |
|---|---|--|

- ٢٥ - المغرب العربي
- ٢٦ - الدستور القرآني والسنّة النبوية محمد عزّة دروزة
- ٢٧ - أنس بن مالك عبد الحميد طهّاز
- ٢٨ - الإمام الشافعى عبد الغنى الدقر
- ٢٩ - القرآن والتفسير العصري د . بنت الشاطئ العقاد
- ٣٠ - الفلسفة القرآنية العقاد
- ٣١ - المدخل إلى علم أصول الفقه محمد معروف الدوالibi
- ٣٢ - الملل والنحل الشهريستاني
- ٣٣ - إغاثة اللهاfan من مصادف الشيطان ابن قييم الجوزية
- ٣٤ - أعلام الموقعين ابن قييم الجوزية
- ٣٥ - أصول التشريع الإسلامي علي حسب الله
- ٣٦ - الدعوة الإسلامية دعوة عالمية محمد الرواوى
- ٣٧ - تلبیس ابليس عبد الرحمن بن الجوزي
- ٣٨ - تجديد التفكير الديني في الإسلام د . محمد اقبال
- ٣٩ - تذكرة دعاء الإسلام أبو الأعلى المودودي
- ٤٠ - تاريخ الطبرى ابن جریر الطبرى
- ٤١ - تاريخ الشعوب الإسلامية كارل برووكمان
- ٤٢ - تاريخ الدولة العربية يوليوس فلهوازن
- ٤٣ - تحت راية القرآن مصطفى صادق الرافعى
- ٤٤ - تهذيب سيرة ابن هشام دار سعد بمصر عبد السلام هارون
- ٤٥ - جامع بيان العلم وفضله المكتبة الـلـفـيـة ط ٢ ابن عبد البر التمـرـيـ القـرـطـيـ
- ٤٦ - جمال الدين الأفـقـانـي عبد القادر المـغـربـي
- ٤٧ - جمال الدين الأفـقـانـي الحـسـنـي محمد المخـزوـمـي
- ٤٨ - حضارة العرب غوستاف لوبيون
- ٤٩ - خطـرـ اليـهـودـيـةـ العـالـمـيـةـ عـلـىـ الإـسـلـامـ وـالـمـسـيـحـيـةـ عبد الله التـلـ
- ٥٠ - دراسات في حضارة الإسلام هاملتون جـيـبـ
- ٥١ - دراسات في الفلسفة القرآنية د . محمود قاسم
- ٥٢ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام أبو الحسن التـدوـيـ دـ.ـ صـلاحـ عـقادـ

- | | | |
|------------------------------|--|--|
| دار النهضة العربية ط ٢ | عبد الرحمن بدوي | ٥٣ - شخصيات قلقة في الاسلام |
| دار الفكر | مالك بن نبي | ٥٤ - شروط النهضة |
| الدار القومية للطباعة والنشر | الإمام البخاري | ٥٥ - صحيح البخاري |
| دار القلم دمشق - بيروت | محمد رجب بيومي | ٥٦ - علماء في وجه الطغيان |
| منشورات عويدات - بيروت | محمد عثمان جمال | ٥٧ - عبد الله بن المبارك |
| ١٩٦١ - البابي الحلبي : | محمد باقر الصدر | ٥٨ - فلسفتنا |
| الدار القومية للطباعة والنشر | محمد بن علي بن عطية | ٥٩ - قوت القلوب |
| ١٩٧٤ - دار الثقافة : | الحارثي المكي | ٦٠ - كيف انتشر الاسلام |
| ٢ - دار الكتب الحديثة : | محمد المهدي الحسيني الشيرازي شباب التبلیغ - كربلاء | ٦١ - مع الأبطال |
| مطبعة النار ، ط ١ : | محمد رجب بيومي | ٦٢ - من أخلاق العلماء |
| دار الكتاب العربي | أبو الوفا الغنمي التفتنازي | ٦٣ - مدخل إلى التصوف الإسلامي |
| دار العلم للملائين | فتحي يكن | ٦٤ - مشكلات الدعوة والداعية |
| دار القلم - الكويت | خالد محمد خالد | ٦٥ - معاً على الطريق : محمد والمسيح |
| دار العلم للملائين | ابن قيم الجوزية | ٦٦ - مدرج السالكين |
| | ماذا خسر العالم باغhatاط المسلمين الندووي | ٦٧ - ماذا خسر العالم باغhatاط المسلمين الندووي |
| | د . صبحي الصالح | ٦٨ - مباحث في علوم القرآن |
| | أبو الأعلى المودودي | ٦٩ - ما هي القاديانية |
| | محمد الغزالى | ٧٠ - نظرات في القرآن |



المحتوى

صفحة		تصدير
٧		
٢٢	مدخل : الميزان	
٢٦	الشرع هو الميزان « قرآن وسنة واجماع »	
٣٢	دعوة القرآن : القرآن والربوبية	
٣٤	القرآن والتربية الخلقية	
٤٩	القرآن والعلم	
٦٥	العلماء في الميزان	
٦٩	- مالم	
٧٢	- فیا بينهم	
٧٩	- ما عليهم	
٨٧	وأنت أئيها المسلم !	
٩٦	ثرة القرآن الأولى	
١٠٧	أمراء حفظوا القرآن :	
١٠٨	أبو بكر الصديق	
١١٤	عمر الفاروق	
١٢٦	عمر بن عبد العزيز	
١٣٥	أبو جعفر المنصور	
١٣٨	محمد بن زنكي	
١٤٣	عبد الملك بن مروان	
١٤٤	هارون الرشيد	
١٤٦	المأمون	
١٤٧	المعتصم	
١٥١	علماء حفظوا القرآن : سعيد بن المسيب	
١٥٣	سعید بن جبیر	
١٥٨	الحسن البصري	

١٦٠	عمرٌ بن عبيد
١٦٤	أبو حنيفة
١٦٨	مالك بن أنس
١٧٢	عبد الله بن المبارك
١٨٢	أسد بن الفرات
١٨٦	أبو حامد الغزالى
١٩٤	العز بن عبد السلام
٢٠٣	محى الدين النووي
٢٠٦	ابن تيمية
٢١٠	ابن قيم الجوزية
٢٢١	جال الدين الأفغاني
٢٢٦	محمد عبده
٢٢٢	هؤلاء شوّهوا الشريعة :
٢٢٣	اخوان الصفاء وخلان الوفاء
٢٢٥	البهائية أو البهائية
٢٢٨	القاديانية
٢٤٣	الاجتهاد : مبدأ تغيير الأحكام بتغير الأزمان
٢٤٨	الثابت والمتتطور من الأحكام
٢٥٠	مبدأ النظر في مالات الأفعال
٢٥٤	الأدلة : ١ - كتاب الله
٢٥٥	٢ - السُّنةُ الشَّرِيفَةُ
٢٦٩	القرآن المضيع بين التصوف والفقه !
٢٨٩	القرآن المضيع ومشكلاتنا المعاصرة
٢٩٧	وبالتتجديد نصون القرآن من الضياع
٣٠٥	خاتمة
٣١٦	مصادر الكتاب

WHO HAS INACTIVATED THE QUR'AN ? Man Ḏayya' al-Qur'ān? Dr. Shawqī Abū Khalīl

من ضيّع القرآن؟

هل تغيير القرآن الكريم وما احتوى من مبادئ
وأهداف؟

اللهم لا، وألف لا.

هل ساء الفهم، وتغيير المفسرون والفاسدون لهذا
القرآن ومعانيه؟

اللهم نعم، وألف نعم.

لم يتغير القرآن الكريم في ألفاظه، ولا ضاعت آياته
المسطورة، وهو في بيت كل مسلم، ونسمه من
إذاعات العالم محوّداً بأذن الأصوات، ولكن الذي
حدث أن هذا القرآن الكريم قد ضاع على الرغم من
وجوده!!

في هذا الكتاب (من ضيّع القرآن؟) سنرى من
أضاعه عن هدفه ومراميه، وهجره تطبيقاً وفهمـاً
صحيفاً ودينـاً حيـاتـاً وعـامـلاـتـ ورـكـيزـةـ حـيـاةـ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَّ
أَتَحْذَنُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٠] .

وقال رسول الله ﷺ: « يأتي على الناس زمان ،
القرآن في وادي، وهم في وادي غيره » [رواية الحكيم عن
حیان بن حجر].



دار
التراث
العربي
والتراث
الإسلامي
والتراث
العربي

WWW.FURAT.COM

DAR AL-FIKR

3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213

U.S.A

Tel: (412) 441-5226

Fax: (775) 417-0836

e-mail: fikr@fikr.com

<http://www.fikr.com/>

ISBN 1-57547-240-6



9 781575 472409